منه عام من لعزله



جَابِريْيل غارسيا ماركيز

الحائزعلى جَائِزة سُؤنِ للآدَابِ



مئة عَامِ مَنْ لِعزلة

جميع ممقوق الطب والينشر محفوظت

المطبعة الأولى 1991



دمشت دستيروت

سبيرون : شادع المعموله رص.ب ۱۱۲/۵۷۲۰ دمشستی : العبعسساف رص.ب ۲۲۰۸ هاتف ۲۲/۵۲۱ رسمانعای ۲۹۸۵۷

متدبة

لئن كانت هذه الرواية هي الثالثة في ما نقدمه في روايات من أعمال الكاتب الكولومبي الاشهر جابرييل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل في الادب «١٩٨٢» بعد روايتي «الضحية» و دليالي الحب والرعب ، المنشورتين في ابريل ونوفمبر ١٩٨٣ ، الا أنها معدودة على النطاق الأدبي العالمي قمة أعماله التي نيفت على العشرة، حتى أصبحت أحدى الشوامخ في الفن الروائي قديمه وحديثه، وجلبت له من الشهرة واليسر ما عوضه عن كفاحه الطويل لتحقيق. هدفه كواحد من أبرز اعلام الادب المعاصر، ومن ثم كان الاجدر ان نستهل بها رواياته في ما ننقله منها الى العربية لأول مرة، لولا أن آثرنا إرجاءها الى ما بعد نشر روايتيه آنفتي الذكر، ليكون القارىء بعد تذوقهما أكثر توقاً الى هذه الرائعة بصفة خاصة، وأشد إقبالًا عليها، وأوفر قسطا من المتاع بها . والواقع ان القارىء لا يملك الا أن يلهث طوال قراءتها وأن يستبق صحائفها حتى يشفى منها على النهاية بغير انقطاع ولا يلبث وهو متأثر أشد التأثر مبهور غاية البهر بما يجليه المؤلف من غراثب الاحداث وخوارق الوقائع ودخائل المشاعر ودقائق التحليلات وعظائم المفاجآت. حشدها جميعاً على صعيد واحد وعلى مدار عشرة عقود من الزمان لأسرة لعله لم يخلق مثلها في التفرد والغرابة، وكل ذلك في اقتدار وبراعة بالغين، وفي شمول جامع لا تند منه هنة من الهنات، وفي إحكام

وثيق لا تشرد فيه من أوله الى آخره شاردة، متفرداً في كل أولئك بما لم يضارعه فيه سوى قلة قليلة من أساطين الفن الرواثي من طواز هوجو وبلزاك ودوستويفسكي وتولستوي وتوماس مان وديكنز وأضرابهم... وإذا كان لا يسوغ في هله العجالة ان نعرض لصلب الرواية ببيان قد ينال من متاع القارىء بها، فإن هذا لا يمنع من ازجاء بعض اللمحات الطائرة من وقائعها وشخوصها ومناحيها الفكرية والنقسية والحسية، لتكون مدخلًا الى هذا الحشد القصصي الضخم، وللقارىء بعد ذلك أن يستأثر وحده بالسياق الخصبه والمتعة السائغة غير منقوصين ، منوهين فحسب بأن الغواية كانت هي السمة المشتركة في ما تعاقب على أبطالها من احداث وما اضطرم فيهم من نوازع، وهي آفة ظلت لعنتها تطاردهم حتى آخو فرد من سلالتهم . . فاشهد معى على هذه اللمحات :

د... له يكن يعرف سر مولده قط، ولكن تلك المرأة كانت تضرم النيران حامية في عروقه كلما اقتربت منه... كانت تذكي مشاعره بقوة خارقة مثلما كانت بالنسبة لابن الملرد الهمجي ومن بعده عمه السحارب، وعندما واتته الغوصة للانفراد بها اشتد هلعها وإن عجزت عن مكاشفته بأمومتها له، ولم يتوكها الا على موعد ليلي، ولكنه ظل طول ليله يتقلب على جمر من سعير عواطفه الى أن..».

د... ولقد ظل على عزلته وانطوائه الى أن حدث ما جعله يواجه واقع اللدنيا بمقدم تلك المرأة التي حيته بمعرفة اكيدة لم تثر دهشته اذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين أخيه التوام، بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن منحته حبها.. وبعد انقضاء أسابيع تحقق أن المرأة كانت تعاشره مع أحيه التوام معتقدة أنهما شخص واحد...»

1. وكادت الجدة تفقد عقلها بشذوذ أطوار ذريتها، حتى لكأن نقائص الأسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت فيهم، ولهذا نذرت في نفسها أن تتولى بنفسها تربية وصياغة هذا الحفيد ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للأسرة مكانتها الذاهبة: الرجل الذي لا يغامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات.. وهي العوامل التي عدتها هادمة لكيان الأسرة على مدار المائة عام من تسلسلها.. الى أن روعت به في النهاية وقد استحال الى...»

و... والحق أن هذه الفتاة التي لقبوها بالجميلة فم تكن مخلوقة لهذه الدنيا.. كانت الجلة الكبرى تحمد الله أن منح الأسرة فتاة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كان يقلقها في نفس الوقت مثل هذا الجمال الذي علته شركاً شيطانياً تحت طابع البراءة.. كانت الفتاة تؤثر البساطة في كل شيء، ولهذا داست على الازياء النسائية وخاطت لنفسها ثوباً فضفاضاً كالجلباب غير مبالية بأنها تبدو فيه شبه عارية.. وحلقت شعرها بعد أن رأتهم يؤنبونها لتركه مرسلاً حتى الفخلين.. وكان الشيء المروع في هذا كله أنها كلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لبساطتها وعفويتها، كلما بدا جمالها الصارخ أشد اثارة، وإغراؤها للرجال أعنف وأفدح، ولم تدر أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مذكية للمشاعر مثيرة للاضطراب هو كارثة يومية محققة، الى أن تحققت الكارثة و...».

و... ولقد بلغت البلية ذروتها عندما جيء بالمولود الى البيت الكبير... فاضطرت هذه التي اصبحت جدة قبل الاوان الى اخفائه عن العيان حتى تتدبر الامر، بعد أن أعوزتها الشجاعة لإغراقه في الصهريج

تخلصاً من العار، ثم زعمت في ما بعد أنهم وجدوه في سلة طافية في النهر. . » .

«... نشأت هي وهو في رحاب البيت الكبير يلعبان ويلهوان طوال سني الطغولة... وبعد عودتها الى البيت بعد طول السنين بصحبة زوجها المطواع الذي طوقت رقبته بحبل من حرير وجدت سليل الأسرة ورفيق المطفولة مارداً حتى لقبته بالمتوحش مداعبة.. وأصبح ثلاثتهم كل الماقين في البيت المهجور... ولم تلاحظ أول الامر هذا التغيير الكبير الذي طرأ عليه منذ عودتها.. كان لا يزال على انطوائه وحيائه عندما عانقته كاخت وتركته لاهث الانفاس، يهرب ما استطاع من مداعبات تلك الخالة الفتية التي اصبحت تقض مضجعه وتسمم لياليه.. الى أن جاء ذلك اليوم المستطير الذي أبصرها فيه برداء الحمام، عتبمها على أطراف أصابعه و...».

و... وشد ما كان ارتياعهما عندما اكتشفت القابلة ان آخر سلالة الاسرة هذا الذي تلقفته لتوها من بطن أمه له ذيل خنزير. إذن فقد صدقت الاسطورة التي توارثتها الاسرة جيلا بعد جيل : من أن تزاوج الاقارب يشمر هذا المسخ الشيطاني . . . »

* * *

د... ومضى رغم ذلك في حياته الماجنة العابثة معرضاً عن زوجته، فقد عد ان ما ناله من ثراء موفور انما كان وليد علاقته بتلك العشيقة، منذ كانت الافراس تلد ثلاثاً كل مرة، والدجاج يبيض مرتين في اليوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة أن أحداً لم يصدق هذه الخصوبة الغريبة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود...».

هكذا ترى أن الغواية كانت هي القاسم المشترك في حياة هذه الاسرة الغريبة نساء ورجالاً حتى امتدت لعنتها الى آخر سليل منهم . . وإنما أروع ما في هذا كله هو قدرة هذا المؤلف القدير على حشد أجيال الاسرة جميعاً بين دوايته ، وربط أحداث حيواتهم برباط وثيق لا تفكك فيه ، وتحليل نزعاتهم ومشاعرهم ، ذلك التحليل الدافذ العمق الى الدخائل ، وإن اقتضى ذلك تعرية شتى منازعهم على حقيقتها بغير مداراة ولا تزويق ، حتى تجدك تتقلب في عالم ماثج صاخب فوار ، ولكنه يمتع عقلك ، ويذكي خيالك ، استحقاقه للجائزة العالمية أسلوبه الفذ الذي يجمع بين الخيال والواقع ، وهو الكاتب الذي ظل مدى ستة عشر عاما يفكر في هذه الرواية وهي تختمر في الكاتب الذي ظل مدى ستة عشر عاما يفكر في هذه الرواية وهي تختمر في عامين متخلياً عن كافة شؤون أسرته الى زوجته على الرغم من ثقل اعبائه ، عامين متخلياً عن كافة شؤون أسرته الى زوجته على الرغم من ثقل اعبائه ، حتى اذا اتسقت له عملاً سبوياً ناضجاً وتم نشرها أكسبته شهرة مستفيضة ، ودرت عليه يسراً عوضه عن بأساء حياته الفانية ، وتربعت عملاً مجيداً في عداد التراث الادبي العالمي . .

**

وبعد، فما أحسبني، والقارىء مشوق الى الرواية ذاتها دون مزيد من الإفاضة، بحاجة الى التحدث عن سيرة المؤلف تفصيلاً وقد اوردتها بإسهاب في روايتيه سالفتي الذكر، وانما اجتزىء هنا ببيان أهم أعماله وهي حسب تسلسل صدورها منذ عام ١٩٥٣ حتى الآن: (عيون الكلب الأزرق)، (الأوراق الـذابلة)، (أرينديرا وجدتها القاسية)، وقد صدرت بعنوان (الضحية)، (مأتم الأم الكبرى)، (ساعة النحس)، وقد صدرت بعنوان : (ليالي الحب والرعب)، (لا أحد يكتب الى الكولونيل)، (ماثة

عــام من العزلــة) ، الروايــة الحاليــة بعنوان : (لعنــة الغوايــة) ، (خريف البطريرك) ، (وقائع موت معلن عنه) .

والى اللقاء في التحفة الرابعة من روائع هذا الكاتب المبرز، نجلوها الى القارىء في عدد قادم من روايات الهلال بعون من الله وهو ولي التوفيق.

محمود مسعود

الفصل الأول

كان على الكولونيل (أوريليانو بوينديا) ان يتذكر بعد طول السنين وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، عصر ذلك اليوم البعيد عندما صحبه أبوه لاكتشاف الثلج . . . في ذلك العهد كانت (ماكوندو) قرية مؤلفة من عشرين بيتاً من الطوب النبيء، بنيت على ضفة نهر صافى المياه تبدو في قاعه احجار مصفولة أشبه في بياضها وضخامتها ببيض حيوانات ما قبل التاريخ... وكانت الدنيا غضة الى حد أن كثيراً من الأشياء كانت تنقصها المسميات، فيستعان على وصفها بالإشارة. . . وفي كل عام كانت تفد على القرية في شهر مارس اسرة من (الغجر) المهلهلين، تنصب خيامها خارج القرية، وبين لعلعة المزامير ودق الطبول المدوية تأخذ في عرض العديد من المخترعات... وكان أول ما جاءوا به هو المغناطيس.. ووقتها قام «غجري » منهم متين البنيان منفوش اللحية قدم نفسه باسم (مالكويداس) بعرض جريء سماه العجيبة الثامنة لعلماء الكيمياء المتنورين في مقدونيا... ومن بیت الی بیت راح یجر کتلتین معدنیتین، فیثیر ذهول الناس اذ یبصرون أوانيهم المعدنية وهي تتهاوي من مواضعها، وإذ يسمعون الالواح الخشبية وهي تصر صريراً بتأثير حركة المسامير وهي تكاد تنتزع من أماكنها، بل وإذ يرون كثيراً من الاشباء التي كانت مفقودة بعد طول بحث وتفتيش تظهر من مخاتبها وتسحب سحباً في اثر كتلتى مالكويداس السحريتين. . وفي ذلك كان مالكويداس يقول للناس المذهولين بصوته الأجش: ولكل شيء من الاشياء حياته الخاصة. . والمسألة ببساطة هي بعث اليقظة في أرواحها » ... وعندئذ فكو (جوزيه أركاديو بوينديا) الواسع الخيال في أنه من

الممكن الانتفاع بهذا الاختراع العديم الجدوى في استخراج الذهب من باطن الارض... ولكن مالكويداس الذي كان رجلاً قويماً قال له: وإن الاختراع لا يتمشى مع هذا ».. يبد أن جوزيه لم يكن يؤمن في ذلك الحين باستقامة (الغجر)؛ وهكذا قايض على كتلتي المغناطيس ببغلته وعنزتين.. ولم تستطع زوجته (أورسولا اجواران) التي كانت تعتمد على هذه الحيوانات في زيادة دخلهما المتواضع ان تثنيه عن عزمه، اذ قال لها: «عما قريب سيكون عندنا من الذهب ما يكفي لتبليط أرضية البيت ».. وقد ظل شهورا طويلة يعمل دائباً لإثبات صحة فكرته.. فراح يستكشف كل شبر في المنطقة، ،حتى قاع النهر، ساحباً كتلتي المغناطيس ومردداً تعاويل مالكويداس بصوت مسموع.. وكان الشيء الوحيد الذي افلح فيه هو استخراج جسم مدرع من القرن الخامس عشر تصلبت اجزاؤه بفعل اليصداً.. وعندما تمكن جوزيه وأفراد بعثته الاربعة من تفكيك الجسم، لم يجدوا بداخله سوى هبكل عظمي متكلس تدلت حول عنقه ايقونة نحاسية بها شعر امرأة!..

وفي مارس من كل عام كان (الغجر) يعودون الى القرية وفي جعبتهم المحتراع جديد.. جاءوا مرة بتلسكوب وعدسة مكبرة بحجم طبلة، فجعلوا امرأة منهم عند طرف القرية ووضعوا التلسكوب في مدخل خيمة، وبثمن قدره خمسة سنتات بالعملة المحلية، كان في مقدور من يدفع ان ينظر من التلسكوب فيبصر المرأة (الغجرية) على قيد ذراع منه، لا أكثر.. وكان مالكويداس يقول في هذا: «إن العلم قد ألغى المسافات... وبعد زمن قصير سيكون في قدرة الانسان أن يرى ما يحدث في أي مكان في العالم دون ان يغادر ببته »!..

وفي عرض مثير آخر وقت الظهيرة سلطوا العدسة المكبرة الضخمة على كوم قش في وسط الشارع، فاشتعلت نار حامية أتت عليه عن آخره...

وسرعان ما أوحى ذلك بفكرة جريثة الى (جوزيه اركاديو بوينديا) تعزيه عن الفشل في استغلال المغناطيس لاستخراج الذهب، وهي استخدام هذا الاختراع كسلاح حربي... وهكذا قايض مالكويداس على اقتناء العدسة مقابل كتلتي المغناطيس وثلاث قطع من العملة الذهبية مما ورثته زوجته عن أبيها، وكانت تخفيها في الارض تحت الفراش انتظاراً لاستغلال القطع كلها استغلالًا نافعاً في المستقبل، غير عابىء ببكائها وحزنها... وإثباتاً لآثار العدسة المحرقة على جنود العدو، فقد عرض جسده لاشعة الشمس المركزة من خلال العدسة الضخمة، وكانت النتيجة اصابته بحروق خطيرة كادت تودي بحياته واستغرق وقتا طويلا للشفاء منها، بل لقد تعرض البيت كله للحريق ! . . ومع ذلك سرعان ما نشط جوزيه لإعداد تقرير مفصل عن اختراعه الخطير الذي سماه (الحرب الشمسية) وبعث به مع رسول خاص الى الحكومة مبديا تمام استعداده للسفر وشرح كافة التفاصيل وتدريب الجنود على استخدام السلاح الفتاك متى جاءته الموافقة. ولكن الرسول كاد يهلك في الطريق الى العاصمة بين الجبال والمستنقعات والقفار. . وظل جوزيه ينتظر سنوات عديدة حتى يئس من وصول الرد. . ولما عاد مالكويداس في رحلة (الغجر) السنوية واستمع الى شكوى جوزيه المحزونة بسبب فشل مشروعه الحربي، طيب خاطره ورد اليه القطع الذهبية مقابل استعادة العدْسة المكبرة، ثم أتحفه هذه المرة ـ تدليلًا على اخلاصه ومودته ـ بخرائط جغرافية وادوات ملاحية وفلكية، أفرد لها جوزيه غرفة صغيرة خلف البيت وعكف على اجراء تجاربه العلمية، مهملا شؤون اسرته، تاركا زوجته وولديه يقصمون ظهورهم في فلاحة الارض لاستنبات ما يأكلون. . وكم روع' أفراد الأسرة كلها ذات يوم من شهر ديسمبر عندما جمعهم وقال لهم برصانة وجد بالغين: ولقد اكتشفت من أبحاثي العلمية والفلكية ان الارض مستديرة، مثل برتقالة . . » .

عندئذ لم تتمالك زوجته أورسولا ان صرخت فيه : «اذا كان لا بد أن

تجن، فلتجن وحدك 1.. لكن لا تحاول أن تبث ترهات الغجر في عقول اطفاك 1 ...

بيد أن جوزيه لم يتأثر بما ابدته زوجته من جزع ويأس، فقد جمع رجال القرية وشرح لهم نظريته بأن الانسان يستطيع ان يعود الى المكان الذي يبدأ منه رحلته اذا واصل الإبحار شرقاً. . ولكنه زادهم اقتناعاً بأنه فقد عقله، وظل الحال كذلك الى أن عاد مالكويداس وأثنى بينهم علناً على ذكاء رجل منهم استطاع باستدلالاته المحضة اثبات النظرية التي تم اثباتها فعلا وعملا في العالم المخارجي، وإن لم تكن معروفة من قبل في القرية، وتأكيدا لفرط اعجابه بهذا الرجل القدير فقد اهداه شيئاً كان مقدراً ان يكون له تأثير عميق على مستقبل ماكوندو: ألا وهو (معمل كيميائي) . .

كان المعمل البدائي يشتمل على مجموعة كاملة من الانابيب والقنائي والاواني الزجاجية العجبية، الى جانب مختلف الاحماض والمساحيق والمعادن التي قيل ان بينها المعادن السبعة الرامزة الى الكواكب السبعة. . . ولما كان جوزيه قد استهوته سهولة الوصفات التي اطلع عليها لمضاعفة اية كمية من الذهب، فقد راح يتودد الى أورسولا مدى أسابيع لكي تسمع بإخراج جنيهاتها الذهبية المدفونة تحت السرير، حتى يعمل على مضاعفتها لها أضعافا كثيرة . . وفي النهاية لم تستطع أورسولا سوى النزول عند رغبة زوجها إزاء إلحاحه وإصراره . . . وعندئذ ألقى جوزيه الجنيهات في اناء وخلط بها مقادير من النحاس والكبريت وكبريتور الزرنيخ والرصاص، ثم جعلها تغلي في وعاء به زيت الخروع حتى استحالت الى سائل كثيف بدا في خطرة للتقطير ثم الخلط بالمعادن الكوكبية السبعة والزئبق ثم التبريد في خطرة للتقطير ثم الخلط بالمعادن الكوكبية السبعة والزئبق ثم التبريد في النهاية ، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت في النهاية ، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت في النهاية ، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت في النهاية ، إذ بميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت في النهاية ، إذ الميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت في النها الإناء التصافا لا فكاك منه ! .

كانت هذه التجربة المريرة باعثة على حزن جوزيه حتى نفض يديه بين عشية وضحاها من القيام بمزيد من التجارب في عالم الكيمياء.. وانصرف عن كل شيء حتى الاكل، وراح يدور في أرجاء البيت مغموما، ولكنه كان يقول لزوجته أورسولا: «هناك أشياء لا تصدق تحدث في الدنيا..في ما وراء النهر الذي يحد قريتنا، هناك كل أنواع الادوات السحرية العجيبة، ونحن نعيش هنا كالحمير ١٤..

والحق ان (جوزيه اركاديو بوينديا) كان طوال شبابه مجدا مكافحا متفانيا في رعاية أسرته ومتعاونا مع جيرانه في العمل على رفاهية القرية، واليه يرجع الفضل في تخطيط ماكوندو على نظام منسق بديع حتى أضحت بسكانها الثلاثمائة افضل من كل قرية اخرى معروفة في ذلك العهد، لا يزيد عمر كل فرد من أبنائها عن الثلاثين، ولم تحدث فيها وفاة واحدة. . .

بيد أن هذه الروح الاجتماعية الوثابة ما لبثت ان انجتفت بعد ظهور حمى المغناطيسات، والادوات والحسابات الفلكية، وأحلام تحويل المعادن الى ذهب، ومضاعفة مقاديره، وشهوة اكتشاف عجائب العالم.. وهكذا إستحال جوزيه من إنسان نظيف نشط الى شخص كسول في مظهره مهمل في ملابسه اشعث اللحية حتى اضطرت أورسولا الى تقليمها له بعد جهد كبير مستعينة بسكين المطبخ.. وكثيرون هم الذين اعتقدوا انه أصبح ضحية لون من السحر غامض خفي ...

وفي هذا قالت له أورسولا ذات يوم :

- بدلا من أن تنهمك هكذا في اختراعاتك الجنونية ومشروعاتك المتهوسة، يجب ان تنشغل بتربية اولادك. . . انظر الى الحالة التي وصلوا اليها، وهم يجرون في كل مكان شاردين مثل الحمير ! . .

وفعلا نظر جوزيه من النافذة، فشاهد ولديه يلعبان في الحديقة

حافيين، وبدا له انه لم يشعر بوجودهما الا في هذه اللحظة... وظل يتأملهما حتى تندت عيناه بالدموع، وما لبث ان جفقهما بظهر يده، وقال وهو يتنهد ممتثلا:

ـ لا باس. . . قولي للولدين أن يأتيا لمساعدتي في جمع ادواتي . .

كان (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر في الرابعة عشرة.. وكان مربع الرأس، كثيف الشعر، يماثل أباه في متانة البنية، ولكن يقصر عنه في التفكير وقوة التخيل.. وكان مولده اثناء رحلة الاسرة بين الجبال، قبل تأسيس قرية ماكوندو، وقد حمد ابواه ربهما اذ لم يولد بملامح حيوانية... وكان (أوريليانو) أول مخلوق بشري ولد في ماكوندو، يناهز السادسة من عمره، وكان أميل الى المصمت والعزلة والانطواء.. لقد سمع بكاؤه وهو لا يزال في رحم أمه، وولد وهو مفتوح العينين... وعندما قطعوا الحبل السري جمل يدير رأسه من جانب لجانب متطلعا الى ما في الغرفة من أشياء ومتفحصا الوجوه من حوله بفضول لا يخالطه أي خوف... وبعدها لم يعبأ بمن اقتربوا منه للنظر اليه، وركز نظراته في السقف المصنوع من النخيل والذي بدا كأنما يوشك ان يخر تحت وطأة المطر الدافق المنهمر..

ومنذ تلك اللحظة التي استرعت فيها اورسولا نظر الاب الى ولديه، عكف جوزيه على تعليمهما القراءة والكتابة ومبادىء الحساب، ولم يفته ان يحدثهما عما في العالم الخارجي من عجائب، مضيفا اليها حصيلته الذاتية من التخيلات والاحلام، ال والتخرصات والاوهام.

والواقع ان هذه (الهلوسة) ظلت محفورة في ذاكرة الصبيين الى حد بعيد حتى أن (الكولونيل اوريليانو) لم ينس بعد طول السنين (وهو واقف امام فريق الرماة ينتظر اشارة الضابط لإطلاق النار) مشهد أبيه عصر ذلك اليوم الحار من شهر مارس، اذ قطع درس الفيزياء الذي كان يلقنه لولديه ،

ووقف مبهورا رافع اليد جامد العينين ، مرهفا سمعه الى الأصوات البعيدة المتدانية الصادرة عن زمور وطبول والغجر ، القادمين الى القرية مرة اخرى، ليتحفوا أهلها بمزيد من أعاجيب العالم الخارجي . . .

كانوا في الحق طرازا جديداً من (الغجر)، شبانا ونساء لا يتكلمون سوى لغتهم، لهم بشرة زيتية وأيد بارعة، بثت رقصاتهم وموسيقاهم البهجة والروع في الشوارع، ومعهم ببغاوات من كل الالوان ترطن الايطالية، وحجاجة تضع ماثة بيضة ذهبية على دق الدفوف، وقرد مدرب يقرأ الطالع، وجهاز متعدد الفوائد التي تشمل الشفاء من الحميات ومساعدة الانسان على نسيان ذكرياته الاليمة، وعشرات اخرى من (المخترعات) المبتكرة الفريدة، حتى أن (جوزيه اركاديو بوينديا) ود لو استطاع ان يخترع هو نفسه جهازا للذاكرة يمكنه من استيعاب كل هذه العجائب واختزائها جميعا في وعيه ا..

في لحظة واحدة سحر (الغجر) القرية كلها.. وألفى سكان ماكوندو انفسهم تائهين في شوارع قريتهم، مذهولين من فرط ما يرون من الأعاجيب...

وراح (جوزيه اركاديو بوينديا) وهو ممسك بولديه حتى لا يضيعا في غمار الزحام يشق طريقه بين بهلوانات ذوي آسنان مذهبة وحواة ذوي ستة أذرع وروائح خانقة من السباخ والاثربة، باحثا عن مالكويداس لكي يكشف له عن مزيد من الاسرار. وفي هذا سأل عديد (الفجر) الذين لم يفهموا لفته، الى أن وصل في النهاية الى الموضع الذي اعتاد مالكويداس أن ينصب فيه خيمته . فوجد ارمنيا كان يعلن بالاسبانية عن شراب يجعل الانسان مخفيا عن العيان . فقد شرب كأسا من مادة عنبرية بجرعة واحدة عندما الترب منه جوزيه مع ولديه بين الجمع المنهبر لمشاهدة هذه الخوارق، واستطاع جوزيه ان يتجه اليه بسؤاله . . واذا (الغجري) يرميه بنظرة شاملة واستطاع جوزيه ان يتجه اليه بسؤاله . . . واذا (الغجري) يرميه بنظرة شاملة

مخيفة قبلما تحول الى بركة دخانية خانقة تردد من فوقها صوته وهمو مقول : « إن مالكويداس قد مات » . . .

لقد حزن جوزيه لهذا النبأ الاليم وجمد في مكانه برهة الى ان تفرق المجمع منجذبين الى فنون الألعاب السحرية الأخرى بينما تبخرت في خلال ذلك بركة الأرمني الدخانية . . . وتحت اصرار ولديه لرؤية اعجوبة الأعاجيب المعلن عنها انتقل معهما الى خيمة اخرى دخلوا اليها بعد دفع ثلاثين سنتا، فشاهدوا مارداً اشعر الجسد حليق الرأس تتدلى من أنفه حلقة نحاسية وتلتف حول كاحله سلسلة حديدية ثقيلة وأمامه صندوق قرصاني كبير . . وعندما فتح المارد الصندوق انبعث منه واثحة ثلجية . . ولم يكن بداخله سوى كتلة شفافة ضخمة بداخلها ابر لا عداد لها وقد تكسر عليها ضوء الغروب بنجوم ملونة . . واجتزأ جوزيه ان يغمغم لولديه بتفسير لا بد منه :

ـ هي أكبر ماسة في الدنيا . . .

ولكن المارد رد عليه مناقضا:

ـ لا . . . انها ثلج . . .

لم يفهم جرزيه، ومد يده في اتجاه الكتلة الكعكية، بيد أن المارد ردها قائلا:

- خمسة سنتات اخرى نظير اللمس. . .

قدفع جوزيه، ووضع يده على كتلة الثلج، وأبقاها بضع دقائق وقد امتلأ قلبه بالخوف والبهجة معا لملمس هذا الجسم الخفي.. وما لبث أن دفع عشر سنتات اخرى تمكينا لولديه من ملامسة هذه الخارقة دون أن يحير قولا.. فأما (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فقد رفض اللمس.. وأما (أوريليانو) فقد تقدم خطوة ووضع يده عليها ثم سحبها في الحال هاتفا:

وإنها تغلي ! ٥. . . ولكن جوزيه الأب الذي اسكرته هذه المعجزة فقد نسي مشروعاته المحمومة وحزنه لفقد مالكويداس معلمه ومشيره الحكيم ودفع خمسة سنتات اخرى ووضع يده من جديد على الكتلة المتلألئة بخشوع وقداسة ، وهتف قائلا :

ـ هذا اعظم اختراع في زماننا ! . .

الفصل الثاني

كان سر اهتمام (جوزيه اركاديو بوينديا) بالثلج هو حلم تراءى له في منامه ذات ليلة وهو في الطريق الى ماكوندو لاول مرة، عن مدينة جدرانها من المرايا. . : ولم يستطع ان يفسر هـ لما الحلم الا يـ وم اكتشف الثلج عنـ لـ (الغجر). . . وقد بدا أه أنه سوف يستطاع في المستقبل القريب صنع كتل هائلة من الثلج على نطاق واسع من مادة عادية كالماء، ومن الكتل تبنى بيوت جديدة للقرية، وهكذا لا تبقى ماكوندو مكاناً يتلظى بالحرارة. بل تتحول الى مدينة تحتمل الحياة فيها. . وإذا كان لم يثابر في محاولاته لإقامة مصنع ثلج، فذلك لأنه كان في ذلك الحين منهمكا أشد الانهماك في تعليم ولديه، خصوصاً أوريليانو، الذي تعلق منذ البداية بالكيمياء. . وقد عكف الاثنان فعلا على محاولة فصل بقايا ثروة أورسولا الذهبية الملتصقة بقاع الإناء واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها. . أما (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فقد عزف عن المشاركة في هذه المحاولة. والواقع أن هذا الابن كان ذا أرادة وعزم، وقد نما جسمه بصورة مفرطة، حتى اذا بلغ سن المراهقة كان أقرب الى صورة مارد. . وفي تلك الايام ترددت على البيت امرأة عرفت بالمرح والإثارة وطلاقة اللسان للمساعدة في أعمال المنزل، وكانت تعرف قراءة الطالع بأوراق اللعب . . وقد حدثتها أورسولا عن ولدها وعن خشيتها من حجمه المجاوز لسنه، فأطلقت المرأة ضحكة رنانة وقالت لها: وبل بالعكس، انه مسوف يكون سعيـد الطالـع ». . . ولكي تثبت المرأة نبوءتها جاءت الى البيت بعد ايــام قلائــل ومعها اوراق كشف الــطالع وأغلقت على نفسها الباب مع الفتى في غرفة خلفية . . . فكانت هذه الخلوة ايذاناً بانقلاب

خطيو في اطواره واذكاء مشاعره العاطفية. . .

كانت هذه المرأة تدعى (بيلار تيرنيرا)، وكانت من أفراد الفريق الذي وقد مع جوزيه الأب لتأسيس ماكوندو، جاءت بها أسرتها عنوة للتفريق بينها وبين الرجل الذي اغواها وهي في سن الرابعة عشرة وظلت علاقتهما سرأ حتى بلغت الثانية والعشرين دون أن يحسمها بالزواج...

فهل كان عجبا ان تجد هذه المرأة في جوزيه الابن خير عوض لها عما فقدته في ذلك العشيق الآبق ؟ . . . بل انها تمادت في هذا الى حد أنه اصبح يتسلل كل ليلة الى بيتها في غفلة من أهله وأهلها . .

وكان جوزيه الابن يجلس نهاره غارقا في ذكريات نشوته الجديدة حتى أنه لم يكد يفهم معنى لهذه الضجة التي شملت البيت كله فجأة عندما راح أبوه وأخوه الاصغر أوريليانو يعلنان في بهجة غامرة نبأ نجاحهما أخيرا في استخلاص ذهب أورسولا من قاع الإناء وتنقيته مما علق به من شوائب... وكانت أورسولا سعيدة غاية السعادة بهذه النتيجة، الى حد انها راحت تحمد الله من أجل اختراع الكيمياء، وذهبت تقدم الحلوى والفاكهة الى أهل القرية الذين توافدوا على الدار لمشاهدة هذه العجبية، وكان جوزيه الاب يريهم الذهب مزهراً وكأنه استنبطه من لا شيء.. وفي النهاية وقف به أمام ابنه الاكبر الذي لم يكن يراه في المعمل الكيميائي في الايام الاخيرة الا تادراً ،

كيف تراه ؟ . . .

فأجاب جوزيه ألابن ببساطة :

ـ مثل براز كلاب . . .

فما كان من الآب الآ أن لطمه بظهر يده لطمة أسالت دمه ودموعه. . . وفي تلك الليلة وضعت له بيلار تيرنيرا (كمادات) فوق الورم، وبذلت له من

حبها ما جعله يهمس في سمعها لئلا يسمعه أحد من أهلهما وهما في غرفة نومها :

- أريد أن اكون معك وحدنا. . سيأتي يوم اقول فيه للناس مـا بيننا، وبعدها لانحتاج الى هذا التستر 1. .

فقالت له دون أن تحاول صده :

- لو تم هذا لكان شيئا جميلا. . اذا اصبحنا وحدنا فسيكون بالامكان ان نترك المصباح مضاء لكي اراك وتراني، بدل هذا الظلام من حولنا. وسيكون لي أن ارفع الصوت وأصرخ دون أن يتدخل أحد، وسيمكنك ان تقول لي علنا ما يخطر ببالك ! . . .

إن هذا الحوار الهامس، وغضبه لما ناله من أبيه، وتشوقه للانطلاق في غرامه هذا الى أبعد مدى. . كل هذا قد بث فيه روح الجرأة، حتى اندفع في لحظة عفوية الى مكاشفة أخيه بحل شيء . . وأول الامر لم يفهم أوريليانو الصغير سوى فكرة المجازفة، واحتمال الخطر الذي تعنيه مغامرة اخيه، ولم يستطع ان يفهم الإثارة التي اشتملت عليها . . وشيئا فشيئاً سرت اليه عدوى القلق، وأصبح يتساءل في نفسه عن كنه الاخطار ويتلمس تفاصيل المعاناة والبهجة التي يتعرض لها أخوه، حتى لقد جعل يسهر انتظارا لمودته حتى والبهجة التي يتعرض لها أخوه، حتى لهد جعل يسهر انتظارا لمودته حتى الفجر . . . ولم يطل بهما الوقت حتى اصبحا يكابدان آثار السهر، ويشتركان في العزوف عن الكيمياء وما يبثه فيهما الاب من تعاليم وحكمة، ولم يجدا ملاذا الا في العزلة والأنطواء . . . وعندما فطنت أورسولا الى حالهما قالت :

- إن الولدين قد اختل عقلهما. . لا بد أن عندهما ديدانا . . .

وبادرت فأعدت لهما (شربة) كريهة ارغمتهما على تناولها حتى لقد تبرز كلاهما احدى عشرة مرة في يوم واحد، مفرزين طفيليات ورديـة اللون أبهجهما أن يرياها للجميع، اذ هيا لهما ذلك خداع أورسولا وتحويل نظرها

عن المصدر الحقيقي لاضطراب احوالهما . .

وفي الساعة الثانية من صباح يوم خميس في يناير وضعت أورسولا المحامل في شهرها التاسع ابنتها (امارانتا). . وعندما فحصتها الام وهي وحدها وجدتها خفيفة مائية مثل ورل صغير، ولكنها حمدت الله اذ كانت كل اعضائها بشرية (كان هذا الخوف المتكرر من جانب الام عقب كل ولادة مرجعه الى اسطورة مؤداها أن زواجها بين اثنين من أسلاف أسرتها وأسرة زوجها من الاقارب قد انجب ولدا له ذيل خنزير وقد عاش متخفيا حتى سن الاربعين في ملابس فضفاضة الى أن قطع قصاب ذيله بسكين فنزف حتى الموت) . . .

ومهما يكن فإن أوريليانو لم يلاحظ هذا الحدث الجديد الا عندما امتلا البيت بالناس فانتهز فرصة الهرج وخرج للبحث عن أخيه اللذي لم يبت معه في الفراش منذ الساعة الحادية عشرة، وكانت هذه الفكرة مفاجئة اذ لم يخطر بباله كيف يمكنه استدراج اخيه من غرفة ببلار تيرنيرا في بيت أهلها، لفد راح يدور حول البيت مدى ساعات، مصفرا بنداءات خاصة بهما، الى أن اضطره اقتراب الفجر الى العودة الى داره. . وفي غرفة النوم وجد (جورية اركاديو) يلعب باخته الوليدة وعلى وجهه دلائل التظاهر بالبراءة ! . .

وما أن جاوزت أورسولا فترة (أربعينها) حتى عاد (الغجر) الى القرية في دورتهم السنوية. . وكانوا هم نفس المشعوذين والحواة الذين جاءوا معهم بالثلج من قبل. . وقد اظهروا منذ البداية انهم على عكس قبيلة مالكويداس ليسوا رسل تقدم وإنما أعوان ترفيه وتسلية، وكانت كل معروضاتهم وأدواتهم من هذا الطرار. . .

ولقد امضى وجوزيه اركاديو، الابن وبيلار تيرنيرا اوقاتاً بهيجة وهما يتفرجان على ألعاب (الغجر)، الى أن فاجأته بيلار ذات مرة بنباً قلب الدنيا

فوق رأسه، اذ قالت له :

۔ الآن انت رجل فعلا…

ولما لم يفهم قصدها، عاجلته قائلة :

ـ سوف تصبح أبا. .

لم يجسر (جوزيه اركاديو) الابن على مغادرة بيته مدى أيام.. وكان يكفي ان يسمع ضحكات بيلار الرنانة في المطبخ لكي يهرب ويلجأ الى المعمل الكيميائي، حيث كانت تجارب ابيه تجري الان على قدم وساق بمباركة من أورسولا.. والواقع أن وجوزيه أركاديو بوينديا ، الاب تلقى ابنه الآبق بالبهجة وأشركه معه في البحث عن وحجر الفلاسفة ، وهي احدث محاولاته.. ولكن على الرغم من تظاهر الابن بالاهتمام، فإنه لم يفلح في الهروب من عنائه.. وأفضى به الامر الى فقد الشهية ومجافاة النوم.. وانحاز الى الاكتئاب والغم، حتى أعفاه أبوه من المساعدة في المعمل الكيميائي ظنا بأنه لا يجد القابلية لذلك... وقد فهم أوريليانو بالطبع أن اكتئاب أخيه لا علاقة لمه بالبحث عن وحجر الفلاسفة ، وإن كان لم يستطع أن ينفذ الى علاقة لمه بالبحث عن وحجر الفلاسفة ، وإن كان لم يستطع أن ينفذ الى دخائله بعد أن آنس منه الصمت والأنطواء والبعد عن كل تبسط كما كان حاله في الماضي...

وذات ليلة عندما ثقلت عليه الوحدة التي اصبح (جوزيه اركاديو) الابن يعانيها واشتدت نقمته على الدنيا ومن فيها، ترك فراشه كالمعتاد، بيد أنه لم يذهب الى بيت بيلار تيرنيرا، وإنما يمم شطر ملعب (الغجر)، حيث راح يتفرج على العروض ويطوف بأرجاء الملعب على غير هدى. الى أن استرعت نظره فتاة (غجرية) صغيرة السن كانت مثقلة بالعقود وبدت في نظره اجمل امرأة في الدنيا، وقد وقفت بين الجمع الذي كان يشاهد الرجل الذي تحول الى أفعى لأنه عصى أبويه.

لم يعبأ (جوزيه اركاديو) بالعرض، وشق طريقه الى حيث وقفت الفتاة في الصف الاول، فوقف عن كثب منها، وأخذ يقترب منها الى أن شعرت الفتاة باهتمامه بها وتبسمت له. . وفي النهاية صحبته الى خيمتها حيث تبادلا القبلات والعناق. . .

كمان ذلك يموم الخميس. . وفي ليلة السبت لف (جوزيه اركاديمو) الابن منديلا أحمر حول رأسه وارتجل مع (الغجر). . .

وعندما اكتشفت أورسولا غيابه بحثت عنه في كل انحاء القرية... ولم يبق في الساحة التي أقام فيها (الغجر) سوى بقايا النيران الخابية.. وتطوع واحد من أهل القرية فقال لها إنه كان هناك في الليلة الماضية وشاهد ابنها في الزحام يدفع العربة التي تحمل قفص الرجل الأفعى.. وصرخت الام لزوجها:

ـ لقد اصبح واحدا من (الغجر)!..

فقال الاب الذي لم ينزعج لاختفاء ابنه وهو يطحن في الهباون مواده الكيميائية للمرة الألف :

يا ليت هذا يكون صحيحاً . . بهذه الطريقة سوف يتعلم كيف يصبح رجلاً 1 . .

وراحت أورسولا تسأل عن الطريق الذي سلكه (الفجر) في رحيلهم، ظنا منها بأنها تستطيع اللحاق بهم. . وتبعت هذا الطريق الى أن ابتعدت عن القرية مساحة كبيرة لا تستطيع ازاءها العودة . . . ولم يعرف وجوزيه أركاديو بوينديا » بغياب زوجته حتى كانت الساعة الشامنة ليلا، فترك خلائطه الكيمياوية تبرد وذهب لرؤية أمارانتا الوليدة التي بح صوتها من الصراخ . . . وبعد ساعات جمع بضعة رجال مزودين بما يلزم وعهد بالمولودة الى امرأة ابدت استعدادا لرعايتها، وغاب عن الانظار مع رضاقه في أثر أورسولا . . .

وكان أوريليانو معهم . . . وأبلغهم بعض الصيادين الهنود بالإشارات وهم لا يفهمون لغتهم انهم لم شاهدوا احداً يمر في الطريق الذي سلكوه . . . وبعد ثلاثة أيام من البحث العقيم عادوا ادراجهم الى القرية . . .

ومضت أسابيع غير قليلة اطلق فيها جوزيه الاب العنان لجزعه... وفي خلال ذلك عكف على رعماية امارانتا الصغيرة كأم.. فكان يحميها ويلبسها وكان يدفع بها الى المرضعة اربع مرات في اليوم، بل جعل يغني لها في الليل الاغنيات التي لم تكن أورسولا تعرف كيف تغنيها...

وفي احدى المناسبات تطوعت بيلار تيرنيرا بالقيام بالاعمال البينية الى حين عودة اورسولا . . . وقد أحس أوريليانو ببديهته التي شحدتها هذه البلوى ان هذه المرأة مسؤولة على نحو مبهم لم يستطع ادراكه عن سبب هروب اخيه وما تلاه من اختفاء امه ، فبادرها بعداء صامت لا هوادة فيه حتى كفت المرأة عن الحضور الى الدار . . .

وفجأة بعد خمسة اشهر كاملة من اختفاء اورسولا ، اذا هي تعود على غير انتظار. . .

جاءت في حالة ابتهاج ونضارة، مرتدية ملابس جديدة من طراز لم يكن معهودا في القرية... ولم يكد جوزيه الاب يستطيع ان يقيم عوده من وطأة المفاجأة، حتى صاح قائلا:

ـ هذا هو ما كنت اعتقده [. . كنت اعرف ان هذا سيحدث [. .

وكان ذلك يقينه حقا. . ففي خلال عكوفه الطويل بين معادنه ومواده الكيميائية، كان يدعو في أعماق نفسه أن تكون المعجزة المنتظرة ئيس اكتشاف (حجر الفلاسفة) ولا استخلاص الروح الخفية التي تجعل المعادن تتبدل كأنما دبت فيها حياة جديدة، ولا القدرة على تحويل أقفال ومفصلات

الابواب الى ذهب. . . بل تكون المعجزة هي ما حدث فعلاً. . . أي عودة أورسولا ! . .

بيد أن أورسولا لم تشاطره انفعاله . . . فقد منحته قبلة تقليدية ، وكأنها لم تغب أكثر من ساعة ، وقالت له :

. أنظر الى خارج الباب. . .

والحق أن جوزيه لبث فترة مديرة نهب حيرته قبلما خورج إلى الشارع وشاهد الجمع المحتشد . . .

لم يكونوا من (الغجر)، بل كانوا رجالا ونساء مثلهم، ذوي شعور مستقيمة وبشرة سمراء، يتكلمون نفس اللغة ويشكون من نفس الآلام، . . وكانت معهم بغال محملة بمأكولات، وعربات تجرها الثيران تحمل أثاثاً وأدوات منزلية، وأخرى معدة للبيع يعرضها أناس ببساطة دون ما جلبة ولا ضجيج . . .

لقد جاءوا مما وراء اقليم المستنقعات الشاسعة، على مبعدة يومين لا أكثر، حيث كانت هناك بلدان تتلقى البريد كل شهر من شهور السنة، وحيث يعرفون وسائل العيش التي تجعل الحياة طيبة ميسرة. . .

إن أورسولا لم تستطع ان تلحق (بالغجر) لكنها وجدت الطريق الى الحضارة الذي عجز زوجها عن اكتشافه في بحثه الحابط عن المكتشفات الكبرى...

الفصل الثالث

جيء بابن بيلار تيرنيرا الى بيت جديه بعد اسبوعين من مولده. وقد تقبلته أورسولا كارهة، مغلوبة على أمرها مرة اخرى ازاء عناد زوجها، الذي لم يحتمل فكرة تشرد سليل من دمه، ولكنه اشترط الا يعرف الطفل بأي حال هويته الحقيقية. . وعلى الرغم من أنهم سموه (جوزيه اركاديو) الا أنهم انتهوا الى تسميته باسم اركاديو فقط، تجنباً للخلط والالتباس . . .

وفي ذلك الحين حدث نشاط كبير في البلدة ومشاغل كثيرة في البيت الى حد أن رعاية الاطفال عهد بها إلى امرأة هندية من قبيلة جواجيرو كانت قد وفدت على البلدة مع أخ لها هرباً من مرض وبائي هو الأرق الداهم كان قد تفشى في القبيلة منذ سنوات عديدة . . . وقد عرف الاثنان بالوداعة والدماثة حتى لقد استعانت بهما أورسولا في المساعدة في الاعمال المنزلية . . وكان ذلك هو السب في أن اركاديو وأماراتنا الصغيرين قد عرفا كيف يتكلمان لغة جواجيرو قبل اللغة الاسبانية ، وتعلما شرب حساء السحالي وأكل بيض العناكب دون أن تعرف أورسولا هذا ، أذ أنها أصبحت مشغولة الى حد كبير بعملية ناجحة تبشر بالربح هي صنع الحيوانات من الحلوى . .

ذلك ان بلدة ماكوندو قد تغيرت. . . فان الوافدين الجدد مع اورسولا راحوا يعلنون انباء سارة عن خصوبة ارضها وعن موقعها الممتر بالنسبة لمناطق المستنقعات المجاورة، وهكذا تحولت القرية الضبقة الى بلدة ناشطة قامت فيها المتاجر والمصانع الصغيرة، وامتد منها طريق تجاري اصبح يفد منه التجار العرب بشتى السلع . . . وفي خلال ذلك لم يجد (جوزيه اركاديو

بوينديا) مجالا للراحة والدعة... فعندما بهره الواقع الملموس كف عن تخيلاته الواسعة ونفض يديه من ترهات المعمل الكيميائي، وعاد مرة اخرى الى طبيعته السالفة كمخطط للعمران في البلدة، وأصبح حجة لدى القادمين الجدد بحيث لا توضع أسس ولا تقام جدران الا بمشورته، وتقرر في النهاية أن يكون المشرف على توزيع الاراضي...

وفيما كان الأب منصرفا الى تنظيم البلدة والام منهمكة في زيادة دخل الاسرة عن طريق صنع الحيوانات والاسماك من الحلوى، كان اوريليانو يمضي الساعات الطوال في المعمل المهجور يتعلم صناعة طلاء المعادن بتجاربه الخاصة حتى برع في ذلك . . . ومع أن انتقاله الى طور المراهقة أكسبه صلابة ورصانة وانحيازا الى الصمت والاعتكاف والعزلة، الا أنه شحذ فيه تلك الخاصة التي ولد بها وهي حدة البصر التي بلغت درجة البصيرة والقدرة على التنبؤ . . . وذات يوم أذهل أمه بقوله على غير انتظار :

_ هناك قادم جديد سيأتي الينا. . .

وفعلا لم يحل يوم الاحد الا وقد جاءت ربيكا. . .

لم يكن سنها يجاوز احد عشر عاما... وقد جاء بها بعد رحلة طويلة شاقة من بلدة مانور بعض تجار الجلود الذين عهد اليهم بتسليمها الى (جوزيه اركاديو بوينديا) مصحوبة برسالة قال فيها مرسلها إنه لا يزال يكن له المحبة رغم تباعد المسافة والظروف، وإنه إخذ على عاتقه هذا الواجب الخيري الانساني وهو تسليم الطفلة اليتيمة المسكينة التي هي من سلالة أسرتي اورسولا وجوزيه اليهما، اكراما لذكرى والديها المرحومين (نيكانور اولوس) و (ربيكا مونتيل)، اللذين وضعت عظامهما في الصندوق المرافق للطفلة، توطئة لدفنها في مثرى قريب من مقامها الجديد...

وفي الحق أنه ما من أحد من الزوجين جوزيه وأورسولا عرف مرسل

الرسالة ولا أبوي الطفلة، تلك التي انزوت منذ مقدمها في كرسيها الهزاز الصغير تمتص اصبعها وتتفرس فيهم جميعا بعينيها الواسعتين المجفلتين دون أن تبدي أدنى اشارة تنم عن فهم لما يقال لها. . . وكانت تبدو معتلة الصحة وعليها علائم جوع اقدم من سنها. . . وعندما قدموا اليها طعاما تركت الطبق فوق ركبتيها دون ان تتذوق منه شيئا. . بل بدا لهم انها ربما كانت صماء بكماء، الى أن جاءت الهندية وسألتها بلغتها ان كانت تريد ماء، فحركت عينيها كأنما عرفتها، وأجابت نعم برأسها . . .

لقد احتفظوا بالطفلة، اذ لم يكن هناك ما يفعلونه غير ذلك... وأطلقوا عليها اسم ربيكا أخذا باسم أمها... ومضت فترة طويلة قبلما اندمجت ربيكا في حياة الاسرة... ولم يستطيعوا ان يحملوها على الاكل أياماً متعاقبة، حتى عجبوا كيف لم تمت من الجوع وهي كذلك الى أن فاجأها الهنديان وهي تأكل التربة الرطبة ومصيص الحوائط الابيض تحتفره بأظافرها إ..

لقد أثارت هذه الظاهرة الشاذة فزع الاسرة، بيد ان اورسولا لم تخلد الى اليأس، ولم تزل بالطفلة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب الى حد الضرب حتى حملتها على العدول عن ذلك، وأصبحت في النهاية تأكل الطعام العادي مع الصغيرين امارانتا واركاديو، وتشاطرهما النوم في نفس الحجرة... وتبين بعد ذلك انها تتكلم الاسبانية بنفس الطلاقة التي تتكلم بها الهندية...

وتتعاقب الشهور الاعوام والاسرة ماضية في حياتها... الاب لا يكف عن نشاطه الدائب في التخطيط والابتكار... والام منهمكة في صنع تماثيل الحلوى التي تدر على الأسرة دخلا وفيرا... والابن اوريليانو يزيد براعة في فن طلاء المعادن وصنع المشغولات الفضية والذهبية مستهدفا لعناء المراهقة ماراً بتجارب أليمة زادته انطواء واعتزالا لما يهفو اليه اضرابه في مثل هذا الطور...

وتفتح أورسولا عينيها ذات يوم وهي تصنع تماثيلها المحلاة، فيسترعي نظرها مشهد فتاتين جميلتين في سن المراهقة جالستين في الفناء منهمكتين في شغل الإبرة حتى بدا لها لأول وهلة أنها لا تعرفهما...

كات احداهما ربيكا وهي احلاهما على غير ما كان يتوقع، نضرة البشرة، واسعة العينين المفعمتين بالديكينة، بارعة اليدين في التطريز. أما أصغرهما فكانت امارانتا، رشيقة الى حد ما، متميزة بملامح أسرتها. وعن كثب منهما جلس اركاديو الصغير، الذي وإن كان ينحو الى سرعة النمو مثل أبيه الأبق، الا أنه بدا كطفل بجانب الفتاتين. . . وكان قد بدأ يتعلم فن المشغولات الفضية على يد عمه أوريليانو، الذي علمه القراءة والكتابة الفضية . . .

وهنا ادركت اورسولا فجأة ان البيت قد اصبح مملوة بالابناء، وان هؤلاء الابناء سوف يتزوجون حتما وينجبون اطفالاً، وأنهم سوف يضطرون الى التفرق لضيق البيت... وهكذا عملت الى نقودها التي تراكمت على مدار سني العمل الدائب، فأخرجتها للعمل على توسيع البيت، وتولت بنفسها الاشراف على هذه العملية...

وفي النهاية قام في مكان البيت البدائي اكبر بيت في البلدة كلها، بل وفي منطقة المستنقعات بأسرها، مشتملا على تسع غرف نوم، وحجرة استقبال كبرى للزائرين، وقاعة للطعام تسع اثني عشر مقعدا صفت حول المائدة الكبيرة، ومدخل مسقوف يقي من حرارة الشمس وتحف به أصص الازهار، و (كرار) كبير تختزن فيه المؤونة الكافية، وحمامين في الفناء احدهما للرجال والثاني للنساء، واسطبل كبير، وحظيرة للدجاج وأخرى لبقر حلب اللبن...

وقد اوشك بنياء هذا الصبرح على التمام عنيدما استندرجت اورسولا

زوجها من عالمه التخيلي لكي تبلغه انها تلقت أمرا بطلاء الواجهة باللون الازرق بدلا من الابيض كما كانوا يريدون، وأطلعته على الوثيقة الرسمية التي جاءت. . . وقبل ان يفهم (جوزيه اركاديو بوينديا) ما قالته زوجته فك طلاسم التوقيع وسألها :

ـ من يكون هذا الشخص ؟ . .

فأجابت اورسولا في مضض :

ـ... يقولون إنه من رجال السلطة وموفد من الحكومة...

كان دون ابولينار موسكوت، القاضي، قد وصل الى ماكوندو بهدوه، ونزل في فندق يعقوب الذي بناه احد العرب الوافدين للتجارة، وفي اليوم التالي استأجر غرفة صغيرة ذات باب يطل على الشارع على بعد مربعين سكنيين من بيت بوينديا. . . وقد وضع منضدة، ومقعدا جاء بهما من عند يعقوب، وثبت على الحائط شعار الجمهورية الذي جاء به معه، وطلى على الباب كلمة (القاضي). . . وكان أول أمر اصدره هو وجوب طلاء جميع البيوت باللون الازرق احتفالا بالذكرى السنوية للاستقلال الوطني . . .

ولما ذهب اليه «جوزيه اركاديو بوينديا ، وبيده صورة من الأمر، وجده ناعساً في ارجوحة نصبها في المكتب الصغير. . . فبادره قائلا :

ـ هل كتبت هذه الورقة ؟ . .

كان دون ابولينار موسكوت رجلا مكتملا حييا، مورد الوجه، وقد رد بالايجاب... فسأله جوزيه :

ـ بأي حق ؟ . .

فالتقط دون ابولينار موسكوت ورقة من درج المنضدة وأراه اياها قائلا :

انني عينت قاضيا لهذه البلدة...

فلم ينظر دجوزيه اركاديو بوينديا » حتى الى أمر التعيين، وقال دون أن يفقد هدوءه :

ـ نحن في هـذه البلدة لا نعطى أوامر بقبطع من البورق... ولكي تعرف للمرة الأولى والأخيرة، نحن هنا لا نحتاج الى أي قضاة: اذ لا يوجد ما يحوجنا الى التقاضي !..

ووقف جوزيه في مواجهة دون ابولينار موسكوت وأنشأ يشوح لمه بالتفصيل ودون ان يرفع صوته حتى الان كيف أسسوا القرية، وكيف وزعوا وشقوا العلرق وأدخلوا التحسينات التي اقتضتها الضرورة دون أن يعملوا على ازعاجهم... واستطرد يقول:

- نحن اناس مسالمون جدا حتى انه لم يمت بيننا احد ولو موتا طبيعيا، ولك ان ترى أنه ليست عندنا حتى الآن مدافن... ولم يتذمر احد يوما ما لأن الحكومة لم تساعدنا.. بل بالعكس، كنا جميعا سعداء لأنها تمركتنا نتقدم في سلام... والأمل معقود على ان تسركنا هكذا، لأننا لم نؤسس هذه البلدة لكى يأتى أي مدع ويقول لنا ماذا نفعل !..

وفي خلال ذلك ارتدى دون ابولينار سترته البيضاء مثل بنطلونه دون أن يفقد في أية لحظة رشاقة حركانه. . . بينما اختتم «جوزيه اركاديو بوينـديا» كلامه قائلا :

- وهكذا ان أردت ان تبقى هنا مثل أي مواطن عباد في فعلى الرحب والسعة. . . لكن اذا كنت جئت لكي تثير المتاعب، بإجبار الناس على طلاء بيوتهم باللون الازرق، فلك ان تأخذ «عزالك» وتعود الى حيث جئت. . . . ذلك لأن بيتى سوف يطلى باللون الأبيض، مثل الحمام ! . . .

والحق ان دون ابولينار موسكوت شحب وجهه. . . وتراجع خطوة الى

الوراء، وقال وهو يضغط على فكيه بشيء من الأسي :

- لا بد أن أحذرك أنني مسلم . . .

لم يدر (جوزيه اركاديو بوينديا) متى استردت يداه الفوة التي كان يجبر بها الحصان على الركوع أرضاً. . فقد جذب دون ابولينار موسكوت من طيتى صدر السترة ورفعه الى مستوى عينيه، قائلا :

- انني افعل هذا لأنني افضل ان أحملك هكذا حيا بدلا من أن اطوف بك ميتا، فيلازمني شبحك طول حياتي ! . .

وعلى هذه الصورة حمله الى وسط الشارع، معلقا من طيتي السترة، الى أن انزله على قدميه في الطريق المؤدي الى المستنقعات..

وبعد اسبوع عاد دون ابولينار موسكوت برفقه ستة جنود حفاة مهلهلين ومسلحين ببنادق مزدوجة قصيرة، تصحبهم مركبة تجرها الثيران حملت زوجته وسبع بنات. . . وجاءت في ما بعد مركبتان آخريان تحملان الاثاث والامتعة والادوات المنزلية . . . وقد انزل اسرىه في فندق يعقوب ريثما يجد مسكنا للأسرة ، وعاد لفتح مكتبه تحت حماية الجنود . . .

إن مؤسسي ماكونـدو الذين عقـدوا العزم على طـرد الغزاة ذهبـوا مع أبنائهم الكبار لكي يضعوا أنفسهم تحت امرة «جوزيه اركاديو بوينديا»... بيد أنه كان ضد هذا الاتجاه... فقد بين لهم أنه ليس من الرجولة ان يثيروا المتاعب لأي شخص أمام أسرته، بعد أن عاد دون أبـولينار مـوسكوت مـع زوجته وبناته.. وهكذا حسم الموقف بهذا الاسلوب الحميد...

وذهب معهم اوريليانو. . . وفي ذلك الحين كان قد بدأ يفتل شاربه الاسود بالشمع، وغدا له صوت جهوري كان مقدرا ان يكون طابعه الممين في الحسرب . . . ودخلوا الى مكتب القاضى بغيسر سلاح غيسر عسابئين

بالحرس... فلم يفقد دون ابولينار موسكوت رباطته وهدوه.. وقدمهم الى النتين من بناته كانتا موجودتين آنذاك: أمبارو البالغة من العمر ستة عشر عاما، السمراء مثل أمها، وريميديوس التي لم تزد عن الناسعة من عمرها، وكانت صبية وافرة الملاحة، ذات بشرة زئبقية وعينين خضراوين.. وكانت كلتاهما موفورة الادب... وحالما دخل الرجال، وقبل التعارف، قلمتا اليهم مقاعد للجلوس، ولزمتا هما الوقوف ...

وقال (جوزیه ارکادیو بویندیا):

حسن جدا صديقي . . . لك أن تبقى هنا، لا لأن معك قطاع الطرق هؤلاء الواقفين بالباب مسلحين بالبنادق، ولكن مراعاة لزوجتك وبناتك . . .

لقد بدا دون ابمولينار مموسكوت منزعجا، بيد أن (جوزيه اركاديمو بوينديا) لم يدع له وقتا للرد، واستطرد قائلا:

_ هناك شرطان لنا فقط: الأول أن يكون لكل واحد أن يطلي بيتـه باللون الذي يفضله. . . والثاني أن يرحل الجنود في الحال . . . إننا سنضمن لك استتاب النظام والامن . .

فرفع القاضي يمناه مبسوطة اصابعه الخمس، قاثلا:

ـ بكلمة شرف منك ؟ . .

فأجاب (جوزیه ارکادیو بویندیا):

ـ كلمة شرف، من عدوك. . .

وأردف بلهجة المرارة :

ـ لأنني لابد ان اقول لك شيئا واحدا : فأنت وأنا ما زلنا عدوين. . .

وارتحل المجنود في نفس السوم. . . وبعد أينام قلائــل وجد (جنوزيه

اركاديو بوينديا) بيتاً للقاضي وأسرته. . . وسادت السكينة كل انسان فيما عدا اوريليانو. . . فإن صورة ريميديوس صغرى بنات القاضي ظلت تطالعه وتثير ألمه على نحو ما، رغم صغر سنها بالنسبة اليه. . . كان ألماً حسياً يضايقه كمن يمشى وفي حدائه حصاة . . .

الفصل الرابع

أقيمت في البيت الكبير المجدد حفلة راقصة كبرى على نغمات البيانولا دعي البيما مؤسسو ماكوندو وابناؤهم، وكان نجمها هو الشاب الايطالي الوسيم بتروكريسي مندوب المتجر مورد الآلة الموسيقية الجديدة، اللي أوفد للإشراف على ادارتها وتدريب الراقصين، وكانت رفيقته في الرقص ربيكا ألتي ابدت براعة اثارت اعجابه، حتى وعد أن يلقنها مزيداً من فنون الرقص في زيارته القادمة للبلدة...

وذات يوم جاءت امبارو كبرى بنات القاضي لزيارة البيت الكبير ومشاهدة ما ازدان به من أثاث وتحف، فاستقبلتها أورسولا بالترحاب، ثم عهدت الو. أمارانتا وربيكا بالطواف معها في أرجاء البيت... وعند انتهاء الزيارة انتهزت امبارو فرصة انشغال امارانتا، ودست في يد ربيكا رسالة سارعت الفتاة بإخفائها في صدرها الى أن صارت وجدها، فوجدتها من بترو كريسبي الوميم يبثها فيها مشاعر الإعجاب ويثني على براعتها في الرقص، وبعد بزيارة قريبة...

والواقع ان هـ أن الصداقة المفاجشة بين امبارو وربيكا انعشت آمالى اوريليانو. . . فإن ذكرى ريميديوس الصغيرة ما فتثت تعذبه ، بيد أنه لم يجد الفرصة المناسبة لرؤيتها . . . وهكذا كان ظهور اختها أمبارو في البيت مقدمة طيبة لحضورها معها في زيارة اخرى ، واستقر في نفسه خاطر يقيني بدلك ظل يراوده حيناً ، الى أن سمع صوتها الطفولي عصر يوم لدى باب المعمل الكيميائي ، وعندما رفع نظره شعر بقلبه يتجمد حين أبصرها في فستان وردي

وحداء مرتفع أبيض وأختها امبارو تقول لها :

لا يمكنك الدخول الى المعمل يا ريميديوس.. انهم يشتغلون..
لكن أوريليانو لم يدع لها وقتاً للرد، فقد نهض وبيده سلسلة تدلت منها سمنكة ذهبية وقال لها:

ـ تفضلي بالدخول. . .

فدخلت ريميديوس ووجهت اليه بعض الاسئلة عن السمكة الذهبية، بيد أن لسانه انعقد فجأة عن الرد. . . وكل ما استطاع أن يقوله في النهاية هو أنه سيهديها السمكة الصغيرة، لكن الصبية أجفلت لهذا العرض، وأسرعت بالانسحاب من المعمل .

في نفس هذا اليوم فقد أوربليانو صبره الدفين وأهمل عمله وراح يبحث عنها في كل مكان ترتاده ولو في نافلة بيتها، لكن مساعيه ذهبت سدى، ولم تطالعه صورتها الا في خياله ووحدته الأليمة . . . وأصبح يمضي ساعات كاملة مع ربيكا يستمعان الى عزف البيانولا . . . هي لأن الموسيقى تذكرها بالشاب الإيطالي بترو كريسبي الذي علمها المرقص . . . وأوريليانو لأن كل شيء ، حتى الموسيقى، كان يذكره بريميديوس . . .

فأما ربيكا فقد أمرضها طول انتظار الحبيب الذي تأخر عن موصده، حتى رقدت طريحة الفراش. . . وكان اوريليانو وحده هو الذي فهم سرها الحقيقي اذ يكابد نباريح الهوى. . . وفي غمرة حيرته ذهب مع بعض اصحابه الى مشرب كاتارينو. . . وكان يضم ملحقاً من غرف خشبية تقيم به نساء وحيدات وتعزف فيه الموسيقى . . وشرب الرفاق عصير قصب مخمراً بصحبة النساء . . وداعبت احداهن وكانت عجفاء ملهة الاسنان اوريليانو. . . ولكن مداعبتها جعلته يرتعد حتى صد عنا . . وما لبث أن اكتشف انه كلما شرب زاد تفكيره في ريمبديوس، وإن صار أقدر على

احتمال عذاب ذكرياته... ولم يدر بالضبط متى بدأ رأسه يدور... ورأى اصحابه والنساء يسبحون جميعاً في ضياء باهـر، دون وزن لهم ولا كتلة مرسلين.كلاماً لا يخرج من ألمـواههم، ومبدين إشـارات خفية لا تتـطابق مع كلامهم... وعند لذ وضع كاتارينويده على كتفه وقال له:

- الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا ! . .

فأدار أوريليانو رأسه، فرأى وجه كاتارينو ضخما مشوها، وقد رشق وودة صناعية خلف أذنه. وعندثذ فقد ذاكرته تماما. ولما استعادها، وجد نفسه في غرفة غريبة عنه، وفيها وقفت بيلار تيرنيرا أمامه بقميص نومها وهي جافية القدمين مرسلة الشعر، رافعة مصباحاً فوق رأسه، تبدو عليها امارات الانزعاج وعدم التصديق، وهنفت: أوريليانو!..

ضبط أوريليانو قدميه ورفع رأسه. . انه لم يدر كيف جاء الى هنا. . . وقد ولكنه عرف مقصده، وهو مقصد كان مخبوء في داخله منذ الصغر. . . وقد رد عليها قائلا :

- جئت لأنتي اريدك . . .

كانت ملابسه ملطخة بالوحل والقيء، فجعلت تنظفه وهي تغمغم قائلة :

ريا طفلي المسكين!..

وعندما أفاق من غمرات نشوته وجمد نفسه يبكي . . فمانتظرت المرأة المعجربة حتى فرغ من ذلك النحيب الذي هز وجدانه، وقالت له بهدوء :

_من هي ؟...

فأخبرها أوريليانو. . فأطلقت ضحكة خافتة، وقالت متهكمة :

ـ لا بدأن تربيها أولاً الى أن تكبر أ . .

ولكن من ثنايا الضحكة استشف أوريليانو فهما عميقا. . وعندما انصرف من غرفتها بعد أن انزاح من صدره ذلك الهم المرير الذي اثقله طيلة الاشهر الماضية ، وعدته بيلار تيرنيرا قائلة :

ـ سأتكلم مع البنية ، وستعرف ماذا يمكنني ان أفعل . . .

وقد برت بوعدها. . ولكنها اختارت وقتا عصيبا. . . إذ كان البيت قد فقد ما كان يرفرف عليه من سكينة في الايام الماضية. . . ذلك أن أمارانتا عندما اكتشفت سر ربيكا العاطفي وكان محالا ان يبقى طي الكتمان، اصيبت هي الاخرى بنوبة حمى نتيجة غرام لا عزاء فيه. . . وأصبحت أورسولا لا تكاد تجد القوة لرعاية الفتاتين العليلتين . . . ولم تستطع رغم طول الاستجواب أن تتحقق من أسباب علة امارانتا. . . وفي النهاية ، وبما يشبه الإلهام، عثرت في صندوق امتعة ربيكا على حفنة رسائل بللتها ربيكا بدموعها وعطرتها بالورود ولكنها لم ترسلها الى الايطالي بترو كريسبي . . . فلم تتمالك أورسولا وهي تبكي غضباً ان لعنت اليوم الذي بـدا لها فيـه أن تطلب شراء البيانولا، وأصدرت أمرها بمنع دروس التط يز. وأعلنت لوناً من الحداد في البيت الى ان تتبخر آمال الفتانين. . . ولم تفلح وساطة (جوزيه اركاديو بوينديا) الاب الذي اعجب ببراعة بترو كريسبي في ادارة البيانولا في تخفيف التأزم. . . وهكذا رأى أوريليانو عندما أخبرته بيلار تيرنيوا ان ريميديوس قبلته زوجاً لها أن هذا النبأ سيؤدي الى زيادة متاعب والديه. . . والواقع أن الاب ما كاد يسمع باسم الخطيبة المرشحة حتى احمر وجهه اهتياجاً وصاح هادراً :

- الحب مسرض ! . . ورغم وجسود كثيسر من البنسات الجميسلات والمهذبات حوالينا، فالشيء الوحيد الذي يخطر لك هنو الزواج من إبنة عنونا ؟ . .

بيد أن أورسولا وافقت على هذا الاختيار، وراحث تطنب في امتداح شمائل بنات القاضي موسكوت السبع، وأطرت سداد رأى ابنها. . . فلم يجد (جوزيه اركاديو بوينديا) ازاء تحمس زوجته سوى النزول عند رأيها، بشرط واحد، هو أن تتزوج ربيكا بترو كريسبي، وان تصحب أورسولا ابنتها امارانتا في رحلة الى عاصمة المقاطعة عندما يسمح الوقت، لكي يؤدي الاختلاط بالناس الى التخفيف من خيبة أملها . . ولم تلبث ربيكا أن استردت صحتها حالما علمت بهذا الاتفاق، وسطرت الى خطيبها رسالة حارة بعد موافقة والذيها وأرسلتها بالبريد دون حاجة الى وسطاء . . وقد تظاهرت امارانتا بقبول القرار، وتماثلت للشفاء من الحمى رويدا رويدا، ولكنها نذرت في نفسها الا

وفي يوم السبت التالي ارتدى (جوزيه اركاديو بوينديا) احسن ملابسه وذهب لطلب يد ريميديوس موسكوت. فاستقبله القاضي وزوجته بترحاب وقلق معا، اذ لم يكونا يعرفان سبب الزيارة المفاجئة، ثم بدا لهما بعد ذلك أنه ربما كان مخطئاً في اسم العروس المطلوبة، . . وإزالة لكل لبس ذهبت الأم لإيقاظ ريميديوس من نومها وأتت بها الى غرفة الجلوس وآثار النوم لم تفارقها . . وقد سألاها إن كان صحيحا أنها قررت الزواج، فردت منتحبة بأنها لا تريد سوى أن يتركوها تنام . . ولما أدرك (جوزيه اركاديو بوينديا) عالة الاضطراب التي بدت له من الابوين، عاد أدراجه لاستجلاء الحقيقة من أوريليانو . . وعند رجوعه وجد الابوين قد ارتديا ملابس رسمية ورتبا الأثاث وغيرا الزهور في أوعيتها وجلسا ينتظران بصحبة بناتهما الاكبر . . ورغم وغيرا الزهور في أوعيتها وجلسا ينتظران بصحبة بناتهما الاكبر . . . ورغم إحساس (جوزيه اركاديو بوينديا) بحرج الموقف فقد أكد أن ريميديوس هي إحساس (جوزيه اركاديو بوينديا) بحرج الموقف فقد أكد أن ريميديوس هي التي وقع عليها الاختياد حقا . . . وعندثل قال ابولينار موسكوت بلهجة التي وقع عليها الاختياد حقا . . . وعندثل قال ابولينار موسكوت بلهجة الحزو :

- هذا شيء غير معقول ! . . عندنا سنت بنات اخريات، وكلهن غيـر

تتزوجات، وسنهن تؤهلهن لذلك تماما، ويشرف كل واحدة منهن ان تكون زوجة لسيد محترم مجد مثل إبنك، ومع ذلك فإن أوريليانو لا يضع نظره الا على البنت التي لا تزال تبلل فراشها ! . .

بيد أن زوجته سارعت بالاعتذار عن هفوته.. وبعد أن فرغوا من تناول الفاكهة اعربوا عن قبول قرار أوريليانو عن طيب خاطر، مصحوباً برجاء من الام أن يجتمع مع أورسولا على انفراد.. فلم تمانع أورسولا، وذهبت الى بيت القاضي في اليوم التالي.. وبعد نصف ساعة عادت لكي تقول إن ريميديوس لم تبلغ الحلم بعد... بيد أن اوريليانو لم يجد في هذا عائقاً خطيراً... فقد انتظر أمداً طويلا، الى حد أنه يستطيع الانتظار الى أن تبلغ عروسه مرحلة القدرة على الإنجاب...

ونعود الى امارانتا... فقد وجدت أخيراً فرصتها التي كانت تتحينها لمكاشفة الشاب الايطالي الوسيم بترو كريسبي بحبها الدفين، الذي بر بوعده لربيكا وحل بالبلدة حيث افتتح محلا لبيع الآلات الموسيقية واللعب الميكانيكية في حي التجار الشرقيين... والواقع أن الشاب الوسيم الذي كان مرآة يثير تنهدات النساء تلقى اعتراف امارانتا على أنه نزوة عابرة لصبية لا يؤخذ كلامها مأخذ الجد، حتى قال لها:

- لي أخ أصغر. . وسيحضر لمساعدتي في المحل. . .

لقد شعرت امارانتا بالمهانة، وقالت لبترو كريسبي في غضب شديد إنها على استعداد لمنع زواج اختها حتى لو كان الثمن هو ارتماء جثنها على الباب. . . والواقع أن الشاب الايطالي تأثر بهذا التهديد الدرامي الى حد أنه لم يستطع مقاومة إغراء ذكر الواقعة لربيكا. . . ونتيجة لهذا فإن رحلة امارانتا التي كانت اورسولا تعمل على تأجيلها تم ترتيب أمرها في أقبل من أسبوع . . . ولم تبد امارانتا أية مقاومة ، بيد أنها عندما ودعت ربيكا مقبلة

همست في أذنها قائلة:

- لا تطلقي العنان لآمالك. . حتى لو ابعدوني البي أطواف الدنيا، فسوف اجد طريقة لمنع زواجك، حتى لو كان لا بدلي من قتلك 1 . . وبغياب اورسولا عن البيت، بدا وكأنه خاو على عروشة . . وقد تكفلت ربيكا بالإشراف على تصريف الشؤون المنزلية ، بينما تولت المرأة الهندية اعمال المخبز . . وعندما كان بترو كريسبي يأتي لزيارة خطيبته عند المغروب ، كانت ربيكا تستقبله في الصالون الرئيسي مع فتح الابواب والنوافذ دفعاً لكل ربيكا تستقبله في الصالون الرئيسي مع فتح الابواب والنوافذ دفعاً لكل الظنون . . ولم يكن هذا التحوط لازماً ، لأن الشاب الايطالي كان يسلك مسلك الاحترام في تصرفاته الى حد أنه لم يكن يلمس يد العرأة التي ستغدو زوجته في غضون العام . .

والواقع ان هذه الزيارات ملأت البيت بكثير من اللعب الميكانيكية المتنوعة الاشكال والغريبة التصميمات الى حد أن (جوزيه اركاديو بوينديا) الاب وجد فيها تسلية كبرى، اذ عاد الى أيامه الاولى في المعمل الكيميائي عاكفاً على فكها وتركيبها لكي يضيف اليها نظاما جديداً يجعلها في حركة دائمة على نسق (بندول) الساعة ! . .

وقد امتد التأثير الى أوريليانو الذي أهمل عمله في المشغولات المعدنية وتفرغ لتعليم ريميديوس القراءة والكتابة. . وكانت الصبية تقابل هذا بالنفور أول الامر مفضلة التفرغ لألعابها، بيد أن صبر أوريليانو ومشابرته اكتسباها آخر الأمر الى جانبه، حتى أصبحت في النهاية أطوع له من بنانه . .

وكانت ربيكا وحدها هي التي تعاني القلق والتوجس بسبب نقمة أمارانتا عليها وتهديداتها الغريبة.. والتماساً منها لما يخفف معاناتها، فقد سعت الى بيلار تيرنيرا لكي تقرأ لها الطالع.. فتنبأت لها بعد سلسلة من المقدمات التقليدية قائلة:

ـ لن تعرفي السعادة طالما أن عظام أبويك لم تدفن. .

ارتعدت ربيكا، وقالت:

- لست ا**فه**م . .

فبدت بيلار تيرنيرا غير مبالية وقالت:

ـ ولا أنا. . ولكن هذا ما تقوله الاوراق. . .

لقد انشغل بال ربيكا واشتد انشغالها بهذا اللغز حتى اطلعت «جوزيه اركاديو بويندياء على الخبر، فما كان منه إلا أن زجرها لتصديق مثل هذه النبوءات، ولكنه مع ذلك انهمك صامتاً في البحث في كل موضع عن كيس العظام الذي جيء به مع ربيكا وهي بعد طفلة لا تدرك شيئاً. وتذكر أنه لم يره منذ أن اضطلعوا بتجديد البيت. فاتصل بالبنائين، فأخبره احدهم أنه وضع الكيس داخل احد الحوائط، تخلصاً من مضايقة وجوده عشرة في عمليات الترميم والبناء . وبعد أيام من التسمع والدق على الجدران أمكن في النهاية تحديد المكان، فنقبوا الحائط واستخرجوا كيس العظام ودفنوها في نفس اليوم في قبر بلا شاهد . وعاد (جوزيه اركاديو بوينديا) في نفس اليوم وقد انزاح عنه عبء شديد أثقل ضميره، ودخل على ربيكا في المطبخ مبهجاً وقبلها قائلا :

- اطردي تلك الأفكار السيئة من رأسك. . سوف تكونين من أهل السعادة . .

إن الصداقة التي نشأت بين ربيكا وبيلار تيرنيرا قد فتحت لهذه الأخيرة باب البيت الذي أغلقته أورسولا بسبب مولد اركاديو وقبوله في عداد الاسرة كما تقدم . . وهكذا اصبحت تتردد على البيت في أية ساعة وتطلق ننساطها المحموم في أشق الاعمال . . وأحيانا كانت تدخل المعمل وتساعد اركاديو

(إبنها) في اتحميض) الصور المطبوعة على المعادن بمقدرة وحنو كانا يثيران ارتباكه وعجبه من مسلكها حياله . . بل إن أنفاسها عن كثب وضحكاتها الغريبة في الغرفة المظلمة كانت تشتت باله وتنال من ضبطه للعمل . . .

وفي احدى المناسبات كان أوريليانو في المعمل لإتمام بعض المشغسولات الفضية ، فاتكأت بيلار تيرنيرا على المنضدة مبدية اصجابها بدأبه وصبره . . وفجأة لمع في خاطره ذلك الوميض اللذي ينهىء بثيء قريب . . . وقبل أن يرفع عينيه لملاقاة عيني بيلار تيرنيرا استوثق من وجود اركاديو في الغرفة المظلمة للتحميض ، تأجباً لاستقراء الخاطرة التي لمحها في عيني تيرنيرا واضحة كالشمس في رائعة النهار ، ثم سالها :

ـ حسن . . قولي ما عندك . .

فعضت بيلار تيرنيرا على شفتها بابتسامة محزونة ، وقالت :

- انـك ستكون مبرزاً في الحـرب . . اينها تلقي نـظرك ، تصيب رصـاصتـك مقتلاً . .

ارتاح أوريليانو لهذه النبوءة ، وركز من جديد على عمله وكأنه لم يحدث شيء ، ثم قال بصوت مشجع :

ـ سوف اعترف (به) . . سوف مجمل اسمي . . .

وأخيراً توصل (جوزيه اركاديو بوينديا) الى ما كان يبتغيه . . فقد أوصل جهاز الساعة بلعبة راقصة ميكانيكية ، وأخذت اللعبة ترقض بلا انقطاع على ايقاع موسيقاها مدى ثلاثة أيام كاملة . . والواقع أن هذا الاكتشاف اثاره الى ابعد حد حتى كف عن الأكبل وعن النوم . . ولولا سهر ربيكا على رّعايته لأفضت به تخيلاته الى حالة من الهذيان لا شفاء له منها . . ومع ذلك فقد كان يحضى الليالي وهو يدور في أرجاء غرفته غاطباً نفسه ، بحثاً عن طريقة

تمكنه من تطبيق نظرية (البندول) على مركبات الثيران وعربات اليد وعلى كل أداة اخرى تغدو ذات نفع اذا وضعت في حالة حركية. .

واستحال عليه النوم بطول الأرق والسهر.. وفي أحد الايام خرج من غرفته والحميع نيام، وعمد الى عضادة الباب فانتزعها، وبقوته الهرقلية أخذ يهشم أدوات المعمل الكيميائي وأدوات المسبك وهو يصرخ ويهذي بكلام غير مفهوم.. وكاد ينتقل الى باقي غرف البيت يعمل فيها تهشيماً لولا أن استنجد أوريليانو بالجيران.. فاحتاج الأمر الى عشرة رجال لطرحه أرضاً، والى أربعة عشر لتقييده، وعشرين لجره الى شجرة الكستناء في الفناء حيث تركوه مربوطاً بها وهو ينبح بكلامه المبهم ويرسل زبداً أخضر من شدقيه.. وحينما عادت اورسولا وامارانتا من الرحلة كان لا يزال مربوطاً الى جذع شجرة الكستناء من قدميه ويديه، غارقاً في المطر، وفي حالة شرود تام.. ولما كلمتاه نظر اليهما دون أن يعرفهما ويقول اشياء لم تفهما منها شيئاً .. ولكن اورسولا فكت قيد معصميه وكاحليه التي تسلخت من ضغط الحبال، وتركته مربوطاً من وسطه فقط.. وفي ما بعد أقاموا له وقاء من سعف النخل لكي يحميه من الشمس والمطر ...

الفصل الخامس

عقد زواج أوريليانو بوينديا وريمليوس موسكوت ينوم أحد من شهر مارس أمام الهيكل الذي اقامه الاب (نيكانـور رينا) في قـاعة الاستقبـال بالبيت الكبـير . . وقد بذلت أسرة العروس جهبودا مضنية في نقلهما من المرحلة الصبيبانية وسلوكيباتها اللامسؤولة الى مرحله النضج والاتزان وتقدير الحياة الزوجية . . ومند ذلك اليوم كان إحساسها بالمسؤولية باهراً ، كما تجل ذلك في النظروف العصيبة التي طرأت في المستقبل . . وعلى سبيل المثال فهي التي تطوعت من تلقاء نفسها باقتطاع قطعة كبيرة من (تورثة الزفاف) وحملتها في طبق مع شوكة الى (جوزية اركاديو بوينديــا ۽ . . وقد تلتى العجوز المربوط في جذع شجرة الكستناء والمكوم فوق مقعم خشبي صغير في مأواه المؤلف من سعف النخل والذي سفعت وجهمه الأمطار واشعة الشمس . . . تلقى هذه الهدية بابتسامة امتنان شاردة وأكل القطعة بأصابعه وهبو يهمهم بكلام غبر مبين ولا مفهوم . . وكمان الشخص التعس الموحيد في ذلك الحفسل همو ربيكما المنكودة . . فقد كان مقرراً بترتيب من أورسولا أن يعقم زواجها هي أيضاً في نفس اليوم . . ولكن حدث قبله بيومين ان تلقى بترو كريسبي رسالة تنبئه بأن أمه في حالــة احتضار . . وهكذا أجل زواجهما بعد أن اضطر بترو للسفر الى عاصمة المقاطعة بعــد ساعة من تلقى الرسالة . . وكانت المفاجأة أن أمه وصلت ليلة زفاف اوريليانو وريميـديوس وغنت في الحفـل اغنية كـانت أعدتهـا لزفـاف ولدهـا . . ولمـا عـاد بتـرو كرسبي مسرعا بعدرحلة شاقة كان الحفل قدانفض ولم يعرف قطمن هوكاتب تلك الـ سالـة . . نعم إن أورسولا حملت عـلى امـارانتـا حملة شعـواء ، ولكن هـذه بكت وأقسمت على براءتها أمام الهيكل المؤقت ! . .

ومهما يكن فإن هذا الزفاف كان حافزاً لللاب ونبكانور رينا ، على التفكير في بناء كنيسة خاصة للبلدة لإتمام الطقوس الدينية على وجهها الكامل. ولم يمض وقت طويل حتى جمعت التبرعات من أهل البلدة وبدىء في اقامة المبنى . . . وبينما كان الاب نيكانور يتناول الغداء ذات يوم في بيت الاسرة وهو يحدثهم عما ستكون عليه حفلات الزفاف المقبلة من الروعة والقداسة في الكنيسة الجديدة ، اذ قالت امارانتا :

ـ إن العروس التي سوف تسعد بهذا هي ربيكا. .

ولما لم تفهم ربيكا ما تعنيه، شرحت امارانتا مرادهـا بابتــــامة بــريئة قائلة :

ـ سوف تكونين أنت العروس التي يقام أول حفل زفاف في الكنيســة لها..

حاولت ربيكا أن تتجاهل هذا النذير.. فإن معدل العمل الحالي في بناء الكنيسة سوف يستغرق عشر سنوات على الاقبل بسبب عدم كثرة التبرعات.. ولكن اورسولا التي فطنت الى خبث نوايا امارانتا تبرعت بمبلغ كبير للإسراع في عمليات البناء، مما جعل الاب نيكانور يقدر أنه بمثل هذه التبرعات يمكن اختصار المدة الى ثلاث سنوات.. ومنذ هذه الجلسة أعرضت ربيكا عن امارانتا بعد أن تجلى لها سوء طويتها.. وفي المشاحنة الحامية التي جرت بين الاثنتين في تلك الليلة قالت لها امارانتا:

مذا أقل شيء كان يمكن أن أوعز به ١. فبتأثير ايحائي لن اضطر الى قتلك قبل ثلاث سنوات 1. .

ولكن ربيكا قبلت التحدي وأضمرت في نفسها امورا. . فعندما رأت ما انتاب بترو كريسبي من خيبة الأمل بسبب هذا التأجيل الجديد بادرته قائلة :

ـ يمكننا ان نهرب معاً في أي وقت تشاء. .

بيد أن بترو كريسبي كان ينقصه عنصر المجازفة الـذي انطوى عليه طبع خطيبته، وقال إن الاحترام يمنعه من خيانة الثقة التي وضعتها الاسرة فيه...

وهكذا فكرت ربيكا في وسائل أجرأ. .

فذات ليلة هبت ربح خفيفة أطفأت أنوار البيت، وفاجـأت أورسولا العاشقين يتبادلان القبلات في الظلام . . .

وفي مناسبة أخرى نفد الوقود من المصابيح وفاجأتهما أورسولا متعانقين. .

وعندئذ لم تجد أورسولا بداً من التخلي عن واجباتها المنزلية للمرأة الهندية وأخدت تجلس في كرسيها الهزاز عن كثب من الخطيبين اثناء الزيارات التي يقوم بها بترو كريسبي، حتى لم تتمالك ربيكا أن قالت متهكمة من شدة الغيظ:

مسكينة امي . . عندما تموت ستذهب الى الآخرة وهي في هذا الكرسي ! . .

وبعد ثلاثة اشهر من هذا الحب تحت الحراسة، وبعد أن تعب بسرو كريسبي من استمرار البطء في بناء الكنيسة، قرر أن يذهب الى الاب نبكانور ويقدم له المال الذي ينقصه لإتمام هذه العملية. .

بيد أن امارانتا لم تفقد صبرها، وأخذت تفكر في مكاثد اخرى لتأخير زواج غريمتها قدر ما تستطيع. . فقد عملت خلسة على رفع (النفتالين) من فستان الزفاف، وكان ذلك قبل شهرين من اتمام بناء الكنيسة . . وكانت ربيكا

قد زادت لهفتها باقتراب موعد الزفاف وبدا لها أن تجرب الفستان، وشد ما كان ارتباعها عندما وجدته مثقرباً بفعل العث بحيث لا يصلح لهذه المناسبة الكبرى... ومع أنها كانت واثقة انها وضعت (النفتالين) بيديها، الا انها لم تجسر على إلقاء التبعة على امارانتا.. ذلك ولم يبق سوى شهر واحد على موعد الزفاف... ولكن امبارو موسكوت وعدت ان تخبط لها ثوباً جديداً في مدى اسبوع... وعندما جاءت امبارو بالثوب لتجربته على العروس، شعرت إمارانتا بياس مطبق، وأضمرت في نفسها ان تنفذ وعيدها يوم الجمعة الاخير قبل الزفاف، بدس جرعة من السم في القهوة التي ستقدم الى ربيكا..

ورغم هذا كله فقد جدت عقبة لم تكن في الحسبان أدت الى إرجاء هذا الزفاف المنكود الى أجل غير مسمى . . فقبل اسبوع من موعد الزفاف استيقظت ريميديوس الصغيرة في منتصف الليل غارقة في دمها إثر نزيف حاد في أحشائها، وقضت المسكينة نحبها بعد ثلاثة أيام ، مع جنين لتوأمين . . .

كانت الفجيعة شديدة الوقع في نفوس افراد الاسرة، لما استأثرت به العروس الفتية المنكودة من محبة الجميع، وأما اشدهم تفجعاً فكان زوجها أوريليانو الذي أحبها منذ اللحظة الاولى حباً يقرب من العبادة، وربيكا السيئة الحظ التي حطم هذا المصاب الجلل كل أمل لديها في اتمام الزفاف في موعده المحدد، بل في أي موعد آخر خصوصاً بعد أن اعلنت أورسولا الحداد في البيت كله على نحو صارم لا هوادة فيه . . . لقد بلغ الياس من نفس ربيكا مداه ، حتى عادت الى بلواها السابقة ، تأكل تراب الارض من جديد

ثم فجأة .. عندما طالت فترة الحداد الى مدى بعيد وبدأت نساء الاسرة موسم التطريز التالي .. دفع احدهم باب البيت الخارجي في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشتد الحر دفعة عنيفة رجت البيت من أساسه، حتى

لقد ظنت امارانتا وهي تشتغل مع صاحباتها لدى المدخل ، وظنت ربيكا وهي تمتص أصبعها كعادتها القديمة كليا استبد بها اليأس ، وظن أوريليانو وهـو عاكف في مسبـك المعادن ، بل ظن (جوزيه اركاديو بوينديا) ذاته أن زلزالا حدث ويوشك أن يقـوض البيت . . .

لقد وصل رجل ضخم كالمارد . . لا يكاد منكباه العريضان ينفذان من المدخل . . . وكانت تتدلى من عنقه ايقونة . . . وبدا فراصاه وصدره مكسوين تماماً بالوشم . . . وكانت بشرته مصبوغة بملح الهواء السطلق ، وشعره قصيراً ورأسياً مشل معرفة بغل ، وفكاه من حديد ، وعلى شفته ابتسامة محزونة . . . وكان يتمنطق بحزام غليظ ، ويلبس حداء (بتزلك) ومهماز ، وحديد في العقبين . . . كان مشهده كله يوحى بزلزال متحرك . . .

واجتاز قاعة الاستقبال وحجرة الجلوس حاملًا خرج الدابة البالي بيده ، وبدا لأعين اماراننا وصواحبها كقصف الرعد حتى جدت مشدوهات رافعات ابر التطريز في الهواء ؛ ولكنه ألقى الخرج فوق طاولة قريبة دون أن يزيد على كلمة (هالوز) قبالها بلهجة المكدود ، وكرر مثلها لربيكا التي انتفضت لمدى مروره ببابها ، ولأوريليانو المستغرق بكل حواسه في المسبك . . . لكنه لم يعرج على أحد منهم ، بل تقدم الى المطبخ رأساً حيث توقف لأول مرة في نهاية رحلة بدأت من طرف العالم الآخر وعندما كرر كلمة (هالو) وقفت اورسولا مدى ثبانية وهي فباغرة الغم ، ونظرت في عينيه ، وإذا صرخة تبدر منها ، ثم إذا هي تقذف بذراعيها حول عنقه صارخة بماكية من الفرح . . .

كان ابنها البكر جوزيه اركاديو . . ولقد عاد اليها فقيراً مفلساً كها ارتحل عنها ، الى حد انها اضطرت الى اعطائه قيمة أجر حصانه . . . وكان يتكلم لغة اسبانية خالطتها لهجة بحارة عامية . . . وقد سألوه اين كان ، فرد بقوله : « في الخارج » . . .

وقد علق أرجوحه نومه في الغرفة التي أفردوها له، ونام ثلاثة أيام... وعندما استيقظ أكل ست عشرة بيضة نيئة. وذهب مباشرة الى حانة كاتارينو، حيث أثار هيكله الضحم روع النساء ممزوجاً بالفضول... ثم طلب موسيقى وأمر بشراب القصب المخمر للجميع على حسابه... ولما عرض مصارعة خمسة رجال معاً على الطريقة الهندية قالوا له ان هذا غير ممكن... وعندئذ انبرى له كاتارينو الذي لم يكن يؤمن بالشعوذة في ألعاب القوى وراهنه على اثني عشر بيزو اذا استطاع تحريك منصة الشراب من موضعها... واذا اثني عشر رجلا لإعادتها الى مكانها... ولما ألفى نساء الحانة يحاصرنه أحد عشر رجلا لإعادتها الى مكانها... ولما ألفى نساء الحانة يحاصرنه خصاراً لا مهرب منه، قدم نفسه لهن في مزاد علني، فلم يترددن في الدفع...

على هذه الصورة اصبح يكسب قوت يومه. . . لقد طاف حول العالم خمساً وستين مرة ، في زمرة بحارة ممن لا وطن لهم . . . وفي ليلتمه الاولى تلك ونساء حانة كاتارينو ، اخرجنه عارياً الى صالة الرقص ، لكي يرى الناس انه ليس في جسده بوصة مربعة واحدة خلت من الوشم ، أماماً وخلفاً . ومن عنقه الى أصابع قدميه . . .

ولم يفلح في أن يسدمج نفسه في حياة الأسسرة... كان ينسام طول بهاره، ويقضي الليسل في الحي الذي يعلوه الضوء الأحمر، مراهنا على قوته بمختلف الصور... وفي المناسبات النادرة التي استطاعت فيها اورسولا حمله على الجلوس معهم الى مائدة الطعام، كان يتصنع التبسط والفكاهة، ولا سيما في حديثه عن مغامراته في البلاد النائية... فقد تحطمت به السفينة مرة في بحر اليابان وقضى أسبوعين تتقاذفه الامواج بين الحطام، فكان يأكل لحم رفيق له مات بضربة شمس، فوجد لحمه المالح جداً بعد انضاح الشمس له لذيذاً شهياً !.. وفي مرة اخرى قتلت سفينته في جداً بعد انضاح الشمس له لذيذاً شهياً !.. وفي مرة اخرى قتلت سفينته في

بحر البنغال وحشاً , بحرياً هائلاً ، فعشروا في معدته على خوذة واسلحة وحزام محارب من العصور الماضية ... وكانت اورسولا تسمع هذا والكثير من مثله وهي تبكي ، كما لو كانت تقرأ الرسائيل التي لم تصل ابدأ والتي كان جوزيه اركاديو يحدثها فيها عن فعاله ومغامرته ومأزق اسفاره ... وفي ذلك كانت تقول هنا كان بيع واسع ينتظرك يا ولدي ، وطعام كثير كان يرمي الخنسازير ولكن من وراء هسذا كله لم تكن تتصور ان ابنها السذي اصتلحه و الفجر » ومعهم هو نفسه هذا الشاب الخليع الرقيع ، الذي ياكل نصف خنزير صغير في غدائه والذي كانت غازات بطنه تدبل الأزهار ولم تكن امارتنا الحيوانية . . . وكان اركاديو الذي تكتمت الأسرة سر علاقة الابوة والنبوة بينهما لا يبحث يعدي المسئلة التي كان يوجهها اليه اكتساب لمودته . . . وحاول اخوه اوريليانو ان يتبعث ذكرى العهود الخوالي حين كانيا ينامان في غرفة واحدة وإحاديث الطغولة وإفعالها المتواطئة لكن جوزيه اركاديونمي كل هذا ، لأن الحياة في عرض البحار قد شحنت ذاكرته بالكثير والكثير مما يجاوز الاستيعاب في عرض البحار قد شحنت ذاكرته بالكثير والكثير مما يجاوز الاستيعاب والذاكرة . .

الا ربيكا وحدها التي انهارت تحت تأثيره منذ اللحظة الأولى . . .

فمنذ اليوم الذي شاهدته يمبر فيه بباب غرفة نومها ، بدا لها بترو كبريسي مثل قطعة حلوى مزخرفة بالقياس الى هذا الفحل الذي كان تنفسه البركاني يتردد صداه في كل ارجاء البيت . . . وذهبت تحاول الإقتسراب منتحلة اي عذراً . . وفي احدى المناسبات قطع جوزيه اركاديو الى جسدها باهتمام وقح وقال لها (أنت امرأة فتاتي الصغيرة . . وهنا فقدت كل ما في السيطرة على نفسها وفي مخدعها عادت تأكل من تراب الأرض ومصيص الحوائط بتراهة الأيام السالفة وامضت ليالي ساهرة مسهدة ترتعد من الحمى وهي تنتظر حتى يهتز البيت بعودة جوزيه اركاديو في الفجر .

وفي أصيل يوم والكل نيام وقت القيلولة، لم تستطع مغالبة نفسها، وقصدت الى غرفة نومه... فوجدته مستلقياً في الأرجوحة التي علقها في العوارض الخشبية بحبال سفينة... ولقد اشتد تأثرها بجسامة الوشم الذي يكسو كل جسده العاري الى حد أنها فكرت في التراجيع، قائلة: «معذرة... لم أكن اعرف أنك هنا ع... ولكنه قال لها: «تعالي »... فأطاعت... ووقفت قرب الأرجوحة وقد شعرت بالعرق البارد يغمرها... أما همو فقد راح يربت عليها قائلا: «آه يا صغيسرتي... ستكونين أوجتي!»...

وبعد ثلاثة أيام عقد زواجهما. . . وفي اليموم السابق ذهب جموزيه الكاديو الى محل بترو كريسبي حيث وجده يلقي درساً في الموسيقى، فلم ينتح به جانباً وإنما قال له :

ـ سأتزوج ربيكا. . .

لقد امتقع وجه الشاب الايطالي، وبادر بصرف تلاميده، وما أن صارا وحدهما في الحجرة المكتظة بالادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية حتى قال له:

_ إنها أختك . . .

فرد جوزیه ارکادیو قائلا :

ـ لا يهمني . . .

فجفف بترو كريسبي جبينه بالمنديل الذي كان مبللًا بالعطر، وقال له :

ـ ولكن هذا ضد الطبيعة. . . والى جانب ذلك فهو ضد القانون. . .

تضجر جوزیه ارکادیو، لا من مجادلة بترو کریسبي، ولکن لما بدا من شحوبه، وقال :

ـ كل هذا لا قيمة له عندي . . . وما جئت الا لأقول لك أن تبتعد عن طريق ربيكا . . .

ومع ذلك فإن فظاظته تحطمت عندما رأى عيني بترو كريسبي تتنديان، وقال له بلهجة مختلفة :

_ والآن، اذا كنت تحب العائلة حقيقة، فأمامك امارانتا. . .

لقد كشف الاب نيكانور في عظة يوم الاحد أن جوزيه اركاديو وربيكا ليسا أخاً وأختاً ... بيد أن اورسولا لم تغتفر قط ما عدته انتهاكا لواجب الحشمة في الاسرة، وعندما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة حرمت عليهما دخول البيت، وعدتهما من الأموات . . وهكذا استأجرا بيتاً في ما وراء المدافن وأقاما به دون ان يكون فيه من الأشاث أكثر من أرجوحة نوم جوزيه اركاديو . . . وفي ليلة الزفاف تسلل عقرب الى (شبشب) ربيكا ولدغ قدمها، حتى تورم لسانها . . . غير أن هذا لم يمنع أن يستمتعا بشهر عسل صاخب ترامت أصداؤه الى الجيران الذين اشفقوا أن تقض مضاجع الموتى في قبورهم ! . . .

وكان اوريليانو هو الوحيد الله الله العروسين . . . فابتاع لهما بعض الأثاث وأعطاهما بعض المال الى أن ارتد اخوه جوزيه اركاديو الى عالم الواقع وأخذ يعمل في اصلاح رقعة الارض المجاورة لفناء البيت لزراعتها . . . أما أمارانتا فلم تبرأ قط من حقدها على ربيكا، رغم ان الظروف أتاحت لها ترضية لم تكن تحلم بها . . ولكن أورسولا سعت الى إزالة ما لحق بالاسرة من مهانة بمسلك جوزيه اركاديو وربيكا، وفي هذا اخذت ترحب بالشاب الإيطائي بترو كريسي في زياراته للاسرة التي واظب عليها مودة منه واستجابة لطبعه الدمث . . . وهكذا توطدت الأواصر بينه وبين امارانتا . . . ومع أنه كان يعاملها من قبل كطفلة، إلا أن الأيام كشفت في

طباعها أشياء محببة ، وهكذا فاجأها ذات يوم بطلب يدها زوجة له . . . أما هي فلم تتوقف عن التطريز الذي كانت آخذة به ، وانتظرت برهة الى أن زالت الحمرة التى صبغت اذنيها ، وقالت وقد أكسبت صوتها رنة النضج :

ـ طبعاً يا كريسبي . . . ولكن بعد ان يعرف أحدنا الآخر أكثر . . . ليس من الخير ابداً ان يتسرع الانسان في مثل هذه المسائل . . .

والواقع أن هذا اربك اورسولا. . . فعلى الرغم من التقدير الذي كانت تكنه للشاب الايطالي ، الا أنها لم تستطع ان تجزم إن كان هذا القرار طيباً او سيئاً من الناحية الأدبية بسبب الخطبة الطويلة المشهورة بينه وبين ربيكا. . . ولكن اوريليانو الذي أصبح رب الاسرة زاد من ارتباكها برأيه الفاصل الغامض عندما قال لها :

ـ ليست هــذه الاوقـات التي ينشغــل فيهـا النــاس بــالتفكيــر في الزواج !

إن هذا الرأي الذي لم تفهمه أورسولا الا بعد مضي بعض الاشهير، كان هو الرأي الوحيد الصادق الذي كان بوسع اوريليانو أن يبديه في تلك الأونة، ليس فقط بالنسبة للزواج، ولكن بالنسبة لأي شيء لا يتصل بالحرب . . إنه هو نفسه، وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص، لم يستطع ان يفهم حق الفهم ذلك الترابط الغريب لسلسلة الأحداث الرهيبة الغامضة التي أفضت به الى هذا الموقف . . . ان وفاة ريميديوس لم يولد في نفسه ذلك اليأس الذي كان يخافه . . . كان شعوره أقرب الى تبلد حسي غاضب استحال تدريجياً الى لون من الإحباط شبيه بما كان يطبع شعوره وهو مستسلم لحياته كإنسان يعيش بغير امرأة . . . وقد عاد الى الاستغراق في عمله من بحديد، بيد أنه حافظ على عادته في التردد على بيت صهره القاضي دون أبولينار موسكوت لملاعبته «الدومينو» . . . وفي هذا البيت الذي كان يلفه أبولينار موسكوت لملاعبته «الدومينو» . . . وفي هذا البيت الذي كان يلفه

الحداد؛ تكفل الحديث الليلي بدعم أواصر الصداقة بين الرجلين. . . وذات مرة قال له صهره:

ـ تزوج مرة ثانية يا أوريليانــو. . . عندي ست بنــات، لك أن تختــار احداهن . .

وفي احدى المناسبات، قرب اجراء الانتخابات العامة، عاد دون أبسو لينار موسكوت من احدى رحلاته المتكررة الى عاصمة الإقليم يساوره القلق بصدد الموقف السياسي في البلاد. . . فإن الليبراليين المعارضين للحكومة كانوا مصممين على محاربتها. . . ولما كان أوريليانو في ذلك الحين ليست لديه سوى افكار مشوشة عن الفوارق بين الليبراليين والمحافطين، فقد تكفل صهره بتوضيح ما غمض عليه من هذه الناحية، خصوصاً تمسك حكومة المحافظين بالحفاظ على سلطة الدولة والوحدة الوطنية ودعم روابط المدين والاسرة ومناهضة تقسيم البلاد الى كيانات ذاتية الحكم . . . ولكن مهما يكن من تعاطف أوريليانو مع الليبراليين في بعض النواحي الانسانية مثل الاعتراف بحقوق الاطفال الطبيعية، فإنه لم يفهم قط كيف يتطرف بعض الناس الى حد اشهار الحرب الاهلية بسبب معتقدات قابلة للصواب والخطأ. . . ومن هذا القبيل بدا له انها مبالغة من صهره أن يسعى الى استقدام ستة جنود مسلحين بالبنادق تحت امرة رئيس لهم في مناسبة اجراء الانتخابات . . . وقد قام الجنود فور حضورهم بالطواف ببيوت البلدة بيتاً بيتاً يصادرون كل ما بها من أسلحة صيد ومحشات زراعة، حتى سكاكين المطابح، ويوزعون على اللكور فوق الحادية والعشرين بطاقات بأسماء المرشحين، زرقاء للمحافظين وحمراء لليبراليين. . .

وبعد اجراء الانتخابات وفوز المحافظين لجأ الليبراليون بعد ما شاع من تزوير نتائج الانتخابات الى التطرف، الى حد أنهم قرروا اغتيال دون أبولينار وبناته الست فيمن ديروا اغتيالهم من أعوان المحافظين. . . وعندما نعي هذا

التدبير الى أوريليانو الذي كان حتى ذلك الحين يقف موقف الحياد دون أن ينحاز الى احد الفريقين، ثارت ثائرته، وواجه زعيم المتآمرين قـائلا: ولا أن ليبرالى ولا أي شيء... ما أنت الاجزار!......

وعلى الأثر لزم اوريليانو بيت دونَ موسكوت كل ليلة . . . وقد رأى المتآمرون من عزمه ما جعلهم يرجئون تنفيذ المؤامرة الى أجل غير مسمى . .

كانت هذه هي الظروف التي جاءته فيها أورسولا تسأله الرأي في زواج بترو كريسيي وامارانتا، والتي رد فيها بقوله إنه ليست هده بالاوقات التي ينشغل فيها الناس بالتفكير في الزواج . . . وقد ظل مدى اسبوع يحمل طبنجة عتيقة تحت قميصه وهو لا يغفل عن مراقبة حركات الليبراليين وفيهم كثير من اصحابه . . . وكان يذهب في فترات الظهر لشرب القهوة مع اخيه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، الللين بدأا ينظمان بيتهما . . فاذا كانت الساعة السابعة قصد الى دار صهره للعب «الدومينو» في الظاهر والسهر على سلامته في الواقع . . . أما وقت الغداء فكان يذهب الى اركاديو في المدرسة التي اختار أن يقيمها لتعليم الصغار، والكبار، وكان قد ترعرع وأصبع فتى قوياً مثل أبيه جوزيه اركاديو، ولكن اوريليانو وجده متحمساً للحرب الاهلية التي كانت ندرها تلوح في الأفق، بعد أن أعدته حمى الليبرالية . . . وعند شد عمل اوريليانو على تهدئته والحد من تطرفه ، وأوصاه بالتزام جانب الحكمة والاتزان ، وإن كان ابن الأخ هذا قد تمادى في اندفاعه الى حد أنه عير واريليانو علنا ذات مرة بالضعف والاستكانة . . .

وفي النهاية، وفي بداية شهر ديسمبر، اندفعت أورسولا الى داخـل مسبك المعادن حيث كان أوريليانو منهمكا في العمل، صائحة :

- لقد بدأت الحوب ا . . .

والحواقع ان الحرب بدأت قبل ذلك بشلاشة اشهر. . . فقـد أعلنت

الاحكام العرفية في البلاد كلها. . . وكان الشخص الوحيد الذي عرف بأمرها مباشرة في البلدة هو دون ابولينار موسكوت، بيد أنه لم يبلغ النبأ حتى لزوجته بينما كانت السرية التي كان عليها ان تحتل البلدة مباغتة في طريقها لتنفيذ هذه المهمة. . . وفعلا دخلت السرية البلدة في سكون قبل الفجر، مصحوبة بقطعتين من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال، واتخذت مقرها في المدرسة. . . وفي الساعة السادسة مساء أعلن حظر التجول. . . وقد قاموا بتفتيش صارم من بيت الى بيت، مصادرين حتى أدوات الزراعة. . . وقبضوا على زعيم المؤامرة وربسطوه في شجسرة في الميسدان وأعسدموه رميسا بالرصاص. . . وحاول الاب نيكانور أن يتدخل، ولكن أحد الجنود شج رأسه بكعب بندقيته . . وهكذا اخمدت النزعة الليسرالية في البلدة بهذا الارهاب. . . ومضى أوريليانو في انطوائه وغموضه يلعب (الدومينو) مع صهره، وقد ادرك أنه على الرغم من صفته الرسمية كزعيم مدنى وعسكرى للبلدة، الا أنه أصبح مجرد واجهة، بعبد أن صارت القرارات في يد قائد السرية، الذي درج كل صباح على جباية ضريبة غير عادية للدفاع عن الامن العام . . . وقام أربعة جنود تحت امرته بانتزاع امرأة عضها كلب مسعور من احضان اسرتها وقتلوها بكعوب بنادقهم . . . وبعد مضى اربعة أسابيع على الاحتلال ذهب أوريليانو يوم أحد الى دار صديقه جيريلدو ماركيز وكــان من أبرز الليبراليين، وفاجأه بعد شرب القهوة بلهجة آمرة لم تعهد فيه من قبل، قائلا:

ـ إجمع الفتيان واستعدوا . . سندخل الحرب . . .

لم يصدقه جيريلدو ماركيز، وقال له :

ـ وبأية اسلحة ؟ . .

فأجاب أوريليانو :

ـ بأسلحتهم . . .

وفي يوم الثلاثاء عند منتصف الليل، وبعملية جنونية، باغت وآحد وعشرون رجلا دون سن الثلاثين وبقيادة أوريليانو بوينديا وهم مسلحون بسكاكين المطبخ والادوات الحادة. . . باغتوا أفراد الحامية، وانتزعوا اسلحتهم، وفي الفناء اعدموا قائدهم مع الجنود الاربعة الذين قتلوا المرأة. . .

وفي نفس الليلة، بينما كان صوت فريق الرماة بالرصاص يتردد، عين الركاديو قائدا مدنيا وعسكريا للبلدة. . . ولم يكن المتزوجون من المتمردين يجدون وقتاً لتوديع زوجاتهم وتركوهن لتدبير شؤونهن وحدهن . . . ثم ارتحلوا في الفجر مشيعين بالهتاف من أهل البلدة بعد أن خلصوهم من الارهاب، لكي ينضموا الى قوات القائد الثوري فكتوريو مدينا، الذي تواتر أنه في طريقه الى مدينة مانور . . . وقبل الرحيل اخرج اوريليانو القاضي دون ابولينار موسكوت من داخل دولاب الملابس وقال له :

- لك ان تطمئن يا صهري . . . ان الحكومة الجديدة تضمن بشرفها سلامتك الشخصية وسلامة أسرتك . .

لقد كاد يتعذر على دون ابولينار موسكوت أن يتعرف في هذا المتآمر ذي الحداء العالي والبندقية المعلقة على كتفه ذلك الشاب الذي كان يلاعبه والدومينو » حتى الساعة التاسعة كل ليلة ، ولم يتمالك أن هتف باسم التدلي الذي كان يناديه به :

ـ هذا جنون، يا أوريليتو!...

فرد عليه أوريليانو قائلا:

- ليس جنوناً... انها الحرب... ولا تنادني باسم أوريليشو بعـ د ذلك... أنا الأن الكولونيل أوريليانو بوينديا...

الفصل السادس

نظم الكولونيل اوريليانو بوينديا اثنين وثلاثين تمردأ مسلحاً وخسرها حميعاً . . . وقد انجب سبعة عشر طفلا من سبع عشرة امرأة ، ولكنهم هلكوا جميعا واحدا بعد الآخر في ليلة واحدةٍ قبل أن يبلغ اكبرهم سن الخامسة والثلاثين. . . واستهدف لأربع عشرة محاولة لاغتياله، وثلاثة وسبعين كميناً، ومرة لإعدامه بالرصاص أمام فريق الرماة. . ولكنه نجا منها جميعا. . . كما نجا من الموت بجرعة من السم تكفى لقتل جواد. . . وقد رفض قبول وسام الجدارة الذي انعمت به عليه الدولة بعد الحرب الاهلية. . . وارتقى الى مرتبة القائد العام لقوات المتصردين، مع تقلده سلطات التشريع والقيادة، حتى غدا أكثر رجل تخشاه حكومة المحافظين. . بيد أنه لم يسمح قط بأخذ صورته الفوتوغرافية . . . ورفض قبول المعاش لمدى الحياة الذي قدم له بعد الحرب. . . والى أن أدركته الشيخوخة كان يكسب قوتــه اليومي من تمــاثيل الاسماك المذهبة الصغيرة التي كان يصنعها في معمله ببلدة ماكوندو. . . وعلى الرغم من أنه كان يقاتل دائما على رأس رجاله، فإن الجرح الوحيد الذي تلقاه كان الجرح الذي أصاب نفسه به بعد توقيع (معاهدة نيرلانديا) التي وضعت نهاية لقرابة عشرين سنة من الحرب الاهلية. . فقد اطلق رصاصة على صدره من طبنجة، وخرجت الرصاصة من ظهره دون أن تعطب أي عضو من أعضائه الحيوية. . . وكان الاثر الوحيد الذي بقي من كل هذا هو اطلاق اسمه على شارع ببلدة ماكوندو. . . ومع ذلك، وطبقاً لما صرح به قبل سنوات قلائل من وفاته بالشيخوخة، فإنه لم يكن يتوقع أي شيء من هذا كله، في فجر ذلك اليـوم الذي خرج فيه مـع رجالـه الـواحـد والعشـرين

للانضمام الى قوات الجنرال فكتوريو مدينا. .

كان كل ما قاله لإبن اخيه اركاديو عند الرحيل:

إننا نترك ماكوندو تحت رعايتكم . . إننا نتركها في خير حال . . .
فلتحاول أن تجعلها في أحسن حال عندما نعود . .

لقد ترجم اركاديو هذه الوصية ترجمة ذاتية منبعثة من شخصه. . . فقد ابتكر كسوة مارشال مزخرفة، وتمنطق بحنزام عريض تبدلي منه سيف ذو خصلات ذهبية كان يحمله قائد السرية الذي أعدموه. . ، ونصب قطعتي المدفعية عند مدخل البلدة، وألبس تلاميذه السابقين كسى عسكرية. اولئك المذين ألهب خيالهم بتصريحاته النارية، وجعلهم يجولون في الشوارع مسلحين لكي يوحوا الى الغرباء بمنعتهم . . . وكان هذا التممويه سملاحاً ذا حدين، لأن الحكومة، لم تجسر على مهاجمة البلدة مدى عشرة اشهر، ولكنها عندما فعلت اطلقت عليهم قوة كبرى جائحة تكفلت بتصفية المقاومة في خلال نصف ساعة . . . ومنذ اليوم الاول لحكم اركاديو، كشف عن هيامه بإصدار الاوامر العسكرية المتلاحقة، التي كانت تصل الى اربعة في اليوم الـواحد وتتنـاول كل ما يطرأ على بـاله. . . ومن ذلـك أنه فـرض الخدمـة العسكرية الإجبارية على الرجال فوق سن الثامنة عشرة، وأعلن الاستيلاء على الحيوانات التي تمشى في الشوارع بعد السادسة مساء واعتبارها من الممتلكات العامة، وأمر أن يضع الرجال المسنون اشرطة حمراء حول اذرعتهم . . . وفرض الحراسة على الاب نيكانـور في بيت الابرشيـة وحظر اقسامة القسداس ودق الأجراس الا اذا كسانت من أجمل اعسلان انتصار لليبراليين. . . وأول الأمر لم ياخذ أحد أوامره ماخذ الجد، واعتبر الناس هذا من قبيل لعب تلاملة مدارس يتقمصون دور الكبار. . . ولكن حدث ذات ليلة عندما ذهب اركاديو الى حانة كاتارينو ان حياه «نافخ البروجي» وكان بين

الموجودين بنفخ بوقه مما جعل رواد الحانة يضجون بالضحك، فأمر اركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص بتهمة الإخلال بواجب الاحترام للسلطات... وكانت اورسولا في كل مرة تسمع فيها بعمل من أعماله التعسفية تصرخ في وجهه قائلة:

- يا قاتىل ! يا سفىك ! . . عندما يعرف اوريليانو سوف يرميك بالرصاص، وسأكون أول من يفرح بذلك ! . .

ولكن اركاديو تمادى في أعمال القمع حتى غدا أقسى حاكم عرفته ماكوندو. . . وفي هذا قال دون ابولينار موسكوت ذات مرة :

- فلندعهم الآن يعرفون الفرق ويتحملون 1.. هـذا هـو الفردوس الليبرالي 1..

وعندما ترامى هذا الكلام الى سمع اركاديو قام على رأس قوة من رجاله بمهاجمة البيت حيث دمروا اثاثه وجلدوا بناته وسحبوا دون أبولينار موسكوت الى خارج البيت. .

ولما اندفعت أورسولا الى مقر القيادة بعد أن طافت بالبلدة تندد بهذا العار وتلوح في غضبتها بكرباج ملطخ بالقار، وجدت اركاديـو ذاته في فنـاء المبنى يستعد لإصدار الأمر الى فريق الرماة بإطلاق النار، فصرخت قائلة :

_ إنني اتحداك با ابن الزنا!..

وقبل أن يجد اركاديو وقتاً لرد الفعل هوت عليه بأول ضربة من السوط صارخة :

- إنني اتحمداك يا قماتل!.. اقتلني أنما ايضا، يما ابن المرأة الموبوءة!.. بهذه الطريقة لن تبقى لي عينان أبكي بهما معرتي لأنني ربيت وحشاً!..

وجعلت تجلده بلا رحمة وتطارده الى خلف الفناء حيث انكمش أركاديو على نفسه مثل قبوقعة. . . وكان دون ابولينار موسكوت مقيداً الى عمود مغمى عليه . . . وفي هذه الاثناء تفرق فتيان فريق الرماة خوفاً من أن تحصل عليهم أورسولا ايضا . بيد أنها لم تكلف نفسها حتى عناء النظر اليهم، وتركت اركاديو معزق الكسوة وهو يضج بالألم محنقاً ، وفكت رباط دون ابولينار موسكوت وصحبته الى بيته . . . وقبل أن تغادر مقر القيادة اطلقت سراح المعتقلين اللين زج بهم اركاديو في الحبس تعسفاً . . .

ومنسلا ذلسك الحين أصبحت هي التي تتسولى زمام الحكم في البلدة، فأعادت شعائر القداس، وألغت كافة الاوامر التعسفية المخبولة التي اصدرها اركاديو. . ولكن بالرغم من قرتها، فإنها كانت تبكي حظها العاثر. . وقد شعرت بوحدة مطبقة الى حد انها كانت تسعى الى صحبة زوجها غير المجدية وهو منسي منبوذ تحت شجرة الكستناء، وكانت تقول له في غمرة امطار يونيو التي كانت تهدد بتقويض عشه الواهي :

- انظر الى ما صار اليه حالنا. . انظر الى بيتنا الخاوي ، واطفالنا الذين غرقوا في العالم ، ونحن الاثنين وحدنا مرة اخرى ، مثلما كنا في البداية . . . ان اوريليانو خرج الى الحرب منذ أكثر من أربعة اشهر ولم نسمع عنه شيشاً حتى الان ! . . وجوزيه اركاديو ابننا عاد الينا رجلا ضخماً ، وأطول منك ، وجسمه كله مغطى بإبر الوشم ، ولكنه لم يفعل أكثر من أنه جلب العار على الميت ! . .

وعندما بدا لها أن زوجها لابسته مسحة حزن في لحظات الوعي العابرة التي كانت تلم به، للاخبار المكدرة، رأت أن تلون كلامها بالكذب، فمضت تقول في اختلاقها :

_ لقد شاءت ارادة الله ان يتزوج جوزيه اركاديــو وربيكا، وهمــا الان

سعيدان.. وأركاديو هو الان رجل جاد، وباسل جدا، وشاب جميل الصورة بكسوته العسكرية وسيفه.. هل تصدق ان البحظ بدأ يحالفنا من جديد.. فإن امارانتا وعازف البيانولا الايطالي سوف يتزوجان 1..

والواقع أن امارانتا وبترو كريسيي قلد وطدا صداقتهما، بحماية من أورسولا، حتى لم يعد أحد يشك في أنهما سيكونان زوجين موفقين. . ثم إن مدة الحداد على ريميديوس بدأت تتلاشى في ظل أثقال الحرب، وغياب اوريليانو، ووحشية اركاديو، واقصاء جوزيه اركاديو وربيكا من البيت. .

وهكذا جاء اليوم الذي بلغ فيه حب وصبر بتروكريسبي منتهاهما... وتصادف أن اقترن هذا اليوم بسأمطار اكتبوبر المنجوسة.. وقند قال بشرو كريسبي لأمارانتا اخيراً وهو ينحي سلة التطريز من يدها :

ـ سوف نتزوج في الشهر المقبل. .

لم ترتعد امارانتا لملمس يديه المثلجتين، وجذبت يدها مثل حيوان صنير وجل وعادت الى التطريز قائلة :

ـ لا تكن سليم النية يا كريسيي . . لن اتزوجك حتى لـ كنت من الأموات . .

عندثذ فقد بترو كريسبي كل سيطرة على اعصابه.. وأجهش بالبكاء في غير استحياء وهو يكاد يقصف أصابعه يأساً ، بيدانه لم يستطع ان يثنيها.. وكان كل ما قالته امارانتا له:

- لا تضيع وقتك . . إن كنت تحبني الى هذا الحد، فلا تضع قدمك في هذا البيت بعد الآن . . .

ولقد شعرت اورسولا أنها ستفقد عقلها خبجلًا وخزياً. . وعلى الرغم

من أن بتروكريسبي لم يدخر وسيلة الا استعان بها لاسترضاء امارانتا، الا أن كل محاولاته ذهبت ادراج الرياح، وظلت امارانتا على ابائها لا تلين لها قناة ولا يرق لها قلب. . .

وذات صباح من شهر نوفمبر فتح شقيق بتىرو كىريسنبي الاصغر متجر الادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية الذي كان يديره نيابة عن أخيه، فوجد جميع الانوار مضاءة، وكل الادوات الموسيقية تعزف، وكل الساعات تدق دقات الساعة متواصلة. . وفي إبان هذا العزف المجنون عشر على بترو كريسبي لدى المكتب في اقصى المتجر وقد قبطع معصميه بموسى واللام مصبوب في إناء تحت يديه . .

أصرت اورسولا ان تنقل جئة المتوفى الى بيتها للسهر عليه حتى يتم تشييع الجنازة.. وقد خرجت البلدة كلها في اليوم المحدد تودعه الى مثواه الاخير في موكب مهيب بالغ الأسى .. وكانت امارانتا في فراشها تسمع بكاء اورسولا وخطى وهمسات جموع المعزين ونحيب النادبين دون ان تفادر مخدعها .. ولكن كان لديها من القوة والاحتمال ما نأى بها عن الوقوع فريسة الحمى .. ولقد تجنبتها أورسولا وصدت عنها .. بل إنها لم ترفع حتى عينيها نحوها رثاء ومشاطرة عندما رأتها تدخل الى المطبخ عصر ذات يوم وتدس يدها داخل الفحم المتوهج في الموقد وتبقيها كذلك الى الحد الذي لم تعد تشعر فيه بألم حتى سرت الى أنفها رائحة اللحم المحترق. . وظلت أياما كثيرة وهي تتنقل في أرجاء البيت ويدها مغموسة في إناء به بياض البيض، وعندما التأمت الحروق، بدا وكأن حروق قلبها لن تلتم أبداً . . وكانت الأثار الوحيدة الذي تخلفت عن الفاجعة هي ضمادة من شاش اسود لفتها حول يدها المحترقة وظلت تحملها حتى مماتها . .

وقد أبدى اركاديو كرما نادرا بإعالان الحداد الرسمي على بشرو

كريسبي . . وفسرت اورسولا هذا على أنه بمثابة عودة الحمل الشارد . . بيد أنها كانت مخطئة. . فقد فقدت أركاديو، لا منذ أن البس نفسه الكسوة العسكرية، ولكن منذ البداية. . كانت تظن انها أنشأته وربته كادن كما انشأت وربت ربيكا، دون ما أي تمييز او نفرقة. . وعلى الرغم من ذلك فإن اركاديو كان طفلا انعزالياً مرتعبا في كافة التقلبات التي مرت بـالاسرة، في خلال سيطرة اورسولا وتحكمها كربة للبيت مطلقة السلطان والتصرف، وفي خلال اطوار الهوس التي طبعت حياة وجوزيه اركاديو بوينديا ،، وفي ظل اعتزال اوريليانـو لمباذل الشبـاب، وفي ظل المنـافسة الحـامية بين امـارانتا وربيكا. . نعم إن اوريليانو علمه القراءة والكتابة، ولكن كما يفعل حيال أي شخص غريب، انصرافاً منه الى شؤون اخبرى. . وكان يعطيه ملابسه المستعملة، حتى كان اركاديو يقاسى من الاحذية المنسمة عليه، ومن البنطلونات المرقعة. . وهو لم ينجع في التفاهم مع احد بأحسن مما كان يتفاهم مع التابعين الهنديين بلغتهما. . ومن ثم كانت المدرسة، حيث كانوا يعيرونه الاهتمام ويحترمونه، وحيث استمد منها القوة والصولة في ما بعمد، مقرونتين بالكسوة العسكرية والاوامر النافذة. . كانت المدرسة هي التي حررته من أثقال المرارة القديمة التي طالما اعتملت في صدره. . وذات ليلة تجاسر أحدهم في مشرب كاتارينو وقال له :

- أنت لا تستحق اللقب الذي تحمله. .

وخلافاً لما توقعه الجميع، لم يأمر اركاديو بإعدامه رمياً بالرصاص وإنما رد قائلا:

ـ من دواعي عظيم شرفي انني لست من أسرة بوينديا. .

وقد ظن أولئك الذين يعرفون سر أبويه ان رده يعني إنه عليم ايضا بهذا السر، بيد أنه لم يعلمه قط. . وكانت وبيلار تيرنيرا بدأمه ـ تلك التي كانت

تضرم النيران حامية في عروقه كلما اشرفت عليه في غرقة التحميض المظلمة بالمعمل. كانت امرأة تذكي مشاعره بقوة عارمة مثلما كانت بالنسبة لجوزيه اركاديو وأبيه ٤، ومن بعده اوريليانو، على الرغم من أنها فقدت مفاتنها وضحكتها الصادحة. . . وكان يتعقبها ويستدل على اثرها من ذلك الأربح المنخاني الذي يفوح منها. . وقد حدث قبل الحرب بفترة قصيرة عندما تأخرت في الحضور الى المدرسة ظهراً لاصطحاب طفلها الاصغر ومن أب مجهول ٤، ان راح اركاديو ينتظرها في الغرفة التي اعتاد أن ينام فيها قيلولته . . وفيما كان الطفل يلعب في فناء المدرسة ، كان اركاديو ينتظر في أرجوحته وهو يرتعد قلقا وتشوقا، عارفا أن بيلار تيرنيرا لا بد أن تمر من الغرفة . . وجاءت فعلا . . وإذا اركاديو يجذبها من معصمها محاولا حملها الى الارجوحة . . فقالت بيلار تيرنيرا في هلع :

- لا يمكنني ١.. لا يمكنني ١.. لا يمكنك ان تتصور الى أي حد أود أن اسعدك، ولكن يشهد الله أن هذا ليس في امكاني ١..

فأمسك اركاديو بخصرها بقوته الهائلة الوراثية وقد شعر بالدنيا تغيب عنه من ملمس بشرتها، وقال لها :

لا تمثلي دور القديسة ! . . على أي حال فالكل يعرفون أنك
بغي ! . .

تغلبت بيلار على التقزز الذي ابتعثه في نفسها علمها بحظها السيء، وغمغمت قائلة

- إن الأطفىال سيكتشفون الموقف . . الافضل ان نترك الباب بغير مزلاج هذه الليلة ! . .

وفي تلك الليلة انتظرها اركاديو في ارجىوحته وهـو يـرتعـد ارتعـاد المحموم. . انتظر دون أن ينـام والليل يمـر بطيئـا متثاقــلا حتى أشفى على

الفجر، مما أقنعه بأنه كان مخدوعا. . وفجأة، عندما استحال الانتظار والقلق الى غضب، فتح الباب اخيراً . .

كانت الخطى متخبطة في الظلام وبين وتخت ، القصل.. ولما مد يده أخرى متختمة بخاتمين في أصبع واحد، على غير ما عرف في بيلار تيرنيرا.. وإذ لم ينفذ الى أنفه الأريج الدخاني واشتم واثحة عطر عدى، فقد أيقن أن هذه ليست المرأة التي كان ينتظرها...

كانت فتاة تدعى وسانتا صوفيا بيدال » وقد نقدتها بيلار تيرنيرا خمسين بيزو وهي نصف ما ادخرته في حياتها، لكي تذهب مكانها. وكان اركاديو قد شاهدها مرارا كثيرة في محل البقالة الصغير الذي يملكه أبواها ولكنه لم يكن يهتم بها. ولكن منذ تلك الليلة درجت على أن تمذهب اليه في المدرسة في فترة القيلولة، بموافقة أبويها، اللذين منحتهما بيلار تيرنيرا النصف الباقي من مدخراتها. وظل الحال كذلك الى أن اصبح اركاديو قائداً عسكرياً مدنيا، وله منها بنت.

وكان الاقرباء الوحيدون الذين يعرفون ذلك هما أبوه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا، بعد أن وطد اركاديو صلاته بهما في ذلك الحين، لا لصلة القرابة، ولكن لمصلحة خاصة جعلت منه ومن أبيه شريكين متواطئين. فإن الزواج جعل من جوزيه اركاديو انساناً طيعا عاملا، يخرج الى الغابة كل يوم محتقباً بندقية الصيد المزدوجة بصحبة كلاب الصيد المدربة، ويعود الى البيت الذي جملته ربيكا، بحصيلته من الارانب والبط البري، والغزلان أحيانا. وذات يوم زاره اركاديو في مستهل حكمه للبلدة زيارة مفاجئة دعي أحيانا. وأثناء شرب القهوة كشف اركاديو عن الغرض من الزيارة، وهو شكوى قدمت اليه ضد جوزيه اركاديو. فقد قيل إنه لم يكتف برقعة الارض التي كان يفلحها، بل عمل على زيادتها باغتصاب الاراضي المجاورة بالقوة الجبرية، وتمادى في هذا الى حد فرض اتاوة على جيرانه يحصلها كل يوم الجبرية، وتمادى في هذا الى حد فرض اتاوة على جيرانه يحصلها كل يوم

سبت تحت ارهاب كلابه وبندقيته المزدرجة. . . ثم تبين ان اركاديو لم يأت لتصحيح الاوضاع ورفع الظلم، بل لإدراج الأرض كلها، ما لأخيه وما ليس لمه ، في سجسل رسمي ، بسسرط ان يتسرك للمحكسوسة تحصيسل الاتاوات . . . وعلى هذا تم الاتفاق بين الاثنين . . وفي السنوات التالية ، عندما قام الكولونيل اوريليانو بوينديا بفحص سجل الممتلكات العقارية ، تبين أنه قد سجلت باسم اخيه جوزيه اركاديو كافة الاراضي الممتلة بين التل حيث كانت رقعته الصغيرة وبين الأفق، بما فيها أرض المدافن . . كما اكتشفت أن اركاديو لم يكن يحصل فقط الاتاوات ، بل كان يتقاضى كذلك رسوماً من الافواد نظير دفن موتاهم في أرضى جوزيه اركاديو . .

وكان حتما أن تفوح رائحة الفساد الى أنف اورسولا وأن تسمع بأن اركاديو ابتنى لنفسه بيتا واستجلب أثاثاً فاخراً من الخارج، ولكنها لم تعلم علم اليفين الا بعد أن زارته في بيته الجديد ذات يوم وهو يلعب الورق مسع ضباطه . . عندها ايقنت أنه يستغل الاموال العامة لحسابه، ولم تتمالك أن صرخت فيه قائلة :

ـ أنت عار على اسم اسرتنا وسمعتها ! . .

أما أركاديو فلم يعبأ بها. . ويومها فقط عرفت أن له طفلة عمرها ستة اشهر، وأن «سانتا صوفيا بيدال» التي كان يعاشرها بغير زواج، حاصل مرة اخرى . . فاستقر عزمها على مكاتبة الكولونيل أوريليانو بوينديا، حيثما يكون، لإطلاعه على أحدث مجريات الامور . . بيد أن الأحداث المتلاحقة بسرعة في تلك الأيام حالت دون تنفيذ عزمها . . ذلك أن الحرب التي كانت حتى ذلك ألحين مجرد كلمة لوصف ظرف بعيد غامض، قد استحالت الى واقع محسوس درامي . . فقد حدث قرب نهاية شهر فبراير أن وصلت الى ماكوندو امرأة عجوز كالحة الوجه راكبة حمارا محملاً بالمكانس . . وكانت علائم المسالمة بادية على المرأة الى حد أن الحرس تركوها تمر دون سؤال

باعتبارها بائعة متجولة مثل غيرها من الباعة الوافدين من منطقة المستنقعات. . وقد اتجهت المرأة العجوز الى الثكنات مباشرة . فاستقبلها اركاديو في فصل المدرسة الذي كان قد تحول الى معسكر خلفي للحرس علمت على جدرانه اراجيح النوم وتناثرت على ارضه البنادق والطبنجات وحتى بنادق الصيد القصيرة . . وإذا المرأة العجوز تنتفض في وقفة انتباه وتحيى تحية عسكرية معرفة نفسها قائلة :

- أنا الكولونيل جريجوريو ستفنسون . .

ولقد جاء معه بأنباء سيئة. . فإن آخر مراكز المقاومة للبسراليين بدأت تتصدع وتسقط تباعا . . وقد عهد اليه الكولونيل اوريليانو بوينديا ، الذي تركه يقاتل متقهقراً قرب بلدة ريوهاشا، برسالة لإبلاغها الى أركاديو . . وكان عليه ان يسلم ماكوندو دون مقاومة ، بشرط احترام حياة وممتلكات الليبراليين . . وقال اركاديو للرسول وهو يتفحصه بنظرة في عجب ورثاء معا :

ـ طبعا احضرت معك رسالة خطية. . .

فرد المبعوث قائلا:

- بالطبع لم احضر معي شيئاً من هذا القبيل. . فالمفهوم في مثل الظروف الحاضرة الا يحمل الانسان شيئا يمكن أن يدينه . .

وشفع هذا الكلام بأن دس يده في «مشده» النسائي وأحرج سمكة مذهبة صغيرة قائلا:

- أظن ان هذا سيكفى . .

أيقن اركاديو أنها حقا من تلك الحلى الصغيرة التي كان يصنعها الكولونيل اوريليانو بوينديا. . لكن كان من الممكن لأي انسان أن يبتاع مثلها قبل الحرب او يسرقها فلا يمكن الاعتماد عليها كجواز مرور عسكري . .

وعندئذ لجأ الرسول لكي يصدقوا هويته الى افشاء سر حربي، فقال إنه موفد في مهمة الى بلدة كوراكاو، حيث يؤمل في تجنيد المهاجرين المنفيين من كل انحاء البحر الكاريبي وجمع اسلحة وامدادات تكفي لمحاولة النزول الى البر عند نهاية العام . . ونظراً لإيمان الكولونيل اوريليانو بوينديا بهذه الخطة ، فإنه غير ميال الى بذل تضحيات لا جدوى منها في ذلك الحين . . ورخم هذا كله فإن اركاديو لم ينزل عن إصراره ، فأمر بوضع الاسير تحت التحفظ الى أن يمكنه اثبات هويته ، وصمم على الدفاع عن البلدة حتى الموت . . .

ولم يكن له ان يطول انتظاره.. فإن اخبار هزيمة الليبراليين غدت حقيقة واقعة.. فقرب نهاية شهر مارس في فجر يوم هطلت امطاره على غير انتظار، بدد سكون الاسابيع السابقة فجأة أصوات نفير ملعلع وطلقة مدفع اطاحت برج الكنيسة الأمامي.. وفي واقع الأمر كان قرار اركاديو بالمقاومة جنونا لا شك فيه.. فلم يكن تحت إمرته أكثر من خمسين رجلاً مسلحين سلاحاً هزيلا، وما معهم من الذخيرة لا يزيد على عشرين طلقة لكل مقاتل.. ولكن التلاميذ السابقين بين الجنود هبوا للدفاع والاستبسال حتى الموت، مشحونين بالبيانات الحماسية التي كان اركاديو يبثها في صدورهم... وفي غمار هذا الوطيس الحامي افلح الكولونيل ستفنسون المزعوم في الاتصال بأركاديو وقال له:

لا تدعني أتحمل مذلة الموت في الحبس وأنا في ملابس النساء
هذه... ان كان لا بد لي من الموت، فدعني أموت مقاتلًا...

واستطاع اقناع أركاديو اللذي أمر بإعطائه سلاحاً وعشرين طلقة ، ومضى مع خمسة رجال للدفاع عن مقر القيادة ، بينما انطلق أركاديو على رأس أركان حربه للإشراف على المقاومة . . .

ولم يتقدم بعيداً . . . فقد تحطمت الاستحكامات ، وأصبح

المدافعون يقاتلون مكشوفين في الشوارع حتى نفدت ذخيرتهم وغدو يشتبكون بالايدي . . ومع اقتراب الهزيمة خرجت بعض النساء الى الشوارع مسلحات بالعصي وسكاكين المطابخ . . وفي غمرة الفوضى عثر أركاديو على أمارانتا التي كانت تبحث عنه كمجنونة وهي في جلباب نومها ومعها طبنجتان قديمتان مملوكتان لجوزيه أركاديو بوينديا . . . فأعطى أركاديو بندقيته لضابط فقد سلاحه وتسلل مع أمارانتا من شارع قريب لإعادتها الى البيت . . وكانت أورسولا لدى الباب تنتظر ، غير عابثة بطلقات المدفع التي أحدثت ثغرة في واجهة البيت المجاور . . وترك أركاديو أمارانتا مع أورسولا وحاول مواجهة جنديين فتحا نيرانا ثقيلة لدى الناصية . . . لكن الطبنجتين المعتبقتين لم تعملا . . . وفي هذه اللحظة عمدت أورسولا الى حماية أركاديو بجسدها محاولة جذبه الى ناحية المنزل صائحة :

ـ تعال معي ناشدتك الله ! . . يكفي ما كان من جنون ! . .

فصاح أحد الجنديين بدوره:

ـ دعى هذا الرجل يا سيدة ، والا فلن نكون مسؤولين! . . .

فدفع أركاديو أورسولا في اتجاه البيت واستسلم.. وبعد فترة قصيرة توقف اطلاق النار، وبدأت الاجراس تدق... فقد أبيدت المقاومة عن آخرها في أقل من نصف ساعة .. ولم ينج رجل واحد من رجال أركاديو في هله المعركة ، ولكنهم قتلوا ثلاثمائة من الجنود المهاجمين قبسل مصرعهم .. وكان المعقل الاخير الباقي هو الثكنات .. وقبل مهاجمته أطلق الكولونيل جريجوريو ستفنسون المزعوم سراح الأسرى وأمر رجاله بالخروج والفتال في الشارع .. وقد أعطت سرعة الحركة ودقة التصويب اللتان استنفد بهما العشرين طلقة التي أعطيت له .. أعطت الانطباع بأن الثكنات تحت دفاع قوي ، حتى عمل المهاجمون على نسفها بنيران المدافع . ولقد تحت

روع الضابط الذي قاد العملية اذ وجد أنقاض الثكنات خاوية الا من رجل واحد صريع في ملابسه الداخلية وما زالت يده المبتورة ممسكة ببندقية فارغة . . . وكان للرجل الصريع شعر امرأة معقود خلف الرقبة بمشط وحول عنقه سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية صغيرة . . . وعندما أداره بطرف حذائه وسلط الضوء على وجهه ، لم يتمالك أن هتف متحيراً :

- يا إلهي ا . . .

ولما اقترب منه الضباط الآخرون أضاف قائلًا :

- أنظروا من وجدنها في ههذا القتيه ! . . إنه جسريجوري ستفنسون ! . .

وحند الفجر، وبعد محاكمة عسكرية قصيرة، أعدم أركاديو رمياً بالرصاص عند حائط المدافن . . .

وعندما سئل قبيل تنفيذ الاعدام عن رغبته الاخيرة قال بصوت متموج النبرات :

قولوا لزوجتي أن تسمي طفلتنا باسم أورسولا. . . أورسولا، . . أورسولا، جدتها . . . وقولوا لها أيضاً إن المولود الذي سيولد، إن جاء ذكراً ، فليسموه جوزيه أركاديو، لا اسم عمه، بل اسم جده ! . . .

الفصل السابع

انتهت الحرب في شهر مايو. . وقبل اسبوعين من البيان الرسمي الذي اذاعته الحكومة بلهجة طنانة والذي توعدت فيه بإنزال عقاب صارم لا رحمة فيه لأولئك الذين بدأوا التمرد، وقع الكولونيل اوريليانو بوينديا اسيراً في الوقت الذي كان فيه موشكاً على الوصول الى الحدود الغربية متنكراً في شخصية طبيب ساحر هندي . . ومن بين الواحد والعشرين رجلا الذين خرجوا معه الى الحرب، لقي اربعة عشر حتفهم في القتال، وجرح ستة، ورافقه واحد فقط لحظة الهزيمة النهائية . . هو الكولونيل جيريلدو ماركيز . . وقد أذيع نبأ أسره في ماكوندو ببيان خاص . . وعندها قالت أورسولا لزوجها :

_ إنه على قيد الحياة ! . . لنبتهل الى الله أن يجعل أعداءه يرأفون به ! . . .

وبعد ثلاثة أيام في بكاء متصل، سمعت وهي تصنع حلوى باللبن في المطبخ صوت ولدها يتردد واضحاً في سمعها. . فصرخت وهي تهرول الى زوجها تحت شجرة الكستناء لإبلاغه ما سمعت.

ـ هو صوت اوريليانو ! . . لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة، لكنه حي يرزق، وسنراه قريباً ! . .

لقد سلمت بما بدا لها أنها سمعته تسليماً.. وعكفت على كنس غرف البيت وتغيير وضع الأثاث.. وبعد أسبوع سرت شائعة من مصدر ما، دون ان يصاحبها أي بيان، كانت بمثابة تحقيق درامي لنبوءة اورسولا.. مؤداها ان الكولونيل اوريليانو بوينديا قد حكم عليه بالإعدام وأن الحكم سوف ينفذ في

ماكوندو ليكون درساً للناس... وصباح يوم اثنين، بينما كانت امارانتا تلبس أوريليانو جوزيه الصغير «ابن اوريليانو وبيلار تيرنيرا» مىلابسه، اذ سمعت اصوات مقدم جنود على البعد ودوي نفير عسكري، حين اندفعت اورسولا، الى الغرفة صائحة:

ـ انهم آتون به الأن ! . .

وكان الجنود يجاهدون للتغلب على الجمهور المتدفق بكعوب بنادقهم. . فأسرعت اورسولا وأمارانتا الى الناحية تشقان طريقهما بين الناس، وإذا هما تبصرانه. . لقد بدا كمتسول. . كان ممزق الثياب، أشعث شعر الرأس واللحية، حافي القدمين. . وكان يمشي دون أن يشعر بتراب الارض الملتهب، مقيد اليدين خلف ظهره بحبل شده ضابط من الفرسان الى رأس جواده . . وعلى نفس الصورة من الرثاشة والهزيمة جاء الكولونيل جيريلدو ماركيز . . ولم يبد على الاثنين أي حزن . . وإنما كانا أكثر قلقاً من أجل الجمهور الذي كان يصرخ بكل ألوان السباب في وجوه الجنود . .

لم تتمالك اورسولا ان صاحت في خضم هذا الجمع الهادر:

ـ يا ولدي ١١. .

وصفعت الجندي الذي حاول صدها. . وارتفع جواد الضابط على قائمتيه الخلفيتين. . وما لبث الكولوبيل اوريليانو بوينديا أن توقف مشفقاً ، متفادياً ذراعي أمه، وسلط نظرة صارمة على عينيها، قائلا :

ـ إرجعي الى البيت يا امي . . خذي إذناً من السلطات لزيارتي في السجن . . .

ونظر الى أمارانتا، وابتسم قاثلا:

ـ ماذا حدث ليدك ٢..

فرفعت أمارانتا يدها المعصوبة بالضمادة السوداء وأجابت :

.. مجرد حرق. .

وعملت على إبعاد اورسولا لشلا تدوسها الخيل. . واستأنف الجنود. سيرهم بعد أن احيط الاسيران بحرس خاص، متجهين الى السجن. .

وعند الغروب زارت أورسولا الكولونيل أوريليانو في السجن ومها لفافة بما أرادت أن تقدمه اليه. . وقمد لقيت في الحصول على الإذن عماء شديداً بسبب حظر زيارة المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام، ولكن الضابط كان رفيقاً بها ومنحها ربع ساعة للزيارة بعد أن فحص اللفافة وكان بها ملابس نظيفة والحذاء الذي لبسه يوم زفافه والحلوي باللبن التي احتفظت بها له يوم أن جاءها هاتف بقرب عودته . . وقد وجدته في الزنزانة ممدداً على سرير صغير وقد دلي ذراعيه بسبب جروح تحت ابطيه. . وكانوا قد سمحوا له بحلاقة ذقنه. . وبدت عظام خديه بارزة بجانب شاربه الكثيف المفتول الطرفين. . ووجدته علىَ علم بكل احوال الاسرة : انتحار بتـرو كـريسبي، وأفعال اركاديو العدوانية التي انتهت بإعـدامه، وبقـاء أبيه «جـوزيه اركـاديو وينديا ، تحت شجرة الكستناء . كما كان يعرف أن أماراننا في ترملها-العذري قد كرست نفسها لتربية أوريليانو. جوزيه الصغير دابن اوريليانو من بيلار تيرنيرا ، وأنه أبدى نجابة مكنته من تعلم القراءة والكتابة في نفس الوقت الذي بدأ فيه يتعلم الكلام. . ومنذ اللحظة التي دخلت فيها أورسولا الزنزانة طالعتها علائم النضج في ابنها، وهالة الأمر والسلطان التي كانت تشع منه. . وقد أدهشها علمه بكل احوال الاسرة، وفي هذا قال لها مداعباً مازحاً :

ـ كنت تعرفين دائما أنني ساحر أتنبأ بالاحداث ! . .

فتنهدت اورسولا قائلة :

ـ وماذا كنت تتوقع غير هذا. . ؟ الايام تمر. .

فقال اوريليانو مؤيداً :

- هذه هي سنة الحياة. .

وعلى هذا النحو مضت الزيارة التي طال انتظارها في حديث عادي غير الذي أعده كلاهما في ذهنه مسبقا. . وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة نهضت أورسولا لكى تقبله مودعة، وغمغمت قائلة :

.. أحضرت لك مسدساً معي . . .

ولما رأى الكولونيل أوريليانو بوينديا أن الحارس سماه عنهما قمال لها بصوت خافت :

- لن يكون له أي فاثدة . . لكن هاتيه لئلا يفتشوك وأنت خارجة .

فأخرجت اورسولا المسدس من مشدها ودسته تحت مرتبة السريس. . فقال لها بهدوء واعتداد :

لا تقولي وداعا. . لا تستعطفي احمدا ولا تنحني أمام انسان. .
تُصوري انهم اعدموني منذ مدة. .

فعضت اورسولا شفتها حتى لا تبكي.. وقالت قبل أن تستدير خارجة :

- ضع بعض أحجار ساخنة على تلك الجراح. .

ووقف الكولونيل اوريليانو بوينديا ينتظر ساهماً حتى أغلق الباب، فاستلقى ثانية على السرير مدلى الذراعين.. وكان منذ صباه، عندما بدأ يلابس تلك النذر السابقة التي تتجلى له كنوع من الإلهام ينبئه بما سيقع، يتصور أن الموت عندما يحين حينه يقترن بإشارة مداهمة نقض لها، لكن لم تبق الآن سوى ساعات على موته ولم تطالعه تلك الإشارة بعد.. نعم إنهم

عندما اصدروا الحكم بإعدامه سألوه أن يقول رغبته الأخيرة، ولحظتها لم يجد أدنى صعوبة في انتهاز ما هبط عليه من إلهام جعله يقول:

_ أطلب أن يكون تنفيذ الحكم في بلدتي ماكوندو. . .

ولقد استاء رئيس المحكمة العسكرية من هذا الرد وقال له:

_ دعك من هذا المكر يا بوينديا. . . هذه مجرد خدعة لكسب وقت اكثر . . .

فرد عليه الكولونيل قائلا:

ومنذ تلك الأونة هجره الإلهام وتراءى له أن الموت ربما لا تسبقه اشارة هذه المرة لأنه لا يعتمد على الحظ او المصادفة، بل هو منوط بمشيشة جلاديه...

وأمضى يومين على هذه الحال. . . وفي يوم الخميس تشاطر الحلوى باللبن مع حراسه، وارتدى الملابس النظيفة والحذاء اللامع . . . وحتى يوم الجمعة لم ينفذوا فيه الحكم بعد . . .

أما الراقع فهو انهم لم يجسروا على تنفيذ الحكم. . . فإن روح التمرد الفاشية في البلدة جعلت المسؤولين يرون أن اعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا قد يجر نتائج سياسية خطيرة لا في ماكوندو فقط بل في كافة أرجاء إقليم المستنقعات . . وهكذا لجأوا الى استشارة السلطات العليا في عاصمة المقاطعة . . وفي يوم السبت ليلا قصد الكابتن روك كارنيرو المنزط بتنفيذ احكام الإعدام والملقب «بالجزار» قصد مع بعض زملائه الى حانة كاتارينو . . فلم تقبل سوى امرأة واحدة ، وتحت التهديد، مصاحبته الى

غرفتها. . . وفي هذا اعترفت له قائلة :

_ إن زميلاتي لا يرغبن في مصاحبة رجل يعرفن أنه سيموت. . ولا أحد يعرف كيف سيحدث هذا. لكن الجميع يقولون إن الضابط الذي سيطلق الرصاص على الكولونيل أوريليانو بوينديا سوف يقتل هو وكل أفراد فريق الرماة ، دون مهرب، وعاجلا أو آجلا، حتى ولو اختفوا في أطراف الدنيا . . .

لقد نقل الكابتن روك كارنيرو هذا الكلام الى زملائه، فنقلوه بدورهم الى الرؤساء... فلما حل يوم الجمعة كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط كانوا على استعداد للتوسل بكافة المعاذير لتفادي مسؤولية تنفيذ الإعدام... ثم جاء الامر الرسمي يوم الاثنين يقول: لا بد من تنفيذ الاعدام في خلال اربع وعشرين ساعة.. وفي تلك الليلة وضع الضباط سبع قصاصات ورق في دكاب، وبان مصير الكابتن روك كارنيرو الانكد في القصاصة التي سحبت وبها إسمه، وإذا هو يقول بموارة:

.. ان الحظ المنحبوس لا تنفذ منه ثغرة أصل. . . لقد ولـدت هابن حرام »، وسأموت هابن حرام »! . . .

وعند الساعة الخامسة صباحا اختار فريق الرماة بالقرعة، وشكل الصف في الفناء، ثم ايقظ المحكوم عليه قائلا بلهجة الأمر:

ـ هيا بنا يا بوينديا. . . لقد جاءت «ساعتنا »! . .

فرد الكولونيل قائلا:

ــ هـــذا اذن تفسيــر الحلم. . . فقـــد رأيت في منــامي أن جـــروحي تفجرت. . .

وفي نفس هذا الموعد كان أخوه جوزيه اركاديو قد استيقظ من نومه وشرب قهوته، ولم تلبث ربيكا التي كانت تراقب من نافذة غرفة النوم

الاستعدادات الاخيرة لتنفيذ حكم الإعدام ان تنهدت قاثلة:

- إنهم آتون به للتنفيذ. . . كم هو جميل ! . .

فنظر جوزيه اركاديو من النافلة ورأى أخاه وقد وقف بظهره الى الحائط ويداه في خاصرتيه بسبب جروح ابطيه. . وكان الكولونيل أوريليانـو بوينـديا يقول وقتها :

_ يظل الانسان يكد ويجهد في حياته، ثم يأتي في النهاية ستة رجال ضعاف فيقتلونه دون أن يستطيع شيئاً ! . .

وجعل يردد هذا الكلام في غضب واحتدام شديدين حتى تأثر الكابتن روك كارنيرو اذ ظنه يصلي ويبتهل. وعندما سدد الرماة بنادقهم استحال الغضب الى مرارة عقدت لسانه وأطبقت عينيه. واذ ذاك تلاشى في وعيه وضح الفجر ورأى نفسه مرة اخرى في بنطلونه القصير ووالده يقوده الى داخل خيمة الفجر عصر ذلك اليوم الصحو ليريه الثلج . . . وعندما سمع الصيحة الآمرة ظن أنها الأمر النهائي لفريق الرماة . . ففتح عينيه وقد سرت فيه رعدة فضول، متوقعا ان يرى وهج الرصاص المنطلق . . بيد أنه لم يبصر سوى الكابتن روك كارنيرو وقد رفع ذراعيه في الهواء، وجوزيه اركاديو يجتاز الشارع وبندقيته المرهوبة على أهبة الانطلاق . . وفال الضابط لجوزيه اركاديو :

- لا تطلق النار! . . إن العناية الالهية هي التي أرسلتك! . .

وعلى الأثر نشبت حرب اخرى. . فقد ارتحل الكابتن روك كارنيرو ورجاله الستة مع الكولونيل أوريليانو بوينديا لإطلاق سراح الجنرال فكتوريو مدينا الذي حكم عليه بالإعدام في بلدة ريوهاشا. . ولكن وعورة الطريق حالت دون وصولهم قبل فوات الاوان، اذ تم إعدام الجنرال فكتوريو مدينا فعلا. . . وعندها أعلن رجال الكولونيل أوريليانو بوينديا الذين تضاعفت

أعسدادهم بمن انضم اليهم من الليبسراليين في المناطق التي مروا بها ، أعلنوا الكولونيل أوريليانو بوينديا قائداً للقوات المتمردة في اقليم الساحل الكاريبي مع منحه مرتبة الجنرال . . فقبل منهم المنصب ولم يقبسل اللقب، طالما بقي المحافسظون في الحكم. . وفي نهايسة أشهر ثلاثة نجحوا في تسليح اكثر من ألف رجل، ولكنهم أبيلوا عن آخرهم . . وأذاعت الحكومة بيانا تناقلته جميع مكاتب البريد بأن الكولونيــل أوريليانو بوينديا لقي مصرعـه. . ثم أذيعت بعد يـومين برقيـة اخرى تنبيء بقيام تمرد جديد في أقاليم الجنوب . . . وفي ظل هذا التضارب نشأت وتضخمت أسطورة وجود الكولونيل أوريليانو بوينديا في كل مكان. . . ووقتها كان زعماء الليبراليين يفاوضون الحكومة للمشاركة في الكونجرس، فما كان منهم الا أن وصموه بالمغامر الذي لا يمثل الحزب. . ووضعته الحكومة في قائمة قطاع الطرق، وجعلت ثمناً لرأسه خمسة آلاف بيزو. . وبعد سلسلة من الهزائم بلغ عددها ست عشرة، استولى الكولونيل أوريليانو بوينديا على ريوهاشا وجعل فيها مقر قيادته، معلناً الحرب ضد نظام الحكم القـاثم. . . وكانت أول رسالة تلقاها من الحكومة هي التهديـد بإعـدام صديقـه الحميم الكولونيل جيريلدو ماركيز في غضون ثمان وأربعين ساعة اذا لم ينسحب مع قواته الى الحدود الشرقية . . فكان رده قاطعاً . . قال إنه يتوقع جعل مقر قيادته في ماكوندو في مدى ثلاثة أشهر، فإذا لم يجد الكولونيل جيريلدو ماركيز على قيد الحياة، فسـوف يعدم على الفـور جميع الصبـاط الأسرى لـديه، بـدءاً بالجنرالات، وسيأمر رجاله أن يفعلوا المثل الى نهاية الحرب. . وبعد ثلاثة اشهر، عندما دخل ماكوندو مظفراً، كان أول عناق تلقاه في طبريق المستنقعات خارج ماكوندو هو من ذراعي الكولونيل جيريلدو ماركيز. . .

وبوصوله بیت الأسرة وجده ملیثاً بالأطفال . . فقد آوت اورسولا عندها وسانتا صوفیا بیدال ، ارملة ارکادیو مع طفلتها الکبری وأخوین توأمین ولـدا

بعد خمسة اشهر من إعدام أبيهما اركاديو. . وخلافاً لرغبته الاخيرة سمت الطفلة باسم ريميديوس الجميلة ، وفي هذا قالت : «أنا متأكدة أن هذا هو ما كان يقصده اركاديو، ولن نسميها أورسولا لأن الانسان يعاني كثيرا من التسمية » . . وسمي التوأمان «جوزيه اركاديو الثاني » و «اوريليانو الثاني » . . . وقد تولت أمارانتا تربيتهم جميعاً ، ووضعت لهم كراسي خشبية صغيرة في غرفة المعيشة وأقامت شبه دار حضانة ضمت اليها أطفال الأسر المجاورة . . وعندما عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا وسط إطلاق الصواريخ المدوية والأجراس الرنانة ، رحب بمقدمه «كورس » من الاطفال . . ، وحياه ابنه «أوريليانو جوزيه » ، وكان فارعاً مثل جده ، تحية عسكرية . . .

ولم تكن الانباء كلها سارة... فبعد سنة من فرار الكولونيل أوريليانو بوينديا، انتقل أخوه جوزيه اركاديو مع ربيكا للإقامة في البيت الذي ابتناه الركاديو.. ولم يعسرف احد بهدور هذا الاخ في الحيلولة دون إعدام أوريليانو... وفي هذا المقر الجديد الذي غدا أشبه بدار للضيافة استأنفت ربيكا جلساتها مع صواحبها السابقات للاشتغال بالتطريز، وكان بينهن أربع من بنات دون أبولينار موسكوت اللاثي ما زلن رهن العزوبة.. واستمر جوزيه اركاديو في الانتفاع بالاراضي التي اغتصبها والتي اعترفت حكومة المحافظين بمستندات ملكية لها.. وكان يرى عصر كل يوم راجعاً على ظهر جواده مع كلاب الصيد والبندقية المردوجة وقد تدلى من سرج الجواد حصيلته من الأرانب التي صادها.. وذات يوم من سبتمبر لاحت فيه نذر عاصفة قريبة عاد الى البيت أبكر من المعتاد.. فحيا ربيكا في غرفة الطعام وربط الكلاب في الفناء، وعلق الارانب في المطبخ توطئة لتمليحها في ما بعد، ثم دلف الى غرفة النوم لتغيير ملابسه.. وقد روت ربيكا في ما بعد أنه عندما دخل زوجها الى غرفة النوم كانت هي في الحمام ولم تسمع أي شيء.. وكانت روايتها يصعب تصديقها. ولكن لم يكن ثمة رواية اخرى اقرب الى المعقول، ولم

يخطر ببال أحد أن يكون لديها أي دافع لقتل الرجل الذي جعلها سعيدة في حياتها. ولعل ذلك كان اللغز الوحيد الغامض الذي لم يكشف النقاب عنه قط، في ماكوندو. . ذلك انه حالما أغلق جوزيه اركاديو باب غرفة النوم عليه، تردد في أرجاء البيت صوت عيار ناري من طبنجة . . وسال خيط من الدم اخترق كثيرا من الغرف والردهات حتى انتهى الى المطبخ في بيت الاسرة الكبير، حيث كمانت أورسولا تستعد لصنع كعك بالبيض . . فلم تتمالك أن صرخت :

_رحماك يا ربى ! . .

وهرعت تتبع خيط الدم حتى انتهى بها الى بيت جوزيه اركاديو الذي لم تدخله من قبل، ثم الى غرفة النوم التي دفعت بابها وكادت تختنق براثحة بارود محترق، وعثرت على ابنها البكر منبطحاً على الأرض على وجهه فوق والتزلك الذي كان قد خلعه، وعنده كانت بداية خيط الدم المترامي الذي كان قد توقف مسيله من الأذن. هذا، ولم يعثروا على أي جرح في جسده، ولا على أي سلاح بقربه. كما لم يستطيعوا إزالة أثر راثحة البارود من الجثة رغم المحاولات التي بذلت بالماء والصابون والخل وما اليها. وعندما بدا لهم ان يضعوا الجثة في ماء مغلي لإزالة رائحة البارود، مدأت تتحلل، ولم يكن بد من دفنها على وجه السرعة. فجاءوا له بتابوت طوله سبع أقدام ونصف، وعرضه أربع، ودعموه من الداخل بناطواق من الفولاذ، وعلى الرغم من هذا فإن الرائحة كانت بادية في الشارع الذي سار فيه موكب الجنازة. ومع أنهم في الشهور التالية دعموا القبر بحوائط من حوله تخللها ر مسغوط ونشارة الخشب والجير، الا أن المقبرة ظلت لسنوات عديدة تفوح منها راثحة البارود، الى أن جاء مهندسو شركة انتاج الموز التي أنشئت بعد ذلك وكسوا القبر بطبقة من الاسمنت المسلح . . .

وأما ربيكا فقد أغلقت أبواب بيتها وددفنت، نفسها فيه حية، مسربلة

ب حجاب كثيف من الإعراض عن الدنيا واحتقارها لا تستطيع أية مغريات ارضية ان تنفذ منه أو تقوضه. . . وآخر مرة رآها الناس على قيد الحياة كانت عندما اطلقت النار على لص حاول اقتحام باب البيت . . وفي ما عدا خادمتها المقربة لم يعد لأي انسان أدنى اتصال بها بعد ذلك حتى كهولتها ومماتها . . ونسيت البلدة كلها أمرها . .

وعلى الرغم من عودة الكولونيل اوريليانو بوينديا المظفرة، فإنه لم يكن متحمساً لمجريات الامور. لقد أخلت القوات الحكومية مواقعها دون مقاومة مما أثار إحساساً وهمياً بالانتصار بين السكان الليبراليين لم يكن يجمل تبديده. لكن المتمردين منهم كانوا يعرفون الحقيقة، وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا اكثرهم معرفة بها. ومع أنه كان لديه في ذلك الحين خمسة آلاف رجل تحت إمرته وأصبح مسيطرا على ولايتين ساحليتين، ألا أنه كان يشعر بانه يساق في اتجاه البحر حيث يغدو في موقف عبير. وبحثاً عن منفذ للإفلات من هذا الموقف، كان يمضي ساعات بأكملها في مكتب التلغراف للتشاور مع قادة البلدان الاخرى، وفي كل مرة كان يخرج بانطباع قوي هو أن حربهم خامرة لا محالة . وكان يشكو لضباطه قائلا :

. إننا نضيع الوقت، بينما الانذال من اعضاء الحزب الليبرالي يستجدون مقاعد لهم في الكونجرس!..

وفي احدى ليالي البلبلة التي كانت تعتريبه وهو مستلق في أرجـوحته يفكر في منفذ للخلاص من هذا المازق، طلب من بيلار تيرنيرا التي كـانت تغني مع الجنود في الفناء ان تقرأ له المستقبل في الورق الطالع. . فكان كل ما قالته بعد تقليب الورق ثلاث مرات هو :

ـ خل بالك من فمك ! . . أنا لا اعرف ما معنى هذا، لكن الإشارة واضحة جدا . . خل بالك من فمك ! . .

وبعد يومين أعطى احدهم ابريق قهوة لجندي مراسلة، أعطاه هذا بدوره لآخر، وظل ينتقل من يبد الى يبد حتى وصل الإبريق الى مكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا. . . ولم يكن قد طلب قهرة، ولكن ما دامت قد جاءت فقد شربها الكولونيل . . كان بهما جرعة من سم زعاف تكفي لقتل جواد . . وعندما حملوه الى البيت كان متصلباً ومقوساً وقد برز لسانه بين أسنانه .

لقد راحت اورسولا تصارع الموت لإنقاذه.. وبعد تفريغ معدته بالمقيئات لفته بأغطية ساخنة وأطعمته بياض البيض يومين كاملين الى أن استعاد جسمه المضعضع حرارته العادية.. وفي اليوم الرابع خرج من مرحلة المخطر.. واضطر تحت ضغط أورسولا وضباطه الى ملازمة الفراش اسبوصاً آخر.. وفي فترات الصفاء الذهني التي كان يفكر فيها في المحال والمآل، فال ذات ليلة لصديقه القديم الكولونيل جيريلدو ماركيز:

- قل لي يا صديقي الحميم. . لماذا تحارب ؟ . .

فأجاب الكولونيل جيريلدو ماركيز:

- ولأى سبب آخر غير الرغبة في انتصار الحزب الليبرالي ؟...

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

- أنت محظوظ، لأنك تعرف سبب ما تحارب من أجله. . أما في ما يختص بي شخصياً، فقد تأكدت الان فقط انني احارب من اجمل كبريائي وكرامتي. .

ـ هذا شيء سيء. .

فبدا الكولونيل اوريليانو بوينديا متفكها من انزعاج صاحبه، وقال :

- لـك حق. . لكن على أي حال، فهـذا افضل من الا تعرف لماذا تحارب؟ . .

ثم تفرس في عينيه وأضاف بابتسامة :

_ أو أفضل من المحاربة، كما تفعل انت، من أجل شيء ليس له أي معنى عند أي احد ! . .

والواقع ان كبرياء هي التي منعته من الاتصال مع الجماعات المسلحة في داخلية البلاد الى أن يصحح زعماء الحزب الليبرالي علانية تصريحهم بأنه من قطاع الطرق. . ومهما يكن فقد كان يعرف انه ما إن يطرح جانبأ هواجسه تلك، فسيكون بوسعه أن يضرب ضربته المؤثرة في تطورات الحرب. . وبعد طول تفكير وتدبر أثناء فترة النقاهة، استطاع حمل اورسولا على أن تعطيه ما بقي من ميراثها الذهبي المخبوء وكذلك مدخراتها الكبيرة . . وأخيراً عين الكولونيل جيريلدو ماركيز قائداً عسكرياً ومدنياً في ماكوندو، وانطلق بقواته للاتصال بجماعات المتمردين في داخلية البلاد . .

وفي خلال ذلك كان الكولونيل اوريليانو بوينديا يقتطع من وقته جزءاً لإرسال تقارير مفصلة الى ماكوندو عن تطورات الحرب كل أسبوعين. بيد أنه لم يكتب سوى مرة واحدة، وبعد ثمانية أشهر من رحيله مع قواته ، جاء رسول خاص الى بيت الأسرة يحمل مظروفاً مغلقاً بالشمع وبداخله ورقة بخط الكولونيل قال فيها: «اعتنوا جدا بأبي، لأنه سيموت». فانزعجت اورسولا قائلة: «إذا كان اوريليانو يقول هذا فذلك لأن اوريليانو يتنبأ ويعرف!..» وطلبت من أهل البيت مساعدتها في نقل «جوزيه اركاديو بوينديا» الى غرفة نومه في الداخل. وكان قد زاد امتلاء تحت شجرة الكستناء طوال تلك الاعوام حتى عجز سبعة رجال عن رفعه من مكانه واضطروا الى جره جرا. وفي اليوم التالي لم يكن في فراشه واذا كان قد عاد الى شجرة الكستناء فذلك بحكم عادة الجسد. ولكنهم اعادوه مرة الحرى الى غرفته . . وكانت اورسولا تطعمه وتبلغه اخبار اوريليانو. وبعد انقضاء اسبوعين دخلوا عليه وهزوه بشدة وصرخوا في أذنه ووضعوا مرآة أمام انقضاء اسبوعين دخلوا عليه وهزوه بشدة وصرخوا في أذنه ووضعوا مرآة أمام

خياشيمه، بيد أنهم لم يستطيعوا ايقاظه. . وبينما كان النجار يأخذ مقاسات التابوت، رأوا من خلال النافذة مطراً خفيفاً من زهور صفراء صغيرة يتساقط. . وظلت تسقط على البلدة طوال الليل في عاصفة ساكنة حتى غطت الاسقف وسدت الابواب وخنقت انفاس الحيوانات التي كانت تبيت في الخارج. . بلغ من كثرة الزهور التي تساقطت انها غطت الشوارع ببساط سميك حتى اضطروا الى جرفها لكي يمكن أن يسير موكب الجنازة. .

الفصل الثامن

جعلت امارانتا تراقب من مقعدها الهزاز اثناء فترة الراحة من التطريز، أوريليانو - جوزيه وهو يكسو ذقنه برغوة الصابون توطئة لحلاقتها لأول مرة. . فما كان منه إلا أن ادنى شفته العليا وهو يحاول تنميق الشارب الصغير الاشقر، ولم تتمالك امارانتا ان شعرت بأنها بدأت تشيخ منذ تلك الاونة. . وقالت له :

- إنك تشبه أباك أوريليانو عندما كان في سنك. . انت الآن رجل. . .

والواقع انه كان يافعاً منذ اليوم الذي عهدت به أمه بيلار تيرنيرا الى أمارانتا لتربيته . كان اول الامر يزحف الى فراش امارانتا لينام الى جانبها خوفاً من وحدة الطفولة . . ثم تطور هذا الى مشاعر غريبة بدأت تلابسه في مدارج العمر الى ان تحولت الى افتتان ، مما جعلها تصله بعد ان فاجأتهما أورسولا ذات يوم في والكوار ، وهما يتبادلان القبلات ، ولكنها قالت له ببراءة : وهل تحب عمتك الى هذا الحد ؟ » . . وعندما رد بالايجاب قالت له : وهذا شيء طيب » . . وتركتهما بعد أن اخذت الدقيق الذي جاءت في طلبه . . منذ تلك الأونة أفاق كلاهما من غمرة الحمى التي انتابته ، وانتقل أوريليانو حوزيه للإقامة في الثكنات اذكان في فترة التدريب العسكري . . .

وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتوارد أنباء متناقضة عن سير الحرب. . ففي حين اعترفت الحكومة ذاتها بتقدم حركة التمرد تلقى الضباط الموجودون في ماكوندو أنباء خاصة عن مفاوضات للصلح وقرب عقد هدنة . . وحوالى اول ابريل جاء رسول خاص الى الكولونيل جيريلدو ماركيز وأكد له ان زعماء

الحزب الليبرالي قد اتصلوا فعلا بقادة التمرد في داخلية البلاد وأنهم بسبيل عقد هدنة في مقابل الحصول على ثلاثة مقاعد وزارية لليبراليين مع تمثيل محدود في الكونجرس، وعفو عام عن المتمردين الذين يضعون اسلحتهم. . وقد نقل الرسول امرا سريا من الكولونيل اوريليانو بوينديا الذي لم يقبل شروط الهدنة مؤداه ان يختار الكولونيل جيريلدو ماركيز خمسة من أفضل رجاله ويستعد لمغادرة البلاد معهم. . وقبل اعلان الاتفاق بأسبوع ، وفي إبان عاصفة من الشائعات المتناقضة ، وصل الكولونيل اوريليانو بوينديا الى ماكوندو سراً بعد منتصف الليل مع عشرة من ضباطه الموثوق بهم وفي عدادهم الكولونيل روك كارنيرو وصرفوا الحامية ودفنوا اسلحتهم ودمروا سجلاتهم . . وما ان اقبل الفجر حتى ارتحلوا عن البلدة ، يرافقهم الكولونيل جيريلدو ماركيز وضباطه الخمسة المختارون . . ولقد بلغ من تكتم هذه العملية أن أورسولا لم تعلم بها إلا في اليوم التالي . . كما اكتشفت أن أوريليانو . . جوزيه قد اوتحل مع أبيه . .

وبعد عشرة ايام صدر بلاغ مشترك من الحكومة والمعارضة يعلن انتهاء الحرب، مقترنا بنبا حركة التمرد الاولى من جانب الكولونيل أوريليانو بوينديا عند الحدود الغربية. ولم تحتمل قوته الصغيرة المحدودة التسليح اكثر من اسبوع لتفريقها . ولكن في خلال تلك السنة، بينما كان اللببراليون والمحافظون يحاولون اقناع البلاد بالمصالحة الوطنية، قام الكولونيل أوريليانو بوينديا يسبع محاولات أحرى للتمرد . وفي احدى المناسبات اقترب من ماكوندو الى أقل من خمسة عشر ميلا، ثم اضطر الى الاختفاء في الجبال تحت ضغط اللوريات الحكومية . .

وانقطعت اخباره عن أورسولا مدى سنوات، تردد فيها أنه كف عن مناوأة حكومة بلاده، وانضم الى حركة الفيديراليين في الجمهوريات الأخرى بهدف توحيد الحركمات الفيدرالية في امريكا الوسطى سعياً للقضاء على

أنظمة حكم المحافظين من الاسكا في الشمال الى بتاجونيا في الجنوب. . وكانت اول رسالة تلقتها اورسولا منه بعد سنوات عديدة من ارتحاله مثنية وباهتة لتبادلها بين أيد متعددة، حتى لم تتمالك بعد أن علمت بمضمونها ان هتفت :

ـ لقد فقدناه الى الابد. . اذا واصل هذا الطريق فسوف يبقى مشرداً في أرجاء الدنيا الواسعة ! . .

كان الذي قالت له هذا الكلام، وهو أول شخص أطلعته على الرسالة، هو الجنرال راكيل موكادا عمدة ماكوندو المحافظ الذي عين في هذا المنصب منذ نهاية الحرب. وقد رد عليها بقوله :

- من المؤسف ان اوريليانو هذا ليس من حزب المحافظين . .

والواقع ان هذا الرجل كان معجباً بأوريليانو رغم اختلاف انتماءاتهما. . . وكان شخصية دمثة استطاعت ان تكتسب قلوب أهل البلدة بعد أن طرح حزبيته جانبا وقام فيها بإصلاحات واسعة أدت الى ازدهارها. . وقد حدث ذات مرة عندما اضطرته المناورات الحربية الى التخلي عن احد المواقع الحصينة للكولونيل أوريليانو بوينديا أن ترك له رسالتين : تضمنت الاولى دعوة له الى مشاركته في القيام بحملة واسعة لجعل الحرب اكثر انسانية ، وكانت الرسالة الثانية موجهة الى زوجته التي كانت باقية في منطقة تحت سيطرة الليبراليين ، وشفعها برجاء منه لتوصيل الرسالة اليها. ومنذ ذلك الحين درج القائدان العدوان ، حتى في اشد مراحل الحرب ضراوة ، على ترتيب هدنات لتبادل الاسرى . . وقد ادى ذلك الى توثيق عرى الصداقة بين الاثنين . . بل انهما فكرا في التنسيق بين المعطيات الأساسية للحزبين بهدف تجاوز تأثيرات السياسيين المحترفين والعسكريين واستخلاص نظام حكم إنساني يجمع أفضل ما في مبادىء كل من الفريقين . . .

وفي خلال ذلك كانت اورسولا رغم ضربات الزمن ترفض بعناد وإصرار الاستسلام للشيخوخة. . ومضت في توسيع صناعة الحلوى التي بدأتها منذ حين، واستطاعت بمساعدة سانتا صوفيا بيدال أرملة اركاديو، أن تجعل منها صناعة مزدهرة ضاعفت من مدخراتها. . وكان ذلك هو الموقف عندما هجر أوريليانو وجوزيه دابن أوريليانو وتيرنيرا » صفوف القوات الفيديرالية في نيكاراجوا وظهر أمام أورسولا في المطبخ قوياً كحصان، اسمر مرسل الشعر كالهنود، مصمماً بعزم على الزواج من أمارانتا. .

وحالما رأته أمارانتا عرفت في الحال سبب قدومه، بيد أنها تحاشت الاجتماع به على انفراد. . غير أنه بعد شهرين من اعتكافها عنه، تسلل ليلا الى مخدعها، فصدته عنها قائلة :

- اخرج. . اخرج والا صرخت. . أنا عمتك ! . . إنني كأمك، لا بسبب السن، ولكن لأنني ربيتك ! . .

وفي مناسبة اخرى قالت له بعد أن أرهقها بإلحاحه :

- انت وحش ا . . لا يمكنك ان تتزوجني الا بتصريح خاص من روما. .

ولما وعد أوريلبانو - جوزيه ان يذهب الى روما ولو سعياً على ركبتيه خلال أوربا كلها لتقديم التماسه تحقيقاً لأمنيته المضطرمة، ردت عليه أمارانتا بقولها :

ليس هـذا فقط. . ان زواجاً كهـذا سـوف يثمـر أطفـالاً لهم ذيـول خنازير. .

بيد أنه صم أذنيه عن كافة الحجج، قائلا:

- لا يهمني حتى لو ولدوا خنازير كاملة ! . .

ولكن رفض أمارانتا كان قاطعا. .

وبعد شهرين من عودة اوريليانو موزيد، جاءت الى البيت الكبير امرأة وافرة النمو والقوة معطرة بالياسمين ومعها طفل في الخاسسة من عمره وقالت إنه ابن الكولونيل أوريليانو بوينديا وأنها جاءت به الى أورسولا لتتولى تعميده. . ولم يشك احد لحظة في منبته، اذ كان صورة مطابقة للكولونيل وهو في طفولته . . وقد عمدوه باسم أوريليانو، مشفوعا بلقب امه، نظرا لان القانون لا يسمح بحمل اسم الاب الا بعد اعترافه بأبوته للإبن . .

كانت أورسولا في ذلك العهد لم تسمع بالعادة السارية وهي إرسال العذارى الى مخادع مشاهير القادة لإنجاب ذرية ممتازة. ولكنها لم تلبث في خلال هذا العام أن سمعت وعرفت. وفي أقل من اثنتي عشرة سنة تولت التعميد، باسم أوريليانو ولقب الام، لكافة الابناء الدين انجبهم الكولونيل أوريليانو بوينديا في مختلف ميادين الحروب التي خاضها ، وعددهم سبعة عشر. وأول الامر كانت أورسولا تملأ جيوب هؤلاء الصغار بالنقود وتحاول أمارانتا استبقاءهم لتربيتهم . ولكنهم كانوا ينصرفون تباعا مع مهاتهم، اكتفاء بالتعميد وما نالوا من مقود. وكانت أورسولا تدون اسماء الابناء وعناوين الامهات في سجل خاص اعدته لهذا الغرض، قائلة :

ر ان أوريليانو في حاجة الى وثـائق منظمـة حتى يمكنه أن يبت في الامور عندما يعود الينا. .

وفي هذا قالت يوما للعمدة موكادا اثناء دعوة للغداء وهي تعقب على هذا الخصب الفريد انها تتمنى ان يعود الكولونيل أوريليانو بوينديا يوما ما لكي يجمع كل هؤلاء الأبناء في البيت الكبير. . فرد عليها العمدة قائلاً بأسلوب غامض :

ـ لا تقلقي يا صديقتي العزيزة . . إنه سيعود بأسرع مما تتصورين. .

ان ما كان الجنرال موكادا يعرفه ولم يكن يرغب في اماطة اللشام عنه على مائدة الغداء، هو أن الكولونيل اوريليانو بوينديا كان فعلا في طريقه للقيام بأطول وأعنف حركة في سلسلة حركات التمرد التي قام بها حتى الان..

لقد عاد الموقف الى التأزم مثلما كان اثناء الشهور التي سبقت الحرب الاولى . . وتولى الكابتن اكويل ريكاردو قائد الحامية في ماكوندو تدريب قوات الاحتياط . . وكان الليبراليون يعدونه رجلا استفزازيا، حتى قالت اورسولا تحدر أوريليانو - جوزيه منه :

- سوف تقع هنا احداث رهيبة . . نصيحتي لك ألا تخرج الى الشارع بعد الساعة السادسة . .

بيد أن نصائحها ذهبت ادراج الرياح، اذ كان أوريليانو ـ جوزيه، مثل اركاديو من قبل، قد شق عصا الطاعة عليها، ودفعه يأسه من حب أمارانتا الى التمرد على كل شيء. . وبعكس اركاديو الذي لم يعرف قط أبويه، اكتشف هو أنه ابن بيلار تيرنيرا، تلك التي اعدت له ارجوحة في بيتها لكي يقضي ساعة القيلولة كل يوم . . وكما فعلت أورسولا من قبل قالت له بيلار ناصحة :

- لاتخرج هذه الليلة. . ابق معي واقض ليلتك هنا. . ان صديقتك كارميليتا مونتيل تعبت من كثرة ما سألتنى ان ادعها تقابلك عندي . .

فلم يعد أن قال لها:

- قولي لها أن تنتظرني عند منتصف الليل. . .

وذهب الى المسرح لمشاهدة مسرحية وخنجر الثعلب » ولم يعرف الا بعد أن قدم تذكرة الدخول ان الكابتن اكويل ريكاردو كان يقوم مع اثنين من الجنود المسلحين بتفتيش رواد المسرح، فقال له أوريليانو ـ جوزيه محذرا:

- احذر يا كابتن. لم يولد بعد الرجل الذي يمكنه ان يضع يده على . .

فحاول الكابتن تفتيشه بالقوة، وإذ لم يكن أوريليانـوـ جوزيـه مسلحا فقد نجأ الى الفرار. . وقد عصى الجنديان الامر بإطلاق النار عليه، حتى قال احدهما :

. إنه من أسرة بوينديا. .

قما كان من الضبابط الذي احمناه الغضب الا أن التزع منه البندقية وخرج الى وسط الشارع وسدد البندقية صائحاً :

_ يا جبناء ! . . ليته كان الكولونيل أوريليانو بوينديا ! . .

كانت كارميليتا مونتيل بنت العشرين قد أتمت زينتها وتعطرها في بيت بيلار تيرنيرا عندما دوى صوت العيار الناري . . لقد تنبأت بيلار تيرنيرا ذات مرة بعد قراءة الطالع أن أوريليانو ... جوزيه سوف يجد عند كارميليتا السعادة التي ضنت بها عليه امارانتا، وأنه سوف يرزق منها بسبعة ابناء، وأنه سوف يصوت بين ذراعيها ميتة الشيخوخة . . لكن الرصاصة التي دخلت ظهره وحطمت صدره قد ضلت طريقها بتأويل خاطىء الأوراق الطالع . . وأما الكابتن اكويل ريكاردو الذي كان مقدراً له أن يموت حقا في تلك الليلة، فقد مات فعلا، قبل أن يلفظ أوريليانو - جوزيه انفاسه الاخيرة . فحالما دوى العيار الناري الذي صرع الشاب، خر الضابط صريعا برصاصتين في لحظة واحدة لم يعرف أبداً مصدرهما، ودوت في سكون الليل صبحة من أفواه عديدة :

_ يحيا الحزب الليبرالي 1. . يحيا الكولونيل أوريليانو بوينديا 1. . وعند منتصف الليل، بعد أن فاضت روح أوريليانو ـ جوزيه، نقاطر اكثر

من اربعمائة شخص أمام المسرح وأفرغوا مسدساتهم في جسد الكابتن الكويل ريكاردو الطريح في الشارع. . واضطرت احدى الدوريات الى نقل جثمانه فوق عربة يد لشدة ثقلها بما استقر فيها من رصاص . .

ويحلول شهر سبتمبر كانت الانباء متضاربة.. فبينما اعلنت حكومة المحافظين أنها وطدت سلطاتها في كافة ارجاء البلاد، كانت الانباء السرية تتوارد على الليبراليين عن قيام حركات تمرد مسلحة في الداخل.. ولم تعترف الحكومة بقيام حالة الحرب الا بعد صدور مرسوم بهذا اعقبه اجراء محاكمة عسكرية صدر فيها الحكم بإعدام الكولونيل أوريليانو بوينديا غيبيا.. وصدر الأمر بأن أول وحدة عسكرية تتمكن من أسره عليها تنفيذ الحكم فوراً.. وفي هذا قالت أورسولا للجنرال موكادا بلهجة الفرح:

ـ يعنى هذا أنه عاد ! . .

والواقع ان الكولونيل أوريليانو بوينديا قد عاد الى البلاد منذ اكشر من شهر. . ولم يسلم الجنرال موكادا بعودته الى بعد أن أعلن رسميا انه استولى على ولايتين على الساحل. . وفي هذا قال لأورسولا وهو يريها البرقية التي تلقاها :

ـ تهاني يا صديقتي العزيزة. . قريبا سيكون عندك ! . .

رلأول مرة شعرت أورسولا بالقلق، وقالت :

ـ وما الذي ستفعله ؟ . .

إن الجنرال موكادا سأل نفسه هذا السؤال عديد المرات، وما لبث ان رد عليها قائلا:

ـ نفس ما سوف يفعله هو. . يا صديقتي . . سأقوم بواجبي . .

وفي فجر اليوم الاول من شهر اكتوبر هاجم الكولونيل اوريليانو بوينديا

ماكوندو بألف رجل مسلحين تسليحا قويا، وتلقت الحامية أوامر بأن تقاوم حتى النهاية.. وعند الظهر، بينما كان الجنرال موكادا يتناول طعام الغداء مع أورسولا، انطلق مدفع للمتمردين دوى صداه في البلدة كلها ونسف الواجهة الامامية لدار الخزانة نسفا.. فتنهد الجنرال موكادا قائلا:

_ إنهم مسلحون تسليحا جيدا مثلنا. . لكن الى جانب هذا فإنهم يحاربون لأنهم يريدون الحرب. .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر والأرض ترتج ارتجاجاً بنيران المدفعية من الجانبين ، استأذن من أورسولا وهو على يقين من أنه يقاتل في معركة خاسرة . . وقال لها :

وفي تلك الليلة وقع أسيراً أثناء محاولته للفرار من ماكوندو بعد أن كتب رسالة للكولونيل أوريليانو بوينديا ذكره فيها بهدفهما المشترك لجعل الحرب انسانية ، وتمنى له الانتصار على فساد دعاة الحرب ومطامع السياسيين في كلا الحزبين . . . وفي اليوم التالي تناول الكولونيل أوريليانو بوينديا الغداء معه في بيت أورسولا حيث جرى احتجازه إلى أن تبت محكمة عسكرية في مصيره . . . وكان في الحق اجتماعا وديا . . . ولكن في الوقت الذي نسي فيه الغريمان الحرب لتذكر أحداث الماضي ، أحست أورسولا بالوجوم لما طالعها من تبدل أطوار ولدها واتجاهاته العدوانية . . . لقد شعرت بهذا منذ أن شاهدته يدخل مصحوبا بحاشية عسكرية كبيرة عمدت إلى تفتيش غرف النوم وقلبها رأسا على عقب حتى اطمأنوا إلى عدم وجود أي خطر . . ولم يتقبل الكولونيل أوريليانو بوينديا هذا فقط ، بل إنه أصدر أوامر مشددة بعدم السماح لاحد بالاقتراب إلى أكثر من عشر أقدام حتى أورسولا ذاتها ، في السماح لاحد بالاقتراب إلى أكثر من عشر أقدام حتى أورسولا ذاتها ، في

حين راح أفراد حرسه الخاص يكملون وضع الحراس حول البيت . . . وكان يرتدي كسوة عسكرية عادية بغير أية شارات ، وحذاء مرتفعاً بمهماز لطخه السطين والدم الجاف ، وتمنطق بحزام تدلى منه حامل مسدس مفتوح اللسان ، وكشفت يده التي كانت دائماً على مقبض المسدس مدى اليقظة والتحفز اللذين شفت عنهما نظراته . . حتى لم تتمالك أورسولا أن قالت لنفسها حين لمحت كل هذا وأكثر منه :

ـ رحماك يا ربي ! . . إنه يبدو الآن رجلا لا يتودد عن شيء ! . . .

وحالما تم تنفيل الأمر بدفن الموتى في قبر جماعي ، عهد إلى الكولونيل روك كارنيرو بمهمة تشكيل محكمة عسكسرية ، وانهمك هو على الأثر في مهمة شاقة ، هي فرض اصلاحات راديكالية لا تدع حجرا في نظام حكم المحافظين في مكانه . . . وقال لمساعديه في هذا الصدد :

علينا أن نسبق السياسيين في الحرب . . . فعندما يفتحون أعينهم على الواقع سوف يجدون أمامهم حقائق قائمة . . .

وكان من قراراته مراجعة عقود تملك الأراضي التي يرجع تاريخها إلى ماثة سنة ، فاكتشف المظالم الصارخة التي ألبسها أخوه جوزيه أركاديو ثوب القانون ، وسرعان ما ألغى تسجيلاتها بجرة قلم . . . ولكي يقوم بلفتة ودية ترك مهامه ساعة من زمن وزار أرملته ربيكا ليطلعها على نواياه . . .

والحق أنه وجد هذه الأرملة التي كانت موضع سره في غرامياته السك، حة والتي كان لها الفضل في انقاذه من كثير من المآزق وهي في عزلتها في ظلال بيتها أقرب إلى شبح من أشباح الماضي وقد بدأ ينصحها أن تخفف من صرامة أحزانها ، وأن تدع الهواء يتجدد في المنزل ، وأن تغفر للدنيا ما نالها من قتل جوزيه أركاديو . . . بيد أن ربيكا كانت بمنأى عن هذا كله ، وقبعت في مقعدها الهزاز تنظر إليه وكأنه هو ذلك الشبح من أشباح

الماضي . . . بل إنها لم تنزعج بالنبأ الذي ساقه إليها عن الأراضي التي إغتصبها جوزيه أركاديو وقرب أعادتها إلى ملاكها الشرعيين ، وإنما تنهدت قائلة :

_ إن كل ما تقرره يا أوريليانو سيكون أمراً نـافذاً . . . كــان رأيي فيك دائماً ، وقد لمسته الآن بالدليل، إنك شخص مرتد عن كل معتقد كان لك! . .

وقد تمت مراجعة وتعديل عقود التمليك في نفس الوقت الذي انعقدت فيه المحكمة العسكرية برئاسة الكولونيل جيريلدو ماركيز، وانتهت بإعدام كل الضباط الذين أسرتهم قوات المتمردين . . . وكان آخر من حوكم هو الجنرال راكيل موكادا . . . وقد بادرت أورسولا بالتوسط من أجله ، وفي هذا قالت للكولونيل أوريليانو بوينديا :

_إن حكمه كان من أفضل ما رأينا في ماكوندو . . . ولن أحدثك عن طيبة قلبه ، وعن مودته لنا ، لأنك تعرف هذا اكثر من أي أحد آخر. .

فما كان من الكولونيل أوريليانو بوينديا إلا أن نظر إليها مستنكراً ، ورد عليها قائلًا :

. لا يمكنني أن آخذ على عاتقي مهمة تصريف العدالة . . . إن كان عندك ما تقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية . . .

وفي الحق أن أورسولا لم تفعل هذا فقط ، بل انها جمعت كل أمهات الضباط المتمردين المقيمات في ماكوندو للشهادة . . . فأقبلن كلهن واحدة واحدة ، وبينهن كثيرات ممن اشتركن في تأسيس البلدة غبسر الجبال والمستنقعات ، على أداء الشهادة وامتداح فضائل الجنرال موكادا ، وكانت آخرهن أورسولا . . . وقد أدت حرارة دفاعها وقوة اقناعها وما تهيأ لها من مهابة واعتبار بين الجميع ، إلى جعل ميزان العدالة يتأرجح فترة . . . إذ راحت تقول لهم :

- إنكم أخذتم هذه العملية مأخذ الجد الخيطير ، وخيرا فعلتم لانكم تقومون بواجبكم . . . لكن لا تنسوا أنه طبالما أنعم الله علينا بالحياة فسوف نيظل نحن أمهات ، ومها كنتم ثوريين فإن لنا الحق في خلع بنطلوناتكم وتباديبكم بالعصا لأول بادرة عدم احترام لنا نحن أمهاتكم أ

وقد انسحبت المحكمة للمسداولة وما زالت هده الكلمات تشردد في الأسماع . . . وعند منتصف الليل صدر الحكم بإعدام الجنرال موكادا . . . وقد رفض الكولونيل أوريليانو بوينديا تعديل الحكم على الرغم من مهاترات أورسولا . . . وقبل الفجر بقليل زار المحكوم عليه في زنزانة السجن ، وقال له :

ـ تذكر أيها الصديق القديم أنني لا أعدمك ، وإنما الثورة التي تعدمك . . .

لم يكلف الجنرال موكادا نفسه عناء النهوض من السرير الصغير عندما رآه داخلًا ، ورد عليه قائلًا :

- إذهب إلى حهنم يا صاحبي . . .

لم يكن الكولونيل أوريليانو بوينديا قد منح نفسه حتى هذه اللحظة فرصة لقاء الرجل قلبياً . . . وقد روحه الآن ما رآه من تقدمه فى السن ورعشة يدبه وانتظاره للموت بالامتثال المأثور عمن في موقفه ، وإذا هو يشعر بتقزز بالغ من نفسه ، مشوب ببوادر الرثاء . . . ومها يكن فإنه قال :

- أنت تعرف خيراً مني أن المحاكمات مهازل ، وأنك في الواقع تدفع ثمن جرائم غيرك ، ذلك لأننا مصممون هذه المرة على كسب الحرب بأي ثمن . . . أما كنت تفعل نفس الشيء وأنت في مكاني ؟ . .

نهض الجنرال موكادا لكي يمسح نظارته السميكة في ذيل قميصه ، ورد قائلًا ؟

ـ جائز . . . لكن ما يقلقني ليس هو إعدامك لي ، لأن هـذا بالنسبـة لإناس مثلنا هو موت طبيعي . . .

ووضع نظارته على الفراش ونزع ساعته وسلسلته ، واستطرد يقول :

_إن ما يقلقني هو أنه بعد كل أحقادك علينا ومحاربتنا بكل هذا العنف، قد انتهيت إلى صيرورتك أسواً منا . . . ولم يعد في الحياة شيء يوازي هذه الوضاعة . . .

ونزع خاتم زواجه وأيقونة العذراء ووضعهما بجانب النظارة والساعة ، ثم اختتم قائلا :

_ وبهذا المعدل لن تكون فقط أشد دكتاتور طغياناً ودموية في تاريخنا ، بل سوف تعدم صديقتي أورسولا في محاولة تهدئة ضميرك . . .

وقف الكولونيل أوريليانو بوينديا مكانه جامدا . . . وما لبث الجنرال موكادا أن أعطاه النظارة والايقونة والساعة والخاتم ، ثم غير نبراته قائلا :

_ لكنني لم أبعث إليك لتأنيبك . . . إنما أودت أن أطلب منك معروفاً . . إن ترسل هذه الأشباء إلى زوجتي . . .

وضع الكولونيل أوريليانو بوينديا الأشياء في جيوبه قائلا:

ـ أهي لا تزال في بلدة مانور ؟ . . .

فأيده الجنرال موكادا قائلا:

لا تزال في مانور . . . في نفس البيت القائم خلف الكنيسة . . .
مقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

_يسرني أن أفعل هذا . . .

وعندما خرج الى الهواء المشبع بالضباب شعر بالرطوبة تلفح وجهه... واستقبله فريق الرماة بالرصاص المصطفين تجاه الباب محييته بتحية رئيس الدولة فأمرهم قائلا:

ـ ليخرجوا به الان. .

الفصل التاسع

كان الكولونيل جيريلدو ماركيز هو أول من ادرك عقم هذه الحرب وخواءها. . وفي وضعه الاخير كقائد عسكري ومدني في ماكوندو، كان يتبادل الاتصال البرقي مرتين في الاسبوع مع الكولونيل اوريليانو بوينديا للاطلاع على آخر تطورات الاشتباكات والبت في اتجاهاتها المستقبلية . . وعلى الرغم من طول المحادثات البرقية بينهما، فقط لاحظ الكولونيل جيريلدو ماركيز في الأونة الاخيرة فتوراً غريباً في حماس الكولونيل أوريليانو بوينديا للخوض في تفاصيل المعارك الدائرة، حتى انتهى به الامر الى هذا الإحساس بعقم الحرب وخوائها، وأصبح ملاذه الاخير لقتل الوقت والتخلص من أثقال الوحدة هو قضاء فترات بعد الظهر عند امارانتا التي احبها حبا عميقا لم تقابله الا بالفتور المهذب، ورغم ذلك ظل يتابعها بزياراته اليومية على أمل ان يلين قلبها يوما ما . .

ثم كانت المفاجأة بعد شهرين عندما ظهر الكولونيل أوريليانو بوينديا في ماكوندو على غير انتظار، تلك المفاجأة التي أذهلت صديقه الحميم وأذهلت حتى أورسولا، لما رأوه من تبدل أحواله. . فقد جاء هذه المرة بلا ضبجيج، ولا حرس، ملتفاً بعباءة رغم شدة الحر، بصحبة ثلاث محظيات أسكنهن في نفس البيت، وأخذ يمضي معظم وقته ممدداً في أرجوحته. . وقلما كان يطلع على البرقيات التي كانت ترد عن العمليات العسكرية المادية . .

وفي احمدي المناسبات زاره الكولونيل جيريلدو ماركيز يسأله عن

تعليماته بصدد اخلاء موقع على الحدود حيث كان ثمة خطر من تحول الصراع الى مشكلة دولية، فكان الردهو:

- تضايقني بالتفاهات. . سل السماء ا . . .

في ذلك الحين كانت الحرب تمر بمرحلة عصيبة . . فإن ملاك الاراضي الليبراليين الذين ساندوا الثورة في البداية قد تحالفوا سراً مع ملاك الأراضي المحافظين بهدف وقف عملية مراجعة وتعديل عقود الملكية . . وعمد السياسيون الذين كانوا يزودون الثورة بالأموال وهم في المنفى الى التبرؤ علانية من أهداف الكولونيل أوريليانو بوينديا المبالغة في الشدة والتطرف . . هكذا انتابه ضيق بالغ جعله ينصرف عن كل شيء ويخلد الى الاسترخاء واللامبالاة بعد أن بلغت الحرب مرحلة ركود شامل . . وقد ظل على هذه الحال الى أن جاءت لجنة من الحزب الليبرالى كانت مخولة لدراسة اسباب هذا الركود الذي انتهت اليه الحرب . . وفي مجلسه بين مستشاريه السياسيين راح يستمع في صمت الى مقترحات المبعوثين . . فطلبوا أولاً نبذ مواجعة وتعديل عقود الملكية عملا على استعادة تأييد ملاك الاراضي مراجعة وتعديل عقود الملكية عملا على استعادة تأييد ملاك الاراضي يحصلوا على تأييد الجماهير التي تدين بالمذهب الكاثوليكي . . ثم طلبوا اخيرا ان يعدل عن هدفه الخاص بالحقوق المتساوية للاطفال الشرعيين وغير المرويين حفاظاً على تماسك البيت . .

وهنا قال، الكولونيل أوريليانو بوينديا باسماً بعد أن فرضوا من قراءة المطالب. .

- معنى هذا أن كل ما نحارب من أجله هو السلطة . .

فرد أحد اعضاء اللجنة قائلا:

- هذه مجرد تغييرات تكتيكية . . المسألة الاساسية في المرحلة الراهنة

هي تنوسيع القناعدة الشعبية للحرب. . وبعند ذلك سنوف تكون لننا نظرة اخرى. .

وعندئذ سارع احد مستشاري الكولونيل أوريليانو بوينديا الى التدخل، قائلا:

_ هذه تناقصات، ومعناها أننا كنا نحارب مدى عشرين عاماً ضد مشاعر الامة ! . . إن . .

بيد أن الكولونيل أوريليانو بوينديا أوقفه عن الاسترسال بإشارة من يده، قائلا :

ـ لا تضيع وقتك يا دكتور. . الشيء المهم هو أننا منذ الآن فصاعداً، سنحارب من أجل السلطة فقط. .

وتناول الوثاثق التي جاء بها المبعوثون وتأهب للتوقيع عليها وما زال يبتسم، قائلاً:

.. لما كان هذا هو الموقف، فلا اعتراض عندنا للقبول. .

جعمل رجمالمه يتبادلون النظر بعضهم الى بعض في جزع، وقمال الكولونيل جيريلدو ماركيز بصوت خافت :

ـ معذرة يا كولونيل. . لكن هذا يعتبر خيانة ! . .

فرفع الكولونيل أوريليانو بوينديا القلم في الهواء، وأفرغ جماع سلطته عليه آمراً :

ـ سلم سلاحك ! . .

فنهض الكولونيل جيريلدو ماركيز ووضع سلاحه على المنضدة، بينما مضى الكولونيل أوريليانو بوينديا في أوامره قائلا :

- ـ إرجع الى الثكنات، وضع نفسك تحت تصرف المحكمة الثورية. .
 - وما لبث ان وقع الوثائق وأعطاها الى المبعوثين قائلا :
- اليكم أوراقكم أيها السادة.. وأرجو أن تحصلوا منها على المزايا المطلوبة..
- وبعد يومين حوكم الكولونيل جيريلدو ماركيز بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالإعدام . .

وقد أعار الكولونيل أوريليانو بوينديا أذاناً صماء لكل طلبات الاسترحام التي قدّمت اليه. . وفي ليلة التنفيذ خالفت أورسولا كافة الأوامر الصادرة بعدم إزعاجه، ودخلت عليه في مخدعه متشحة بالسواد بالغة الرصائة وابتدرته قائلة وهي واقفة طيلة الدقائق الثلاث التي حددت للمقابلة :

- أنا اعرف انك ستعدم جيريلدو، وليس في قدرتي ان أفعل أي شيء لمنع إعدامه.. لكنني أوجه اليك تحذيرا واحدا: في اللحظة التي أرى فيها جنته، فأقسم لك بعظام أبي وأمي، وأقسم لك بذكرى جوزيه اركاديم بوينديا، وأقسم لك أمام الله أنني سوف أجرك جراً من حيثما تكون مختبئا، وأقتلك بيدى هاتين إ...

وقبل أن تبرح الغرفة، ودون انتظار لأي رد، إختتمت قائلة :

ـ إن هذا يساوي عندي كما لوكنت ولدتك بذيل خنزير ! . .

وبعد ليلة عصيبة أمضاها في التأمل واستعراض الماضي والحاضر، ظهر عند الفجر في زنزانة الكولونيل جيريلدو ماركيـز قبل ساعة واحـدة من موحد تنفيذ حكم الإحدام، وقال له :

- انتهت المهزلة ايها الصديق القديم. . هلم بنا من هنا قبل أن يتكفل البعوض بتنفيذ الإعدام ! . .

فلم يستطع الكولونيل جيريلدو ماركيز أن يكتم رنة الارتواء التي ابتعثها فيه هذا المسلك، ورد قائلا:

فقال له الكونونيل أوريليسو بوينديا:

ـ لن تراني هكذا. . إلبس حذاءك وساعدني لوضع حد لهذه الحرب القلرة . .

والحق أنه حين قال قولته تلك لم يكن يعرف أن شن الحرب أيسر من وضع حد لها. . فقد لبث قرابة عام وهو يبلل جهودا عنيفة لإجبار حكومة المحافظين على عرض شروط صلح مقبولة لدى المتمردين ولبث عاما مثله وهو يجاهد لإقناع رفاقه في حمل السلاح بقبولها . . وفد توسل بكافة أساليب التشدد والقسوة لإخماد تمرد ضباطه الذين قاوموا وطالبوا بالنصر . حتى اضطر في النهاية الى الاعتماد على قوات العدو لحمل رفاقه على الامتثال . .

وباقتراب موحد الهدنة إغتبطت أسرة الكولونيل أوريليانو بوينديا بقرب عودته الى العيش في أحضانها، بعيدا عن ويلات الحرب وأعبائها الباهظة، ليكون بشرا عاديا مثل سائر الناس، حتى قالت أورسولا في هذا:

- سيكون لنا أخيرا رجل في البيت، كما كنا في الماضي . .

ومن عجب ان الجيش الحكومي كان عليه أن يتولى حماية البيت عند هذه العودة المرتقبة . . إذ كان وصوله مقترناً بالشتائم والإهانات والاتهام بأنه قد عجل بإنهاء الحرب بثمن باهظ . .

وفي خلال الأيام التالية التي استسلم فيهما لمداواة جراحه الجسدية والنفسية، عمد الى إتلاف كل أثر يربطه بحياته الماضية. . فجرد مسبك

المعادن من كل ما له قيمة دانية، ووزع ملابسه على أتباعه من رجال المراسلة، ولم يحتفظ الا بطبنجة بها رصاصة واحدة. .

وقبل ذلك بساهات جاءت بيلار تيربيرا لزيارته فراعه تقلمها في السن وترهل بدنها وانحسار ضحكتها الرنانة المرحة، وإنما راعه اكثر من هذا نفاذ نبوءاتها العجيبة في قراءتها للطالع، إذ حلرته مرة أخرى، مثلما حدرته وهو في قمة مجده:

- خل بالك من فمك ا . . .

وجاءه طبيبه الخاص . . وبعد أن فرغ من مداواة جروحه ع طلب منه بلهجة عرضية ودون ما اهتمام معين ان يشير له بالتحديد الى موضع القلب . . فتسمع الطبيب بالسماعة ثم رسم دائرة على الطدر بقطمة قطن مغموسة في اليود، دون أن يعقب بسؤال . .

وحمل يوم توقيع الهدنة.. ففي الخامسة صباحا دلف الكولونيل أوريليانو بوينديا الى المطبخ حيث شرب قهوته السوداء بغير مكر كعادته، وقالت له أورسولا:

- لقد جئت الى الدنيا في يوم ثلاثاء كهذا اليوم . . وكان الجميع في ذهول من عينيك المفتوحتين . .

بيد أنه لم يلق اليها بسمعه اذ كان منصناً الى أصوات تشكيلات الجنود وصدى الاوامر الكرية ودوي الابواق وهي تمزق سكون الفجر.. ومن عجب ان هذه الاصوات المألوفة لديه جعلته يغص بطعام الافجار ويصد عنه.. وعندما أقبل الكولونيل جيريلدو ماركيزمع زمره من الضباط المتمردين لمرافقته الى مكان الاجتماع ألفاه صامناً بالغ السهوم والوجوم.. وحاولت أورسولا ان تلقي بعباءة جديدة على كتفيه قائلة:

- مساذا سيسطن رجسال الحكومة عنك ؟ . . سيطنون انك استسلمت

لأنمه لم يبق عندك شيء يكفي لشراء عباءة لك ١٠٠١

لكنه لم يقبل العباءة.. وعندما خرج الى الباب تركها تضع على رأسه قبعة قديمة من اللباد كان يلبسها أبوه جوزيه اركاديو بوينديا.. وقالت له أخيراً:

_ أوريليانو. . عدني أنك إذا وجدتها ساعة شديدة على نفسك هناك، فُلتُتذكر أمك. .

فرد عليها بابتسامة متباعدة، وخرج من البيت لمواجهة الصيحات والشتائم والحملات التي كان مقدراً ان تالزمه حتى مغادرته ماكوندو.. وارتدت أورسولا الى الباب الخارجي فشدت رتاجه وفي عزمها ألا تفتح حتى نهاية حياتها، وهي تدير هذه الخواطر في نفسها: دسوف نفنى هنا، ونتحول الى تراب في هذا البيت الذي لم يبق فيه رجال، لكننا لن ندع لهذه البلدة النكدة فرصة الشماتة بنا ورؤية دموعنا! ...

وأمضت ساعات الصباح كلها تبحث عن أي شيء يذكرها بولدها. بيد أنها لم تعثر على آثار تنفع للذكرى. .

ووصل الكولونيل أوريليانو بوينديا الى مكان الاجتماع على بعد خمسة عشر ميلاً من ماكوندو، حيث تلاقى الموفد الحكومي المحافظ مع وفد المتمردين الليبراليين في خيمة كبرى بجوار بلدة نيرلانديا. . وكان راكبا بغلا موحلا . . وترك لحيته بغير حلاقة . . وكان يقاسي من آلام جروحه آشد من مقاساته لحبوط احلامه ، ذلك لانه وصل الى الحد الذي انتهت فيه كل الآمال والاحلام ، وتلاشت كل الامجاد والانتصارات . . وعملا بالتدابير التي طلبها ، فقد خلا الاحتفال من الموسيقى او الالعاب النارية أو دق الإجراس أو هتافات النصر او غير ذلك من المظاهر التي تغير من الطابع الحزين للهدنة . .

ولم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثاثق. . وكان بين

أعضاء الوفدين أواخر الضباط الذين بقوا على ولائهم للكولـونيل أوريليـانو بوينديا.. وعندمـا هم رئيس الوفـد الحكومي بتـلاوة بنود الاستسـلام، أبى الكولونيل أوريليانو بوينديا قائلا:

- دعونا لا نضيع الوقت في الشكليات . .

وتأهب لتوقيع الوثائق دون قراءتها، وعندثذ قطع احد ضباطه السكون الثقيل قائلاً له :

ـ يا كولونيل. . ارجوك ان تكرمنا بألا تكون أول الموقعين. .

فنزل الكولونيل أوريليانو بوينديا على رجائه.. وجرت التوقيعات في صمت رهيب، الى أن بقي السطر الأول في كل وثيقة خلواً، حتى إذا هم الكولونيل بملئه، قال له ضابط آخر من رجاله:

ـ يا كولونيل . . لا يزال هناك وقت لتصحيح كل شيء . .

بيد أنه أجرى قلمه على الاوراق في المكان الخالي دون أن يتبـدل شيء من ملامح وجهه. .

وما كاد يفرغ من التوقيع حتى ظهر في المدخل ضابط شاب يقود بغلا محملا بصندوقين كبيرين.. كان امين صندوق المتمردين في منطقة ماكوندو.. وقد امضى سنة أيام في رحلة شاقة وهو يسحب البغل المائت من الجوع لكي يصل الى مكان الهدنة قبل فوات الاوان.. وما لبث ان انزل الصندوقين وأخذ يخرج منهما قوالب من الذهب بلغ عددها اثنين وسبعين يضمها فوق المنضدة.. لقد نسي الجميع وجود هذا الرصيد الضخم.. نفي فوضى العام الفائت، عندما دب الانقسام الى القيادة المركزية لحركات التمرد وشاعت المنافسات الفردية بين زعمائها، كان من المستحيل قيام سيرولية عن اي شيء..

وفي الحال ادرج الكولونيل اوريليانو بوينديا قوالب الذهب جميعا في

صلب وثنائق الاستسلام، واختتم الاجتماع دون أن يسمح بناي خطب أو تعقيب.. بيد أن الضابط الشاب وقف في مواجهته متفرساً بعينيه الهادئتين، حتى سأله الكولونيل:

أي شيء آخر؟

فأجاب الضابط وهو يشد على فمه:

ـ الإيصال . .

فكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا ايصال تسلم الذهب بخطه . . وانسحب على الأثر الى خيمة ميدان اعدت له ليستريح اذا شاء . . فلما خلا الى نفسه نزع قميصه وجلس على حافة الفراش الصغير، وفي الثالثة والربع اخرج طبنجته واطلق رصاصتها على نفسه في نطاق دائرة اليود التي رسمها طبيبه على صدره . . وفي تلك اللحظة رفعت اورسولا وهي في ماكوندو غطاء وعاء اللبن فوق الموقد وهي تعجب كيف استغرق فترة طويلة لكي يغلي ، فوجدته مليئاً بالديدان . . فهتفت :

 انهم قتلوا أوريليانو. . لقد أطلقوا عليه النار في ظهره، ولم يجد إنساناً خيراً يغمض له عينيه ! . .

وعند الغروب جاءوا وهي تنتحب حاملين الكولونيل أوريليانو بوينديا ملفوفاً بملاءة كانت ما تزال متيسة بالدم الجاف وعيناه مفتوحتان حنقاً. .

لقد نجا من الخطر. فإن الرصاصة سلكت مساراً مستقيماً حتى استطاع الطبيب ان يدس فتيلاً مغمساً من اليود ويسحبها من الظهر.. وقال وهو في غاية الرضى:

_ كانت هذه آية البراعة مني . . كانت هذه النقطة التي حددتها هي المسار الوحيد الذي يمكن ان تمر فيه الرصاصة دون أن تعطب أي عضو حيوي . .

عندها نقم الكولونيل أوريليانو بوينديا على نفسه اذ لم يطلق الرصاصة في سقف حلقه كما كان في ثبته أن يفعل، حتى ولو بقصد السخرية من نبوءة بيلار تيرنيرا.. وقال للطبيب :

- لو كانت لي سلطتي الماضية الأمرت بإعدامك رمياً بالرصاص في الحال ! . .

ولقد أدى حبوط موته الى استعادة مكانته الذاهبة في غضون ساعات معدودات.. إن نفس الجماهير التي اختلقت قصة تقول إنه باع الحرب في مقابل غرفة جدرانها من قوالب الذهب، قد وصفت محاولة الانتحار بأنها عمل من أعمال الشرف، وأسبغوا عليه منزلة الشهيد..

وفي مدى شهرين استطاع الكولونيل أوريليانو بوينديا ان يغادر غرفته، وكانت نظرة واحدة الى مدخل البيت كافية لكي تعدل به عن كل تفكير في استثناف الحرب مرة اخرى. . فإن أورسولا قد انبرت بحيوية تفوق سنها الى تجديد البيت، إذ قالت عندما رأت أن ابنها سيبقى على قيد الحياة :

- الآن سوف يرى الجميع من أنا. لن يكون في الدنيا كلها بيت الجمل ولا ارحب من بيت المجانين هذا ! . .

فقد أجرت تنظيفه وطلاءه، وغيرت أثاثه، وأعادت الحديقة الى سابق رونقها وغرست فيها أزهاراً جديدة، وفتحت الابواب والنواف حتى تتسوب أضواء الصيف الباهرة الى كافة الغرف حتى غرف النوم.. وأعلمت انتهاء فترات الحداد التي فرضتها من أجل الراحلين من أفراد الأسرة، وأبدلت هي نفسها بثياب الحزن الكالحة ملابس اخرى ادنى الى طابع الشباب.. وانطلق عزف البيانولا يصدح من جديد في ارجاء البيت ويملأ جوه مرحاً.. ولم تتمالك أمارانتا اذ ذاك ان تذكرت بترو كريسبي وتحركت اشجانها التي كانت هاجعة في قلبها الذاوي، ولكن الزمن طهره ونزع عنه كل حقد دفين..

وذات يوم بدا لأورسولا أن تستعين بجنود الحرس الذين كانوا يشرفون على حراسة البيت بأمر الحكومة ـ بدعوى حمايته ـ فلم يمانع رئيسهم الشاب . . وشيئاً فشيئاً اخذت أورسولا تعهد اليهم ببعض الأعمال . . وكانت تدعوهم لتناول الطعام ، وتعطيهم ملابس وأخذية ، وتكفلت بتعليمهم القراءة والكتابة . . وعندما امرت الحكومة بسحبهم استمر واحد منهم في الإقامة في البيت وظل في خدمة الاسرة سنين طويلة . . وفي عيد رأس السنة الجديدة عثر على قائد الحرس الشاب ميتاً تحت نافذة ريميديوس الجميلة بعد أن جن جنونه لطول ما صدته عنها . . .

الفصل العاشر

عندما كبر الشقيقان التوأمان جوزيه اركاديو الشاني وأوريليانو الثاني. وابنا اركاديو » كانت الأسرة في حيرة من تصرفاتهما. . فقد بلغت المشابهة بينهما والمشاكسات الصادرة منهما حداً جعل حتى أمهما سانتا صوفيا بيدال تعجز عن التفريق بينهما ومعرفة من منهما المسمى بالاسم الذي أطلق عليه، دون خلط أو التباس. .

على أن هذا اللبس ما لبث ان تغير بعد تجاوزهما سن المراهقة، فإن اوريليانو الثاني استحال الى فتى ضخم البنية مثل أجداده، بينما شب جوزيه الكاديو الثاني بادي العظام مثل الكولونيل، وكانت المشابهة المشتركة بينهما هى سمة الانطواء والعزلة..

ثم تكشف الفارق الحاسم بينهما في إبان الحرب، عندما طلب جوزيه اركاديو الثاني من الكولونيل جيريلدو ماركيز ان يدعه يشهد عملية من عمليات تنفيذ حكم الإعدام. بعكس اخيه اوريليانو الثاني اللذي ارتاع من هذه الفكرة مفضلا البقاء في البيت. وفي هذه المناسبة طلب من جدته اورسولا ان تريه الغرفة المغلقة التي كانت معملاً لجده الاكبر «جوزيه اركاديو بوينديا» والتي أطلق عليها في ما بعد اسم « غرفة مالكويداس» وجمع فيها كل ما تركه ذلك « الغجري » الحكيم من كتب ومخطوطات فلم تجد أورسولا إذاء إلحاحه إلا أن تعطيه مفتاح الغرفة . .

ومن عجب انأوريليانو الثاني عندما فتح الغرفة لم يجد بها آثاراً للأتربة والعناكب كما تصور، ووجد الكتب مصفوفة والمخطوطات منسقة. . وحين تناول احد الكتب وقرأ بعض ما فيه راعته اعاجيب القصص التي تضمنها... أما المخطوطات فقد عجز عن فك طلاسمها إذ كانت بخط اقرب الى الرموز الموسيقية.. وقد بلغ من فرط انبهاره بالغرفة وما فيها، ان ساوره ذات يوم إحساس خفي بأنه يرى شبع مالكويداس دائما في ظلال الغرفة، على استعداد لتنويره بكل ما يستعصي عليه فهمه وتزويده بالحكمة التي نهل منها جده الاكبر..

أما جوزيه اركاديو الثاني فقد خرج من تجربة مشاهدة عملية تنفيذ الإعدام بفزع بالغ جعله يمقت الحرب ويهرب الى برج الكنيسة لكي يدقى ناقوسها لمساعدة الاب انطونيو ايزابيل والعناية بديوك المصارعة في حوش الأبرشية. . ولما اكتشفت الكولونيل جيريلدو ماركيز الحقيقة زجره بشدة لاهتمامه بأشياء يستنكرها الليبراليون، فرد قائلا :

- الحقيقة هي أنني صرت من المحافظين، كما اظن. .

وعندما تضمايق الكولونيل جيىريلدو ماركينز وأبلغ اورسولا قمالت له متعاطفة مع حفيدها :

مده الكيفية أفضل. . ندعو الله ان يصبح قسيساً، لكي يحل الإيمان في بيت المجانين هذا. .

ولكن جوزيه اركاديو الشاني احترف مصارعة الديوك. ولما رأته اورسولا يدخل البيت لأول مرة بديوكه عارضته بشده قمائلة انها تجلب النحس، وإن احد اسلاف الاسرة قتل منافساً له بسبب هذه الديوك المشؤومة . ولكنه استمر في تربيتها في بيت بيلار تبرنيرا «جدته»، التي اعطته كل ما يحتاج اليه في مقابل اقامته عندها.

أما أخوه أوريليانو الثاني فكانت أطواره أدنى الى العجب. . ففي الفترة التي أمضاها عاكفاً على القراءة في غرفة مالكويداس كان منطوياً على نفسه

مثلما كان الكولونيل اوريليانو بوينديا في شبابه . . ولكن بعد توقيع معاهدة الصلح في «نيرلانديا ، حدث ما أخرجه عن انطوائه وجعله يواجه واقع الدنيا. . فقد التقى ذات مرة بامرأة شابة كانت تبيع ديا نصيب الكارتيلا » لجائزة ﴿اكورديون ﴾ وحيته بحفاوة ومعرفة اكيدة، فلم يدهش أوريليانو الثاني إذ كثيراً ما خلط الناس بينه وبين اخيه التوأم. . بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط، وانتهى اللقاء بأن اخذته المرأة الى حجرتها. . والواقع ان المرأة أحبته حباً شديداً منذ لقائهما الاول، حتى دبرت الامور بحيث تكون جائزة «الاكورديون ، من نصيبه عند سحب ارقام «الكارتيلا». . . وبعد انقضاء اسبوعين تحقق اوريليانو الثاني ان المرأة كانت تعـاشره بـالتناوب مـع اخيه، معتقدة انهما شخص واحد . . وبدلا من ان بعمل على تصحيح الخطأ قرر أن يطيل امد الموقف. . ولم يعد يذهب الى غرفة مالكويداس. . وإنما كان يمضى عصر كل يوم في فناء البيت يتدرب على العزف على «الاكورديون» بالرغم من اعتراضات أورسولا التي كانت في ذلك الحين قد حرمت عزف الموسيقي في البيت بسبب الحداد العائلي ولأن «الاكورديـون » في نظرهـا كان صنعة الممتسولين. . وعلى الرغم من ذلك فإن أوريليانو الثاني غدا بارعا في العزف على والاكورديون ۽ وظل كذلك حتى بعد أن تزوج وأنجب اولاداً وأصبح من اكثر الناس احتراماً في ماكوندو. .

لقد دامت العلاقة بين بائعة «الكارتيلا» والأخوين شهوراً.. ولكن «جوزيه اركاديو» الثاني مرض وانسحب.. أما أوريليانو الثاني فقد صارحها بالحقيقة والتمس صفحها، وبقي معها حتى مماته ..

كانت المرأة تدعى بيترا كوتيس، وكانت قد جاءت الى ماكوندو في إبان الحرب مع زوج عرضي يرتزق من «الكارتيلا»، وبعد وفاته استمرت في المهنة. . كانت شابة مولدة ذات عينين لوزيتين أسبغتا على وجهها شراسة أفعى البانثر، بيد أنها كانت طيبة القلب فوارة العاطفة. . وبعد أن تحققت

أورسولا أن جوزيه أركاديو الثاني احترف مصارعة الديوك وأن أوريلياتو الثاني يعزف على الاكورديون في تلك الحفلات الصاخبة التي كانت تقام في بيت عشيقته، بدا لها أنها توشك ان تفقد عقلها بشذوذ أطوار هذا الثناثي العجيب، حتى لكأن نقائص الاسرة دون ما شيء من محامدها قد تركزت في الاثنين. . وعلى الرغم من أن أورسولا قد بلغت المائة من عمرها وأوشكت ان تفقد البصر بسبب «المياه البيضاء» فقد ظلت محتفظة بحيويتها البدنية الفائقة، واستقامتها الخلقية المأثورة، واتزانها العقلي الموفور. . وقد نذرت في نفسها اذا تزوج احد حفيديها وأنجب ولداً أن تتولى هي تربيته وصياغته ليكون الرجل الفاضل الذي يعيد للاسرة مكانتها الذاهبة . . الرجل الذي لا يعامر في الحروب، والذي لا يحترف مصارعة الديوك، والذي لا يعاشر النساء الساقطات . . وهي النقائص التي عدتها عوامل فعالة في تقويض مكانة اسوتها . .

أما أوريليانو الثاني الذي مضى رغم ذلك في حياته العابثة، فقد اعتبر أن ما ناله من ثراء بعد ذلك انما كان وليد علاقته مع بيترا كوتيس كما سيرى القارىء في ما يلي . . ان بيترا كوتيس ظلت حتى نهاية الحرب تعول نفسها بما تربحه من بيع «الكارتيلا»، وكان أوريليانو الثاني يساعدها بما يسطو عليه بين حين وآخر من مدخرات أورسولا . . وظل الاثنان يعيشان عيشة ماجنة، حتى اذا عاد أوريليانو الى بيته عند الفجر كانت أورسولا تتلقاه صائحة :

- إن هذه المرأة هي سبب ضياعك 1.. إنها سلطت عليك سحرها الى حد انني سأراك يوما وأنت تتلوى من المرض والآلام 1..

بيد أن أوريليانو الثاني لم يفكر وقتها الا في أيجاد حرفة تمكنه من أقامة بيت لبيترا كوتيس، يعيش معها بين جدانه متفانيين في الحب حتى الممات.. وعندما فتح الكولونيل أوريليانو بوينديا مسبكه المعدني مرة

اخرى، بدا الأوريليانو الثاني أن يتعلم صناعة حلى الاسماك الذهبية ليتخذ منها مورداً للعيش.. بيد أن المشقة التي كابدها في فترة ثلاثة أسابيع من التدريب جعلته يهرب من المسبك.. وحدث في خلال هذه المدة أن بيترا كوتيس خطر لها أن تجعل الارانب جائزة الربح في والكارتيلا».. والواقع أن الارانب تكاثرت بسرعة غريبة الى حد أن الوقت لم يكن يتسع لبيع تذاكر والكارتيلا» بالتوازي مع تكاثر الارانب. ولم يتمالك أوريليانو الثاني أن قال لها ذات صباح وقد اذهلته كثرة الارانب في الحوش:

- لماذا لا تجعلين جائزة «الكارتيلا» على البقر؟.

وفي محاولة من بيترا كوتيس لتنظيف الحوش قايضت على الارانب بنقرة، انجبت بعد شهرين ثلاثة عجول!..

كانت هذه هي البداية.. وفي سنوات قلائل، ودون ما جهود تذكر، وإنما بعامل الحظ وحده، جمع أوريليانو الثاني ثروة من اكبر الشروات في منطقة المستنقعات، بسبب ذلك التكاثر الخارق للمواشي.. كانت الأفراس تلد ثلاثاً، والمدجاج يبيض مرتين كل يوم، والخنازير تسمن بسرعة غريبة، الى درجة ان احدا لم يصدق هذه الخصوبة الفذة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود!... ورسخ في ذهن اوريليانو الثاني ان حظه العجيب هذا انما هو بتأثير بيترا كوتيس، حتى أنه كان يحرص دائما على عدم ابعادها عن مراعيه وحظائره، بل أنه بعد أن تزوج وأنجب ابناء استمر يعايشها بموافقة زوجته فرناندا!..

هكذا اصبح اوريليانو الثاني بين عشية وضحاها مالكاً لأراض وماشية متزايدة لم يكن يجد حتى الوقت لتوسيع حظائرها. . . وأضحت حفلاته الصاخبة التي كان يريق فيها الشمبانيا بغير حساب مثار العجب في أرجاء ماكوندو. . وعبثاً كانت أورسولا تزجره لهذا الإسراف الذي لا حد له، اذ كان

يقابل زجرها بالتمادي وهو يضحث طرباً واستخفافاً.. بل إنه جاء ذات مرة بصندوق مليء بأوراق البنكنوت وإناء به معجون وأخذ يلصق الاوراق على حبوائط البيت داخلا وخارجا بين انفعال الاسرة وتفجع اورسولا وطرب الجمهور الحاشد في الشارع، حتى صاح اخيراً بأعلى صوته :

ـ الأن لن يكلمني احد في هذا البيت عن النقود مرة اخرى [...

وقد عمدت اورسولا الى انتزاع اوراق البنكنوت وطلاء البيت باللون الابيض من جديد، وهي تدعو قائلة ;

_ سألتك، يا الهي، ان تعيدنا فقراء كما كنا عندما أنشأنا هذه البلدة حتى لا نجزى بهذا الاسراف في اخرتنا! . .

ومن عجب أن الدعاء جاء بعكس ما استهدفت. . فإن احد العما القائمين بنزع اوراق البنكنوث اصطدم بتمثال ضخم من المصيص للقديد يوسف تركه احدهم في البيت اثناء السنين الاخيرة للحرب وسقط التمثا الأجوف محطما على الارض. . كان التمثال محشواً بالعملات اللهبية . ولم يستطع احد أن يتذكر من اللذي جاء بهذا التمثال . . وفي هذا قالد أماراننا :

_إن ثـلاثة رجـال جاءوا بـه ورجـونـا أن نبقيـه عنـدنـا الى أن تنتهي الامطار، فطلبت منهم أن يضعوه هناك في الركن حتى لا يصطدم بـه أحد، ففعلوا، وبقي في مكانه منذ ذلك الوقت، لأن احداً لم يعد قط للمطالبة به. .

إن هذا الحادث ضايق أورسولا، اذ كانت تعتقد بادىء الامر انه تمثال قديس حقيقي حتى أنها وضعت شمعة فوقه وأخذت تصلي أمامه.. فلما تبيئت الحقيقة الآن لم تتمالك اذ بصقت على كوم اللهب البراق وعمدت الى وضعه في ثلاثة اكياس من القنب دفنتها في مكان سري، مؤملة أن يعود الرجال المجهولون عاجلا او آجلا لاستردادها...

في ذلك العهد كانت ماكوندو تنعم بالرجاء وقد استخالت بيوتها القروية الى أبنية ذات مصاريع خشبية وأرضية من الاسعنت، مما جعل حر الظهيرة دالخانق اقرب الى الاحتمال. . ثم بدا لجوزيسه أركاديو الشاني ان ينشىء مشروعاً ملاحياً يربط البللة بالعالم الخارجي فعمل على تطهير قاع النهر من صخوره وشق قناة تصله بالبحر. . ولما اطلع اخاه اوريليانو الشاني على مشروعه لم يبخل عليه بالمال، واختفى عن الأنظار مدة طويلة حتى ظن الكثيرون أن خطته لشراء سفينة لم تكن سوى خدعة للهرب بمال أخيه . . الى أن جاء يوم هرع فيه سكان ماكوندو الى النهر وعيونهم جاحظة من اللهول، اذ شاهدوا جوزيه اركاديو الثاني يتصدر أول وآخر سفينة تفخر مياه النهر الى البلدة . . .

لم تكن في الواقع سوى طوف خشبي كبير يجذبه بالحبال عشرون رجلاً يتقدمون بمحاذاته على الضفة، وقد وقف في مقدمته جوزيه اركاديو الثاني تلمع عيناه زهواً وهو يشرف على العملية. . ولقد وصلت معه مجموعة من نساء فرنسيات تحت مظلات ملونة نقيهن حرارة الشمس المتقدة، وقد تدلت فوق اكتافهن مناديل حريرية كبيرة هفهافة، وازدانت وجوههن بمعاجين ملونة، ورشقن الزهور الطبيعية في شعورهن، والتفت حول أذرعهن ثعابين من الذهب، ولمعت أسنانهن بالماس . ومن عجب أن جوزيه اركاديو الثاني بعد أن اطلع أخاه على تفاصيل المغامرة التي عدها دليلا على قوة الارادة لا الكثر، ما لبث ان عاد الى ديوكه المتصارعة، وقضى على مشروع الخط الملاحي بالفشل . وكان الأثر الوحيد الذي بقي من هذه المحاولة الفاشلة الملاحي بالفشل . وكان الأثر الوحيد الذي بقي من هذه المحاولة الفاشلة الاجتماعي والسلوكي في هذا المجتمع المنعزل المغلق، الى حد أن هذا الأثر امتد الى حانة كاتارينو العتيقة التي اغلقت أبوابها كساداً، واستحال الشارع ذاته الى ساحة تضيئها المصابيح البدائية وآلات العزف العصرية . .

بل إنهن كن صاحبات السبق في إقامة «الكرنفالات» التي جعلت ماكوندو تميش ثلاثة أيام في جو مرح صاحب محموم.. وكانت التتبجة النهائية لهذا كله هي اتاحة الفرصة لأوريليانو الشاني للالتقاء بزوجته فرناندا ديل كاربيو...

لقد اختيرت اخت ريميديوس الجميلة ملكة لمهرجان الكرنفالات ولم تستطع أورسولا التي كانت مروعة لجمال حفيدتها الصغرى الصاعق ان تمنع هذا الاختيار.. وكانت حتى ذلك الحين قد أفلحت في إبعادها عن اعين الناس خارج البيت، اللهم الا عند الذهاب الى الكنيسة لحضور القداس مع أمارانتا، ولكنها كانت تحملها ووجهها خلف شال اسود.. ومن الناس من كانوا يدهبون الى هناك لمجرد إلقاء نظرة خاطفة على محيا ريميديوس الجميلة التي كانت ملاحتها الفاتنة مثار الاحاديث المحمومة في ارجاء اقليم المستنقعات.

والحق ان ريميديوس الجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا. . لقد ظلت حتى سن المراهقة تحت رعاية امها سانتا صوفيا بيدال التي كانت تتولى تحميمها وإلباسها، وكانت تضعها تحت المراقبة لثلا تشوه الحوائط بالرسوم الغريبة التي تنقشها . . وبلغت العشرين من عمرها دون ان تعرف القراءة والكتابة، جاهلة باستعمال ادوات المائدة، جاثلة في ارجاء البيت عارية اذ كانت طبيعتها تنبذ التستر . . . وعندما طالعها قائد الحرس الشاب بحبه صدته عنها ببساطة لأن ومجونه روعها » ، وفي هذا قالت لأماراننا :

ـ انظري الى سداجته ! . . قال لي إنه سيموت بسببي، كأنني مرض معد يؤدي الى الموت ! . .

وعندما عثروا على الضابط الشاب صريعاً نحت نافذتها، لم تعد ان قالت الأمارانتا :

- ألم أقل لك إنه ساذج!..

إن أورسولا من ناحبتها قد حمدت الله أن منح الأسرة مخلوقة لها مثل هذا الطهر الخارق، وإن كانت في نفس الوقت يقلقها مثل هذا الجمال، الذي عدته شركا شيطانيا تحت طابع البراءة.. ومن اجل هذا كان حرصها على إبعاد ريميديوس الجميلة عن الدنيا، حمانة لها من كل اغراء دنيوى، غير عالمة بأنها كانت حتى وهي في رحم أمها بمناى عن كل عدوى.. ولم يخطر ببالها قط أنهم سيختارونها ملكة جمال الكرنفال الجنوني، ولكن أوريليانو الثانى الذى استدت به نزوة التنكر في إهاب نمر، استقدم الاب الطونيو ايزابيل الى البيت لإقناع أورسولا بأن الكرنفال ليس من الطقوس الوثنية كما قالت، بل هو من الممارسات التي لا تتنافى مع العقيدة... ولما اقتنعت في النهاية، وأن كان على كره منها، وافقت على التتويج..

وسرعان ما انتشر نبأ اختيار ريميديوس بوينديا لتتويجها ملكة في المهرجان حتى تجاوز حدود اقليم المستنقعات في ساعات معدودة ووصل الى مناطق بعيدة لم تسمع بجمالها، الأمر الذي اثار قلق الدوائر التي ما زالت ترى في لقبها العائلي «بوينديا» رمزاً لحركات التمرد.. ولم يكن ثمة أساس لهذا القلق.. فلو كان هناك احد قد انحاز الى السلم والمهادنة فقد كان هو الكولونيل أوريليانو بوينديا، الذي دبت اليه الكهولة، وبعدت صلاته بكافة احوال أمته، والذي اعتكف في مسبكه المعدني يقتل الوقت بصياغة حلى الاسماك الذهبية الصغيرة..

هكذا لم يكن ثمة أساس للقلق الناجم عن عودة اسم عائلة «بوينديا» للظهور على نطاق شعبي لمناسبة اختيار ريميديوس بوينديا لكي تتوج ملكة في مهرجان الكرنفالات، وإن كان هناك العديدون ممن لم يروا هذا الرأي . ومهما يكن فإن البلدة التي كانت غافلة عن الفاجعة التي تتهددها تدفقت الى الميدان الرئيسي في موجات صاخبة من المرح . . وقد بلغ المهرجان ذروته

من الهوس، وحقق أوريليانو الثاني حلمه أخيراً بالتنكر في إهاب نمر والسير في غمار الزحام وقد بح صوته من فرط الصياح والانفعال، عندما ظهر على طريق المستنقعات موكب من عديد الاشخاص يحمنون في محفة مذهبة ابهى امرأة يمكن أن يتصورها الخيال. . وفي مدى لحظة نزع أهل ماكوندو أقنعتهم لكي يحسنوا النظر الى الانسانة المنمقة الزهراء ذات التاج الزمردي والعباءة المحفوفة بالفراء الثمين والتي بدا وكأنها ملكة شرعية لا مجرد صورة مصنوعة . وكان لكثير من الفطنة ما جعلهم يعدون هذا البهاء من قبيل الإغراء والإثارة . ولكن أوريليانو الثاني سرعان ما تغلب على حيرته وأعلن أن الوافدين الجدد هم ضيوف شرف، وبادر فأجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على نفس العرش الذي أعد للتتوبح . . وحتى منتصف الليل فلل الوافدون الغرباء، المتنكرون في أزياء بدوية، يشاركون في البهجة المحمومة، بل انهم ضاعفوا من أسباب المرح والبهجة بإطلاق ألعاب نارية وممارسة عروض بهلوانية جعلت الناس يتذكرون أفانين والغجر » . . .

ثم فجأة، وفي ذروة الابتهاج والحبور، صاح احدهم هاتفا:

ـ يحيا الحزب الليبرالي 1 . . يحيا الكولونيل أوريليانو بوينديا! . . .

وسرعان ما دوت طلقات الرصاص تغطي قصف الالعاب النارية، وانبعثت صبحات الفزع تبتلع عزف الموسيقى، واستحالت البهجة الى ذعر وهلع.. وبعد انقضاء سنوات عديدة على هذه الفاجعة، ظل الكثيرون يؤكدون ان حراس الملكة الوافلة اللخيلة كانوا من الجنود النظاميين اللدين أخفوا بنادقهم الحكومية تحت العباءات البدوية الفضفاضة، برغم ما اذاعته الحكومة في بيان رسمي من دحض هذا الاتهام.. وبعد أن ساد الهدوء لم بيق في البلدة احد من البدو الزائفين، وتناثرت على أرض الميدان جثث القتلى والجرحى في ثياب التنكر: اربع راقصات بانتوميم، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب، وشيطان، وثلاث مغنيات، واثنان من نبلاء فرنسا، وثلاث

إمبراطورات يابانيات.. وفي غمرة الفزع أفلح جوزيه لمركداديو الثاني في النقاذ ريميديوس الجميلة وحمل أوريليانو الثاني الملكة الدخيلة الى البيت بين ذراعيه وقد تمزق رداؤها وتلوثت عباءتها بالدم.. كان اسمها فرناندا ديل كاريبو.. وكان الاختيار قد وقع عليهما كواحدة من أجمل خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد، وقد جاءوا بها الى ماكوندو بناء على وعد بتسميتها ملكة مدغشقر... وتولت أورسولا العناية بها كما لو كانت ابنة لها.. وبدلاً من ال ترتاب البلدة في أمرها فقد عطفت عليها ورثت لما نالها.. وبعد ستة أشهر من المجزرة، وبعد أن شفي الجرحى وذبلت الزهور فوق القبر الجماعي للقتلى، مضى أوريليانو الثاني لاستقدامها من المدينة البعيدة التي كانت تقيم فيها مع أبيها، وعقد قرانه عليها في ماكوندو في احتفال كبير امتد عشرين يوماً ..

الفصل الحادي عشر

كاد الزواج ان يتحطم بعد شهرين، لأن أوريليانو الثاني في محاولة منه لاسترضاء بيترا كوتيس عمل على تصويرها في زي ملكة مدغشقر. . وعندما اكتشفت فرناندا ما حدث، حزمت حقائب العرس وغادرت ماكوندو دون كلمة وداع . . واستطاع أوريليانو الثاني ان يلحق بها على طريق المستنقعات، وبعد توسلات كثيرة ووعود بالاستقامة أفلح في إعادتها الى بيت الزوجية، وهج, عشيقته . . .

وثقة من بيترا كوتيس في قدرتها، فإنها لم تبد أي قلق أو انزعاج، وهي التي أخرجته من عزلته وقلة خبرته، وصاغت منه رجلا يعرف كيف يستمتع بالحياة، فضلا عن تأثيرها في إنماء ثروته. . . وكان الشيء الموحيد اللذي استبقته عندها من ملابسه هو زوج الحذاء الفاخر الذي قال إنه يريد الاحتفاظ به للبسه في التابوت حين وفاته . . وفي هذا قالت بيترا كوتيس لنفسها مصابرة :

ـ سوف يعود اليُّ عاجلا أو آجلا، حتى ولو لمجرد لبس الحداء ! . . .

ولم يكن لها أن تنتظر طويلا. . . فالحقيقة أن أوريليانو الثاني ادرك منذ ليلة الزفاف أنه عائد الى بيت بيترا كوتيس لا محالة . . . فإن فرناندا كانت امراة غريبة الاطوار هائمة في هذه الدنيا . . . لقد نشأت في تلك المدينة القاتمة ، التي تبعد ستمائة ميل والتي تدرج فيها المركبات الملكية ، نشأة قوامها التزمت والاعتكاف في بيت أبوين من اسرة رفيعة . وكثيراً ما سمعت أمها المريضة تردد على سمعها :

- كمانت جدتك الكبرى ملكة . . وسوف تصبحين أنت ملكة ذات يوم

لقد صدقت فرناندا هذا الكلام حتى بعد وفاة أمها وإدخالها الدير وهي في الشانية عشرة من العمر للتعليم، وحتى بعد اضطرار والدها ودون وبغد ثماني سنوات عادت الى البيت لتجده مجردا من الاثاث الفاخر والتحف وبعد ثماني سنوات عادت الى البيت لتجده مجردا من الاثاث الفاخر والتحف الثمينة التي اضطر أبوها لبيمها سدادا لنفقات تعليمها. . . وهكذا مضت فرناندا في عيشتها المنزوية لا أصدقاء لها ولا تعرف شيشا من أحوال الدنيا حولها، حتى ولا أنباء الحرب التي كانت تمزق البلاد، ولا يشغلها سوى تعلم دروس البيانو وصنع اكاليل الموتى . . بل إنها بدأت تفقد الحلم الذي راودها بأن تصبر ملكة في يوم ما بتأثير ما ثبتته أمها في رأسها، الى أن جاء يوم سمعت فيه دقاً آمراً على الباب الخارجي ، ولما فتحته طالعها ضابط شاب أنيق ، وطلب مقابلة أبيها . . . وبعد ان اختلى به ساعتين خرج الاب اليها في غرفة الحياكة وقال لها :

ـ جهزي امتعتك . . ستقومين بوحلة طويلة . .

وعلى هذه الصورة كانت رحلتها الى ماكوندو التي صحبوها اليها دون أن تعرف ما يراد بها.. وفي ليلة واحدة صدمتها الدنيا صدمة قاسية عنيفة بواقعها المرير وحقيقتها المروعة.. وبعد عودتها الى البيت أخلقت على نفسها باب غرفتها واستسلمت للبكاء والنحيب، غير عابئة باستعطاف دالدون فرناندو » لها ومحاولات الشرح والتفسير رغبة في تلافي آثار الجراح العميقة التي خلفتها تلك الدعابة الخادعة الغريبة.. وقد أقسمت ألا تبرح غرفتها حتى الموت، عندما جاء أوريليانو الثاني للزواج منها..

كان ذلك هو بداية حياتها الفعلية . . وكان في نفس الوقت هو البداية ، والنهاية ، لسعادة أوريليانو الثاني . . .

منذ ليلة الزفاف أبدت فرنانبدا تزمتاً غريباً حتى صدفت عن فراش الزوجية مدى اسبوعين كاملين مما اضطر أوريليانو الثاني الى اطالة أيام الفرح عشرين يوما دارت فيها الشمبانيا ونحرت فيها الذبائح وأقيمت الولاثم بكرم باذخ، والسر كما اكتشفت أورسولا أن فوناندا كانت ملتزمة بمراعاة أيام معينة طبقا لتقويم لقنته وهي في الدير. . .

ولما ثابت اليه في النهاية عانى من تزمتها الامرين، حتى لم يمض شهر الا وقد رجع الى بيت بيترا كوتيس وأخذ لها تلك الصورة في زي الملكة على ما تقدم. وبعد أن أفلح في اعادة فرناندا الى بيت الزوجية وخفت حلة نزمتها، أحس في النهاية أنها لا تستطيع أن تهيء له تلك السعادة التي راودت خاطره حين سعى اليها في تلك المدينة البعيدة للفوز بالزواج منها...

ثم ذات ليلة، قبل فترة قصيرة من مولد طفلهما الأول، عرفت فرناندا أن زوجها قد عاد سراً الى بيت بيترا كوتيس. . . وقد اعترف لها بذلك وقال يشرح لها الموقف بلهجة المستسلم لقضائه :

منذا ما حدث . . . وكنان لا بند لي أن أفعل هنذا، لكي تستمر المواشي في التكاثر والزيادة 1 . .

ولم يستغرق الا وقتا قليلا لإقناعها بصدق هذه الدعوى الغريبة وبما قدمه من براهين بدا أنه لا سبيل الى دحضها، وكان الوعد الوحيد الذي طلبته منه فرناندا هو ألا يدع الموت يفاجئه في فراش عشيقته... وعلى هذه الصورة مضى الثلاثة في حياتهم دون أن يضايق احدهم الأخر: أوريليانو الشاني المحب المتفاني، لكل منهما... وبيترا كوتيس المرهوة المنتصرة... وفرناندا المتظاهرة بأنها لا تعرف شيئا...

بيد أن هذا الميثاق الغرامي لم ينجح في ادماج فرناندا في حياة أسرة

بوينديا... فمنذ أول يوم فشلت أورسولا في إقناع فرناندا باستخدام دورة المياه بدلا من «القعادة» الذهبية التي جاءت بها في جهاز العرس ولكي تعطيها الى الكولونيل أوريليانو بوينديا لصهرها وصنع اسماك ذهبية صغيرة منها... وقد شعرت أمارانتا بالضيق من التزام فرناندا أسلوب التحدلق في الكلام حتى كانت تنهكم عليها، مما أدى في النهاية الى القطيعة بين الاثنتين وأصبحتا لا تتصلان الا بالمذكرات الكتابية...

وعلى الرغم من العداوة الظاهرة من جانب الاسرة لفرناندا، فإنها لم تنفض يدها من فرض انجاهاتها وعادات أسلافها على هذه البيشة الجديدة. . . فقد وضعت حداً لتناول الطعام في المطبخ كلما شعر أحدهم بالجوع. والزمتهم بأن يكون هذا في مواعيد منتظمة وحول المائدة الكبرى في قاعة الطعام، مكسوة بمفرش كتاني وعليها ادوات المائدة ومن فوقها الشريات. . . وعلى همذا النحو صارت هي المتصرفة في شؤون البيت، خصوصاً بعد أن طعنت أورسولا في السن وكف بصرها واضطرها ثقل السنين الى الانزواء في أحد الاركان. . . ثم إن أبواب البيت التي كانت تفتح على مصاريعها منذ الفجر حتى موعد النوم، اضحت توصد اثناء فترة القيلولة بدعوى ان الشمس تسخن غرف النوم، وفي النهاية كان اغلاقها دائما... وعندما قرر زوجها تسمية ابنهما الأول باسم جده الاكبر «جوزيه اركاديو» لم تلجأ فرنـاندا الى مخالفته اذ لم يكن قد مضى على وجودها في البيت أكثر من عام، ولكن عندما ولدت البنت الاولى صممت على تسميتها «ريناتها» وهو اسم أمها، في حين أرادت أورسولا أن تسميها ربميـديوس. . . وبعـد احتدام الخلاف الذي كان الاب يقوم فيه بدور الوسيط الضاحك، تم الاتفاق على تسميتها «ريناتا ـ ريميديوس » ثم اشتهرت في البلدة باسم، و ميم ، . . .

ثم توالت الايام وتعاقبت الاعوام... وفي خلال ذلك شهدت بلدة ماكوندو تطورات كبرى غيرت معالم الحياة فيها حتى اصبحت تعج

بالنشاط... فقد مدت اليها خطوط السكك الحديدية، وأدخل التليفون والكهرباء، وأنشىء مصنع للثلج وبعض المشروبات المثلجة... ولكن كان اكبر تطور مؤثر في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية هو زراعة الموز على نطاق واسع بعد أن تولته شركة خارجية جلبت معها مشات الخبراء والفنيين الذين أقيمت لهم مسلكن خاصة ومرافق معيشية وترفيهية منوعة، حتى كان ذلك في نظر أهل البلدة اقرب الى الغزو منه الى التعمير...

واحد فقط رحب بهذا الغزو الخارجي وسعد به الى حد كبير. . هو أوريليانو الثاني . . . فقد كان القادمون الجدد ينزلون ضيوفا على البيت الكبير قبل استقرارهم في منشآتهم الجديدة ، فكانت المآدب تقام لهم بغير حساب . . . وإذا كانت أورسولا قد أبدت كرمها المعهود ، فإن أمارانتا استبشعت ما عدته اقتحاماً للبيت ، وعادت الى تناول طعامها في المطبخ مثل ما كان في الماضي . . . وعمد الكولونيل أوريليانو بوينديا الى اغلاق صومعة السبك على نفسه اعتزالاً للوافدين اللين وان تظاهروا بأنهم يؤدون واجب التحية لبطل قومي ، الا أنه عدهم دخلاء متطفلين يرونه في واقع الامر أثراً من مخلفات الماضى . . . وكانت فرناندا بالطبع اشد الجميع جزعاً ازاء هذه الفوضى التي شملت البيت وعصفت بكل ما وضعته من ترتيبات ونظم . . .

الا ريميديوس الجميلة التي كانت في منعة من التأثر بشيء من هذا كله، بحكم طبيعتها الهادئة، ونفورها من المظاهر، وإعراضها عن كل تشكك وسوء ظن، وسعادتها بدنياها الخاصة القائمة على الواقعية والبساطة. . . ومن قبيل ذلك انها لم تكن تفهم لماذا تلجأ النساء الى التعقيد والتكلف بارتداء الجونلات والمشدات، ولهذا خاطت لنفسها ثوباً خشناً فضفاضاً كالجلباب حسمت به مسألة الفستان، وإن لم تغفل عن الإحساس بأنها تبدو فيه شبه عارية، ولكنها عدته الرداء الوحيد المناسب للبيت . . . ولما رأتهم ينتقدونها بسبب شعرها المرسل الذي استطال الى الفخذين

ويطالبونها بعقده جدائل وتمشيطه ورشق «الفيونكات» الحمراء فيه، حلقت رأسها ببساطة واستخدمت الشعر في عمل عاريات لتماثيل القديسين... وكان الشيء المروع في تبسيطها لكبل شيء هبو أنها كلما استغنت عن متطلبات الهندام اللائق إيثاراً لراحة البدن، وكلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لعفويتها. كلما بدا جمالها الصارخ أشد اشارة، وإغراؤها للرجال اكثر وأفدح.. والواقع أن ريميديوس الجميلة ظلت حتى آخر لحظة لها على الارض غير مدركة ولا مقدرة أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مثيرة للقلق واضطراب المشاعر هو كارثة يومية... كانت في كل مرة تدخل فيها من البلبلة والجزع، اذ كان يبدو بكل وضوح أنها متجردة تماما تحت ردائها البدائي الخشن... ولم يستطع احد أن يفهم ان رأسها الحليق وجمجمتها البديقة التكوين ليسا ضرباً من ضروب التحدي، وأن جرائها في الكشف عن البدية المطيفاً للحر ليس من قبيل الاستغزاز والإثارة الآثمة... ومثل ذلك ما كانت تعمد اليه من لعق أصابعها بعد الاكل ا...

أما هي فكانت غافلة تماما عن البلبلة والاضطراب اللذين كانت تتقلب فيهما، وعن البلاء الذاتي الذي كانت تحدثه كلما مرت بمكان، ومن ثم كانت تعامل الرجال دون ما ادنى سوء طرية ولا خبث، وان كانت في نهاية الامر تزلزلهم بهدوئها البريء... وحينما أصرت أورسولا على جعلها تتناول الطعام في المطبخ مع أمارانتا لكيلا يبصرها الغرباء الوافدون، كانه ارتياحها بالغاء اذ كانت أبعد الناس عن التزام التقاليد والمجاملات والنظام المرسوم... والواقع انه لم يكن يعنيها اين ولا متى تأكل... احيانا كانت تستيقظ من النوم في الثالثة صباحا لتناول طعام الغداء، ثم تنام النهار طوله... بل كانت تمضي شهورا متوالية ومواعيد طعامها في منتهى طوله... بل كانت تمضي شهورا متوالية ومواعيد طعامها في منتهى الاختلال... ثم اذا طرأ تحسن على هذا الجدول الزمني كانت تستيقظ في

الحادية عشرة صباحا وتغلق على نفسها باب الحمام حتى الساعة الثانية بعد الظهر وهي عارية تماما، تتسلى بقتل العقارب الى أن تفيق من تأثير نوم عميق، ثم تاخذ في صب الماء عليها بكوز من الحوض، وكانت تطيل أمد هله العملية وتبالغ في طقوسها الى حد أن من لا يعرفها جيدا يظن أنها قد كرست نفسها لعبادة جسدها. . . أما بالنسبة اليها فإن هذه الطقوس الفردية كان يعوزها كل احساس ذاتي، وكانت مجرد ملهاة لإزجاء الوقت الى أن نشعر بالجوع . . .

وذات يوم حين بدأت في الاستحمام، رفع أحد الضيوف الغرباء بلاطة من سقف الحمام، فتوقفت أنفاسه لمدى المشهد الصاعق الذي صافح عينهه. . . ولقد رأت هي عينه البائستين من خلال البلاطة المكسورة، فلم جامرها رد فعل ينم عن الخجل، بل عن الانزعاج، وهتفت :

- احترس ! . . ستقع ! . . .

فغمغم الغريب قائلا:

_ أردت فقط ان اشاهدك ! . .

فقالت:

ـ لا بأس . . . لكن احترس . . . فإن هذا البلاط مخلخل . . .

لقد شاعت امارات الذهول المعزوج بالتألم في وجه الغريب، وبدا كأنه يكافح في صمت ضد مشاعره لشلا يتلاشى من أمام عينيه هذا السراب. . . أما ريميديوس الجميلة فقد ظنت انه يقاسي من الخوف من احتمال تكسر البلاط كله ، فأخذت تتعجل إتمام حمامها باسرع من المعتاد لثلا يتعرض الرجل للخطر. . . وفيما كانت تصب الماء فوق جسدها من الحوض قالت له إن السقف بهذه الحالة لأن ورق الشجر الذي يحشوه قد دب اليه العطن بسبب الامطار على ما تظن، وأن هذا هو سبب امتلاء الحمام

بالعقارب. . . وقد توهم الغريب أن كلامها هذا هـ و مجرد تغطية لهـدوثها المـذهل، ولـذلك ما أن رآها تضع الصابـون على جسدهـا حتى استسلم للإغراء وتقدم خطوة أخرى مفمغماً :

ـ دعيني أضع لك الصابون. . .

فقالت:

ـ أشكر لك حسن نواياك . . . لكن يدي فيهما كل الكفاية . . .

فقال راجياً:

ـ حتى ولوكان الصابون لظهرك فقط ؟ . .

فقالت:

ـ هذه بلاهة . . . الناس لا يضعون الصابون على ظهورهم أبدا ! . . .

وعندئذ، وبينما كانت تجفف نفسها، توسل اليها الغريب وقد امتلأت عيناه بالدموع ان تتزوجه . . . فردت عليه بلهجة مخلصة قائلة إنها لا يمكن ان تتزوج رجلا بلغت به السذاجة الى حد ان يضيع ساعة من وقته بل حتى يحرم نفسه من طعام الغداء لمجرد أنه شاهد امرأة تستحم . . . وأخيرا، وعندما كانت تلبس جلبابها، لم يحتمل الرجل البرهان الذي رآه بعيني رأسه عما كانوا يستريبون فيه من أنها لا تلبس شيئا غير الجلباب، وأحس ان كشف هذا السر كان له وقع حديد محمى في النار عليه . . . وعندئد نزع بلاطتين أخريين من السقف لكى ينزل الى الحمام . . فقالت تحذره مروعة :

ـ السقف عال جدا ! . . . ستقتل نفسك ! . .

ولقد انكسر البلاط المعطوب بقصف له نذير الشؤم، ولم يمهل الرجل لإتمام صرخة الهلع التي أطلقها، اذ تهشمت جمجمته على الارض الاسمنية ولقي مصرعه على الأثر.

كان هذا الحادث البشع، مقترناً بمصرع ضابط الحرس الشاب عند نافذة ريميديوس الجميلة، هو مصدر الاعتقاد الذي ساد على الأثر، بأن جمالها الطاغي يجلب الموت. . . ومن ثم تخلت أورسولا عن قلقها على الفتاة ورقابتها الدائمة لها وتركتها لمصيرها، خصوصا بعد مولد الحفيد الاصغر جوزيه اركاديو وما نذرته أورسولا من السهر على تربيته ليكون من رجال الدين . . . هكذا مضت ريميديوس الجميلة تهيم في بيداء وحدتها واعتزالها، تضبح في احلام بغير كوابيس، وتواصل حماماتها التي لا تنتهي، وتتناول طعامها دون التزام بأي موعد، مستسلمة لصمتها اللني لا تعروه فكريات . . الى أن جاء يوم وقفت فيه فرناندا في الحديقة تطوي ملاءتها طالبة مساعدة نساء البيت . . . وما كادت تبدأ حتى لاحظت أمارانتا أن ريميديوس الجميلة يغطيها شحوب بالغ، فسألتها :

ـ هل تشعرين بأي انحراف ؟ . .

فأجابت ريميديوس الجميلة بابتسامة راثية وهي ممسكة بطرف الملاءة :

_ بالعكس . . . أنا في أحسن حال . . .

وما ان فاهت بهذا الردحتى شعرت فرناندا بلفحة هواء وضياء جذبت الملاءة من يدها ودفعت وسطها الى اعلى . . . وشعرت امارانتا بدورها برفرفة خفية في اشرطة جونلتها حتى حاولت ان تشد قبضتها على طرف الملاءة لثلا تقع، في اللحظة التي بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع . . . وكانت اورسولا التي كاد بصرها يذهب تماما في ذلك الحين من الهدوء بحيث فهمت طبيعة لفحة الهواء والضياء هذه وتركت الملاءة تحت رحمتهما وهي تراقب ريميديوس الجميلة تلوح مودعة في وسط الملاءة الخفاقة التي ارتفعت معها، مخلفة وراءها بيئة الهوام والزهور، صاعدتين في الهواء الى أن غابتا عن الأنظار في أطباق الجو، الى حيث لا تدركهما حتى أطبار الذكريات . . .

ولقد فكر الخارجون عن نطاق البيت بالطبع أن ريميديوس الجميلة قد انتهت النهاية المحتومة أملكة نحل، وإن اسرتها انما حاولت بتسويب حكلية الارتفاع عن الارض تلك، انقاذ شرفها. . . أما فرناندا التي كانت تحترق حسداً لمنافستها في الجمال فقد تغبلت هذه المعجزة في النهاية، وظلت وقتاً طويلا وهي تبتهل وتصلي عسى أن تعاد اليها ملاحتها الثمينة أل. . وقد صدق أكثر الناس المعجزة، ومنهم من ذهبوا يضيئون الشموع تبركاً . . .

الفصل الثاني عشر

اصرت اورسولا يعناد شليد على أن تختص هي بتربية حقيدها الاصغر وجوزيه اركاديو، تربية دينية تؤهله للترقي في مراتب الكهنوت العليا الى ذروتها، وبذلت في هذا اقصى الجهد على الرغم من اشرافها على المائة عام وانطماس بصرها تماما، وإن كان لها من حلة حواسها الاربع الاخرى وبأسها الماضي الطويل طوع لها ان تمضي في حياتها المائلية كالمبصرين، الى حد ما . . . ثم جاء الوقت الذي اخلوا يستعلون فيه لإرسال وجوزيه اركاديو، الى المدرسة العليا . . . وفي نفس الوقت كانت اخته وميم المسورعة بين صرامة فرناندا وأحقاد امارانتا تستعد هي ايضاً لإرسالها الى مدرسة الدير، حيث تؤهل اثناء تعليمها للتفوق في العزف على والكلافيكورد . . .

وأما أبوهما اوريليانو الثاني فما لبث ان عاد الى حياته اللاهية العابثة، فامتلأ البيت من جديد بالسكارى يسكبون الشمبانيا بغير حسناب، وبعزف «الأكورديون» يتردد صداه بلا انقطاع، حتى لم تتمالك أورسولا ان تمنت الموت لكى يريحها من أثقال هذا «البيت المجنون»، على حد تعبيرها...

ثم حل اليوم المحدد لرحيل «جوزيه اركاديو» الى المدرسة العليا، فبدا هادثا رصينا لا يذرف دمعا، وظل كذلك طوال وليمة الغداء الوداعية التي اقيمت لهذه المناسبة، وفي خلالها كانت الاسرة تتكلف السكينة والمرح، ولكن ما إن نقلت حقيبة امتعته الى الخارج حتى بدا لهم وكأن تابوتاً يحمل الى خارج البيت. . . وكان الوحيد الذي ابى ان يشارك في الوداع هو الكولونيل اوريليانو بوينديا المعتزل الا من العكوف في صومعة السبك على

صنع اسماكه الذهبية الصغيرة تشلاً للوقت وزهداً في كلل شيء حتى الحياة ذاتها، اذ غمغم يقول:

- كاهن ! . . كأن هذا هو كل ما نحتاج اليه ! . .

وبعد ثلاثة شهور صحب اوريليانو الثاني وفرناندا ابنتهما دميم ، الى المدرسة وعادا ومعهما معزف «الكلافيكورد» اللي وضعاه في مكان البيانولا. . . وحوالي هذه الفترة بدأت امارانتا تخيط قماش كفنها. . . واقترن ذلك بغور والحمى ، التي جاءت بها شركة زراعة الموز في المنطقة، وبعد أن وجد سكان ماكوندو القدامي انفسهم محاطين بأفواج الغرباء الوافدين، مما دفعهم الى الاستمساك بمواردهم المحدودة التي كانت لهم منذ الازمان الخوالي، ولكن كان عزاؤهم على أي حال انهم استطاعوا الصمود والنجاة في خضم هذا الغرق الاكبر. . . أما في البيت الكبير فكان الضيوف ما يزالون يتوافدون لتناول الغداء، ولم يتمكن اصحابه من استعادة انماط حياتهم القديمة الا بعد رحيل شركة المسوز بعد ذلك بسنوات. . . ومع ذلك فقد طرأت تغييرات أساسية على نظم الشيافة القديمة، لأن فرناندا هي التي أضطلعت الان بإقرار نظمها الجديدة. . . فإنمه بتنحية اورسبولا الى الخلف بعد أن طعنت في السن وفقدت البصر، وبانهماك أمارانتا في اعداد لفائف الكفن، فقد تهيأت لملكة الكرنفال الحرية في اختيار الصَّيوف وفرض النظم والتقاليد المنقولة عن أبويها. . . ولقد جعلت صرامتها من البيت مثابة للعادات والتقاليد القديمة في بلدة روع اهلها بالسفاهة التي كان الغرباء الوافدون يبعثرون بها أموالهم . . . وكان افاضل النياس عندها هم اولئك الذين لا صلة لهم بشركة الموز. . . وحتى جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها لم يسلم من هذا التغيير، اذ اضطر الى التخلى عن هواية مصارعة الديكة مرة اخرى والالتحاق بالعمل كرئيس عمال في شركة الموز. . . وفي هذا قيالت فرناندا:

ـ لا يصبح بعد هـذا ان يعود الى البيت، طالما انتقلت اليه لـوثـة الاغراب...

على هذه الصورة فرض التشدد في البيت الى حد أن اوريليانو الثاني أحس أنه أوفر راحة عند بيترا كوتيس. . . اولاً، بدعوى رفع العبء عن زوجته والتخفيف عنها، فقد نقل مقر رلائمه وحفلاته من البيت الكبيس... وثانياً ، بىدعوى أن مواشيه بىدأت تفقىد خصوبتها ووفرتها، فقىد نقىل إسطبلاته وملحقاتها. . . وثالشاً، بدعـوى أن حرارة الـطقس اخف في بيت عشيقته، فقد نقل مكتبه الصغير الذي كان يباشر فيه أعماله... وعندما ادركت فرناندا أنها ارملة لم يتوف زوجها بعد، كان الوقت قد فات لكي تعود الامور الى حالتها السابقة. . . واصبح اوريليانو الثاني لا يأكـل في بيته الا لماما، وكانت المظاهر القليلة التي حاول ان يستر بها موقفه، مثل النوم في فراش الزوجية، من الندرة بحيث لا تقنع احدا. . . وذات ليلة طلع عليه النهار، بعامل الإهمال، وهو في مخدع بيترا كوتيس. . . بيند أن فرنـاندا، بعكس كل التوقيات، لم تبدأي استياء، إنما ارسلت في نفس اليوم صندوقين كبيرين مملوءين بملابسه الى دار عشيقته. . . ولقد ارسلتهما في رائعة النهار، وحرصت على أن يكون المرور بهما في وسط الشارع، حتى يستطيع كل انسان رؤيتهما، ظنا منها بان زوجها الآبق لن يقوى على احتمال هذا العار ويبادر بالعودة الى الحظيرة مطاطىء الرأس... ولكن هذه البادرة البطولية من جانب فرناندا كانت مجرد برهان آخر على مبلغ جهلها بطباع زوجها، الذي ابتهج بهذه الحرية التي جاءت اليه تسعى، بإقامة حفلة دامت ثلاثة أيام. . . وفي مواجهة هذه الفترة من حياة الـزوجية التي التـزمت فيها فرناندا بملابسها القاتمة الطويلة وحليها العتيقة وترفعها النابي عن المكان، بدت العشيقة وهي تكاد تتفجر بشباب متجدد، بملابسها الحريرية الزاهية وعينيها البارقتين بوميض الظفر والتشفى... وهكذا أسلم اوريليانو الشاني

نفسه اليها بعنفوان الفتوة والمراهقة. . . وكان ينحر بلا حساب عديد الأبقار والخنازير والدجاج من أجل ولائمه المتلاحقة حتى اسود الحوش ملطخاً بالدم والوحل وتكدست فيه العظام والأمعاء، الى حمد انهم كانوا يفجرون الدبناميت في كل وقت ابعادا للجوارح المنقضة لئلا نفقاً اعين الضيوف! . .

ولقد اصبح اوريليانو الثاني بدينا، مورد الوجه، مكورا كسلحفاة بحرية بسبب شهبته التى لا يباريه فيها احد... بل إن شهرته كمضياف كبير ومبلر اكبر تجاوزت حدود اقليم المستنقعات. واجتذبت الى دار عشيقته الأكولين من الاقاليم الساحلية، فتوافد مشاهيرهم الى الدار للمساهمة في تلك الولاثم الخرافية التي كانت تدور فيها المباريات بينهم، كان فيها اوريليانو الثاني الفارس المجلي والأكول الذي لا يشق له غبار... وظل الحال كذلك الى أن جاءت الساعة المحتومة التي اصيب فيها اوريليانو الثاني بتخمة عاتية أفقدته الوعي وبدا أنه ملاق حتفه بسببها... ولم يتمالك في بارقة صحو عابرة ان غمغم:

- خذوني الى فرناندا. . .

وهكذا حمله اصحابه الى البيت الكبير ظنا منهم بأنهم قد ساحدوه على نحقيق وعده لزوجته بألا يموت في فراش عشيقته ... وبادرت بيترا كوتيس الى دتلميع عدائه الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته، واخذت تفكر فيمن ترسله بالحذاء ، عندما جاءوها ليقولوا إنه نجا من الخطر . . . والواقع أنه ناب من غاشية التخمة في أقل من اسبوع ، وبعد اسبوهين كان يحتفل بنجاته من الموت بولائم لم يسبق لها مثيل . . . واستمر يميش مع بيترا كوتيس ، بيد أنه كان يزور فرناندا كل يوم ، وكان احيانا يبقى ليأكل مع الاسرة ، وكان القلر قد عكس الموقف ، وجعله زوج العشيقة ، وعشيق الزوجة ! . . .

كان ذلك بمثابة راحة لفرناندا. . . وفي غمرة الملل اثناء هذا الهجر، كانت تسليتها الوحيدة دروس هالكلافيكورد » وقت القيلولة والرمسائل التي كانت تكتبها لولدها واينتها . . . والحق الا جميع الرسائل المطولة التي كانت تبعث بها كل اسبوعين لم تتضمن سطرا واحدا يتطوي على العسدق . . . فقد حرصت على اخضاء متاعبها عن ولديها . . . وكانت تهيم وحدها بين الاشباح الثلاثة اللحية في البيت الكبير وشيح هجوزيه اركاديو بوينديا، مؤسس الأسوة الواحل والذي كانت اورسولا كثيرا ما تعرج على مكانه تحت شجرة الكستناء تتحدث وتتانجي وتنقض متاعبها وأحزاتها وكأنه لا يزال على قيد الحيلة ! . . .

وكلك اشدها يقلق فوناندا في سنوات الهجر تلك هو خشيتها من عودة «ميم» في إجازتها السنوية الاولى فلا تجد أباها أوريليانو الثاني في البيت. . . والكن الوعكة التي نزلت به وضعت حدا لهذا التخوف. . . فعندما رجعت «ميم » كان الاتفاق قد تم بين الاثنين على أن يكون أوريليانو الثاني الكآبة المخيمة على البيت. . . وعلى مدار شهرين من كل عام كان اوريليانو الثاني يقوم خير قيام بدور هذا الزوج المثالي، ويقيم حقلات لها تقـدم فيها الحلوي ويدور فيها عزف والكلافيكورد يد . . . وقد بدا جليا منذ ذلك الحين أن العبية لم يخلطها ذلك المزاج الانطوائي الذي كان طابع الاسرة وأنها على وثام مع دنياها يغير عقد ولا اشجان، وقد تجلى هذا في عكوفها على و الكالافيكسورد) في فتسرة الفيلولسة تتلرب عليمه وعلى تسرحيبها بصحبة الشباب الذين كان مقدمها يجيء بهم الى البيت الآمر الذي كأن يوحي بأنها لم تكن بعيلة عن التطبع بطباع واللها المنبسطة السخية . . . وكانت أول علامة على هذا الميواث المحقوف بالكواوث هو كلومها الى البيت الكبير في إجازتها السنوية الثالثة برفقة اربع راهبات واربعين من زميلاتها في الدراسة البلاتي دعتهن من تلقاء نقسها الى قضاء اسبوع مع أسرتها ودون سايق اخطار ! . . .

إن فرناندا لم تتمالك ان هتفت نائحة :

- يا للفظاعة ! . . إن هذه الطفلة همجية مثل أبيها ! . .

ولم يكن هناك مفر من اقتراض أسرة وأراجيح نوم من الجيران. وتخصيص تسع نوبات للجلوس الى مائدة الطعام، وتحديد مواعيد للاستحمام، واقتراض اربعين مقعداً خشبياً صغيراً حتى لا تقضي الفتيات طوال نهارهن وهن يجرين من مكان الى مكان . . . كانت هذه الزيارة في الواقع فشلا ذريعا، لأن التلميذات الصاخبات كن لا يفرغن من طعام الافطار حتى تتخذ الاستعدادات لطعام الغداء، ثم للعشاء، وفي مدى الاسبوع كله لم يتسع لهن الوقت لزيارة مزارع الموز سوى مرة واحدة . . . وعند حلول الليل كانت الراهبات يغلبهن الإعياء ويعجزن عن كل أمر أو نهي ، في حين تبقى الفتيات المتوثبات في الحوش يرددن الاناشيد المدرسية بنغم كله نشاز . . . وذات مرة كدن يدسن أورسولا بأقدامهن لاعتراضها الطريق وهي تظن في ظلمة بصرها أنها تخدم وتفيد . . . ومرة اخرى كادت أمارانتا ان تثير الحساء ، وكان أول ما خطر لها أن تقوله هو السؤال عن نوع ذلك المسحوق الحساء ، وكان أول ما خطر لها أن تقوله هو السؤال عن نوع ذلك المسحوق الأبيض الذي تضعه ، فردت أمارانتا بكلمة واحدة :

ـزرنيخ ١.،

وعلى الرغم من ان بعضهن اصبن بالحمى وبلذعة البعوض، الا انهن ابدين روح الجلد الوافر وهن يقاومن اشد المصاعب. وحتى في خلال فترات الحر الملهب كن يلهون ويتواثبن في الحديقة. . . وعند رحيلهن في النهاية كانت الزهور مقطوعة، والأثاث مكسورا، والحوائط مغطاة بالرسوم والكتابة، غير أن فرناندا سامحتهن بعد ارتياحها للرحيل . . .

وفي خلال تلك الايام عاد «جوزيه اركاديو» الثاني الشقيق التوأم لرب

البيت الى الظهور فيه . . . لقد دلف في المدخل دون أن يبتدر احدا بتحية ، والم واعتكف على الاثر مع الكولونيل اوريليانو بوينديا في مسبك المعادل . . . ولم يكن هذا التصرف مثار دهشة اورسولا عندما عرفت بحضوره من وقع خطى حذائه العمالي الثقيل ، وهي التي عهدته متنائيا عن الاسرة ، مختلفا عن اخيه التوأم أوريليانو الثاني على الرغم من تشابه اطوارهما في الصغر وبلبلة أفكار الاسرة والجيران بما كانا يقومان به من الخدع والاحابيل الماكرة التي يولدها هذا التشابه . . كان الان مختلفا عن اخيه تماما ، ادنى الى النحول والجد والسهوم والوجوم . . . ولم يكن احد يعرف الان دقائق حياته . . . وفي فترة ما عرف انه ليس له مقر معين ، وأنه يربي ديوك المصارعة في بيت بيلار تيرنيرا حيث ينام لديها احيانا . . . ولكنه كان يمضي اكثر لياليه متنقلا من مكان الى مكان ، دون أن تربطه مودة بأحد ، ودون ما أي هدف محدد ، وكأنه نجم شارد في نظام اورسولا الكوكي . . .

ولقد حاولت أورسولا ان تستعين بجوزيه اركاديو الشاني لحمل الكولونيل اوريليانو بوينديا على الخروج من حبسه الاختياري في المسبك، وفي هذا قالت له :

اجعله يذهب الى السينما. . . وحتى اذا كان لا يحبها، فعلى الأقل
سوف يتنفس بعض الهواء النقى ! . .

لكنها لم تلبث ان ايقنت انه مشل الكولونيل تماما، لا يعيرها أذناً صاغية، وأن كليهما أن صيغ من معدن واحد لا تنفذ منه خوالج المودة والتآلف. . . وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرف لا هي ولا غيرها كنه تلك الاحاديث التي يتبادلانها في المسبك، الا أنها قدرت انهما العضوان الرحيدان في الاسرة اللذان يبدر ان بينهما رابطة وثيقة . . .

وحل اليوم الحادي عشر من اكتبوبر والكبولونيـل لا ينسى هذا اليـوم

ماعاش، اذ هو اليوم الذي استيقظ فيه من نومه فوجد زوجته ريميديوس قد فارقت الحياة فجأة وتركت له مرارة الذكريات... ولكن وجوزيه اركاديوه الثاني لم يحضر للقائه في المسبك كعادته اخيرا، ثم تذكر انه يوم دفع الاجور في مزارع شركة الموز.. ثم بدا له ان يذهب الى الحمام، فوجد امارانتا قد سبقته اليه.. فعكف في المسبك على صنع اسماكه الذهبية، حتى اذا كانت الساعة الرابعة سمع موسيقى بعيدة صادرة عن آلات نحاسية وطبول مقترنة بصياح اطفال، ولأول مرة منذ شبابه وقع في حنين الذكريات عندما تذكر بعض ظهر ذلك اليوم الذي صحبه فيه أبوه الى مضارب والغجر على المغبخ وجرت الى الباب قائلة :

ـ هذا هو السيرك ! . .

ومن عجب ان الكولونيل اوريليانو بوينديا ذهب هو ايضا الى الشارع واختلط بالمتقرجين الذين كانوا يراقبون مرور الموكب فرأى امرأة مرتدية ملابس موشاة باللهب جالسة على رأس فيل. . . ورأى دباً في زي فتاة هولندية يواكب نغمسات الموسيقى بمغرفة وإناء حساء . . . ورأى دائبهلوانات؛ يدورون في الهواء في آخر الموكب . . ومرة اخرى ألفى نفسه في وحدته المعلفة بعد أن مر الموكب كله ولم يبق أمامه سوى الشارع المهجور الا من بعض المتفرجين المتسكمين . . . فعاد الى الداخل وقصد الى الحوش للتبول تحت شجرة الكستناء ، وفي خلال ذلك حاول أن يستعيد ذكرى السيرك ولكنه لم يستطيع . . . فجلس واضعاً راسه بين كتفيه مثل كتكوت ، وظل جامدا في مكانه مسندا رأسه الى جلع الشجرة . . . ولم تعثر خرجت سانتا صوفيا بيدال لإلقاء القينانية بيناسترعى نظرها مشهد الجوارح المحلقة فوقه . .

الفصل الثالث عشر

تصادف وقوع اجازة وميم » الاخيرة في فترة الحداد على الكولونيل اوريليانو بوينديا، فإن البيت الموصد الابواب والنوافذ ليس بالمكان الملائم لإقامة الحفلات. . . كانوا يتكلمون همسا، ويأكلون سكوتا، ويرددون الصلوات والادعية ثلاث مرات يوميا . . . وكانت فرناندا هي التي فرضت صرامة الحداد، متأثرة بما أبدته الحكومة من تكريم لذكرى عدوها الراحل . . . وعاد اوريليانو الثاني للنوم في البيت الكبير اثناء اجازة ابنته، ولا بد أن فرناندا قد اوفت بمقتضيات الزوجية ، اذ وجدت وميم » في العام التالي اختاً لها وليدة تم تعميدها وتسميتها على خلاف رضة فرناندا باسم وأمارانتا اورسولا » . . .

لقد أتمت وميم » دراستها ونالت دبلوما يقرر أنها عازفة وكلافيكورد » متخصصة في حفل رسمي اقترن بانتهاء فترة الحداد، وكان ذلك ايذانا بانحتتام مرحلة الطفولة وانتقالها الى مرحلة الشباب... أما الحقيقة فإن وميم » التي كانت تعاني الامرين من تزمت امها وتحكمها في كل تصرفاتها والتي كانت في دخيلتها مطبوعة على حب المرح والانطلاق، لم تختر هذا التخصص الا استرضاء للام، خصوصا وان الراهبات لم يمنعنه باعتباره ملهاة بريئة موروثة من الماضي ... وفعلا كان ذلك ثمنا لحريتها المنشودة، اذ اصبحت فرناندا مزهوة ببراعة ابنتها في العزف حتى لم تعد تمانع بعد انتهاء فترة الحداد في استقدام صديقات وميم » الى البيت وفي قضائها معهن لفترة بعد الظهر في المروج والبساتين، وفي ارتياد السينما مع ابيها اوريليانو الثاني وبعض السيدات الفضيلات طالما كان الفيلم المعروض مما يجيزه الاب

انطونيو ايزابيل.. وفي خلال فترات الاسترواح هذه تكشفت ميول «ميم» على حقيقتها... اذ كانت سعادتها قائمة على النقيض من تطرف أمها وأنظمتها الصارمة: على الحفلات الصاخبة، والثرثرة بأحاديث العشاق، والخلوات الطويلة مع صاحباتها حيث تعلمن التدخين، وحيث امتدت ايديهن الى شراب مسكر من عصير القصب أفضى بهن الى التجرد من الملابس واستعراض اعضاء الجسد في تلك الخلوات...

إن «ميم» لن تنسى قط تلك الليلة التي عادت فيها الى البيت بعد قضاء ساعتين مشهودتين في مخدع صديقتها تضحكان بلا حساب وتذرفان اللمع من الخوف، لتجد فرناندا وأمارانتا تتناولان طعام العشاء دون تبادل للكلام... لقد راعها مشهدهما ذاك حتى بذلت جهدا كبيرا لئلا تصارحهما بحقيقة شعورها حيالهما وتقذف في وجهيهما تزمتهما وفقر مشاعرهما وأوهام عظمتهما المصطنعة... والواقع ان «ميم» عرفت منذ ثانية اجازة لها أن اباها يقيم في البيت الكبير ستراً للظواهر فقط... ولمعرفتها بأطوار امها، فقد بدا لها أن أباها محق في مسلكه... ولم تتمالك في جلستها هذه الى بدا لها أن أباها يدور مما شربته أن بدرت منها ابتسامة خبث ودهاء أذ فكرت في مدى الفضيحة التي كانت تحدث لو أنها صارحت الاثنتين بحقيقة خواطرها... وإذا فرناندا التي فطنت لحالها تقول لها:

ماذا جرى ؟ . .

فأجابت دميم ي:

- لا شيء. . اكتشفت الان فقط الى اي حد احبكما ! . . .

إن امارانتا قد ريعت مما انطوى عليه هذا التصريح من كره دفين... أما فرناندا التي تأثرت به فقد كان جزعها هذه الليلة لا حدود له عندما استيقظت «ميم» في منتصف الليل وهي تشكو من صداع حاد عنيف وقد

في القيء . . . فسارعت الى اعطائها زيت خروع ووضعت ته على معدتها ومكعبات ثلج على رأسها، والزمتها الفراش مدى يام كانت تقتصر في خلالها على الغذاء الذي وضعه الطبيب الفرنسي الوافد والذي قرر بعد الفحص مدى ساعتين انها تشكو من داء غير معهود في امراض النساء . . . ولم يكن أمام وميم » التي انهارت كيل شجاعة كانت عندها الا ان تصمد الى النهاية . . . الا اورسولا التي كانت رغم عماها المطبق محتفظة بحيويتها وشفافيتها . . فهي وحدها التي عرفت حقيقة التشخيص، اذ قالت :

- بقدر ما يصل اليه علمي، فإن هذا هو ما يحدث للسكاري. . .

ورغم ذلك فإنها نبلت هذه الفكرة، بل انبت نفسها للتفكير فيها. . . أما اوريليانو الثاني فقد شعر بوخز الضمير عندما رأى حالة ابنته، وأخذ على نفسه عهدا بأن يوليها رعايته في المستقبل وهكذا كانت بداية تلك الصحبة الودودة بين الاب والابنة، تلك التي خلصته الى حين من اثقال مجونياته، وكفلت للفتاة ان تتحرر من عين فرناندا الدائمة اليقظة، ودرأت عنهم جميعا تلك الازمات العائلية التي كان محتما ان تحدث في المستقبل . . فكان يصحبها الى السينما او السيرك، وأخرجها من غرفة نومها الكالحة التي كانت حبيسة فيها منذ أول طفولتها، وأعد لها غرفة نوم اخرى وثيرة الاثاث مزودة بكل ادوات التجميل والعطور للمرأة العصرية . . ولقد روعت فرناندا حقا عندما شاهدت هذا المخدع ، بيد أنها كانت موزعة الجهد في تلك الايام بين رعاية طفلتها الوليدة وأمارانتا اورسولا » وبين اطباء خارج ماكوندو كانت تراسلهم سرا لاستشارتهم في امور صحية تعنيها . . .

وهكذا فإنها عندما لمست هذا التواطؤ وهذا التوافق بين الاب والابنة، كان الوعد الوحيد الذي استخلصته منه هو ألا يأخذ دميم ، أبدا الى دار بيترا كوتيس... ولم يكن لهذا من موجب، لأن العشيقة كانت في ضيق واستياء

من هذه الصحبة بين عشيقها وابنته بحيث لم تكن تريد أن يكون لها شأن بالفتاة... ولكن لعلمها بطبيعة اوريليانو الثاني وفرط ثقتها في مبلغ سلطانها عليه، فإنها لم تنفذ ما كان ينشاه من اعادة صندوقي ملابسه المتجولين الى البيت الكبير، واستبقتهما لديها الى حين يعود اليها مستكيناً منزلفاً ...

وكان بين صديقات «ميم » ثلاث فتيات امريكيات نشأت صداقة بينهن وبين فتيات ماكوندو. . . وكانت احداهن باتريشيا براون ابنة مستر براون من مديري شركة مزارع الموز، الذي اعرب عن امتنانه لما لقيه من كرم الضيافة في بيت اوريليانو الشاني، بدعوة وميم ، الى دارة للمشاركة في الحفلات الراقصة أيام الاحاد، وهو المكان الوحيد الذي يختلط فيه الاجانب الوافدون بالاهلين. . . ولكن ما أن سمعت فرناندا بهذا حتى هاجت وماجت واستنجدت بأورسولا لولا أن هذه رأت، بعكس ما كانت فرناندا تتوقع، انه لا مأخذ على وميم، في الذهاب الى الحفلات الراقصة الخاصة هذه ومصاحبة فتيات امريكيات من سنها. . . بل إن «ميم» خصصت حفلًا عزفت فيه على والكلافيكورد ، فاستأثرت بأشد الاعجاب، مما هيأ للأم ان تهدأ في النهاية وتطيب خاطرا. . . وبعدها كانت تندعي الى حفلات السباحة اينام الاحاد وتناول الغداء مرة مي الأسبوع. وقد أبدت بـراعة في السبـاحة ولعب التنس وتعلم اللغة الانجليزية، حتى أن اوريليانــو الثاني ابتــاع لها داشرة معارف انجليزية مصورة من ستة اجزاء كانت «ميم » تطلع عليها في وقت فـراغها ـ الأمر الذي باعد بينها وبين الخلوات الماضية مع صاحباتها للثرثرة بأحاديث العشاق ومكاشفة بعضهن البعض بما لا يباح. . . بل إنها استنكرت مغمامرة السكر الماضية وعدتها من قبيل الطفوليات ولم تتردد في مكاشفة والدها بها، فأغرق في الضحك وامتدح شجاعتها في الصدق، وطلب منها وعـدا بأن تخبره يوم أن تقع في الحب بنفس الصراحة والصدق هذين. . .

هكذا رد نضج «ميم» الوثام والسكينة الى البيت الكبير، ومكن

اوريليانو الشاني من أن يكرس وقتا اكثر لبيترا كوتيس، وإن غدا الآن اكثر اعتدالاً بعد الوعكة الصحية التي ألمت به. . .

ثم قطع هذه السكينة وفاة امارانتا فجأة . . . وسرعان ما عاد الاضطراب الى البيت الكبير . . . وكانت «ميم » تعزف «الكلافيكورد » في حفل خاص خارجي عندما أبلغت النبأ ، فقطعت الحفل وعادت بسرعة الى البيت ، لتجد والدها اوريليانو الثاني يشق طريقه بين جمهور المعزين ليلقي نظرة على جثة العدواء العجوز بوجهها الممتقع الكالح ويدها المعصوبة بالسواد منذ مغامرتها المغرامية الفاشلة إثر انتحار بترو كريبسي ، وقد سجيت في الفراش ملفوفة في الكفن الفاخر الذي تأنقت في اعداده . . .

ولم تعد اورسولا تقوم من مكانها مرة اخرى بعد أيام الحداد التسعة، وتولت سانتا صوفيا بيدال العناية بها. . . وكانت متعلقة بأسارانتا اورسولا الصغيرة حتى علمتها القراءة . . . وفي اعتكافها هذا الذي فرضته المائة عام ونيف من عمرها، تيسر لها من الفراغ ما اصبح يمكنها من التسمع والإحاطة بكل ما يسدور في البيت، حتى كمانت أول من لاحظ بلوى «ميم» الصامتة . . . فاستدعتها اليها وقالت لها :

ـ نحن الان وحدنا، فاعترفي لجدتك الكبرى العجوز بما يقلقك. . .

فتحاشت «ميم» الحديث بضحكة قصيرة... ولم تلح عليها اورسولا، ولكنها استخلصت ما اكد شكوكها بعد ان كفت «ميم» عن زيارتها... كانت تعرف أن «ميم» تستيقظ في ساعة ابكر في الصباح من عادتها، وأنها لم تكن على استقرار وهي تنتظر ساعة الخروج المعهودة، وأنها كانت تمضي الليالي بطولها وهي تروح وتجيء في غرفة النوم المجاورة... وكان واضحا كل الوضوح ان «ميم» كانت منغمسة في شؤون خفية وأمور مقلقة قبل فترة طويلة من تلك الليلة التي اقامت فيها فرناندا البيت وأقعدته بعد أن ضبطتها تقبل رجلا في السينما...

والواقع أن فرناندا رغم انشغالها بشؤونها الخاصة والبيتية لم تلبث هي الاخرى ان استرعى انتباهها انحياز وميم ، الى الصمت العميق، وبوادر الحدة الفجائية، واختلال المزاج، والسلوك المتناقض من جانب فتاتها، حتى قررت في النهاية ان تسهر عليها وتراقبها سرا. وقد توسلت في هذا بالحدر حتى لقد تركتها تمارس حريتها المحدودة في الاختلاف الى حفلات السرقص والسباحة لكي لا تثير ارتيابها . . . الى أن كانت ليلة قالت فيها وميم ، انها ذاهبة الى السينما مع أبيها . . . ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى سمعت فرناندا صخب احدى الحفلات التي درج زوجها اوريليانو الشاني على إقامتها في بيت عشيقته بيترا كوتيس مقترنة يقصف الالعاب النارية وعزف الأكورديون . . وسرعان ما قامت فرناندا الى ملابسها وقصدت من فورها الى دار السينما، واستطاعت في ظلام المقاعد ان تعرف ضحك فورها الى دار السينما، واستطاعت في ظلام المقاعد ان تعرف ضحك ابنتها . . إن وقع المفاجأة على نفسها حال دون أن تبين الرجل الذي كانت ابنتها تقبله، ولكن صوته المتهدج سرى الى سمعها رغم جلبة الضحك واللغط وهو يقول لها :

ـ أنا آسف يا حبيبتي ! . .

وفي الحال انتزعت «ميم» من مكانها دون أن تقول شيئا، وعرضتها لمهانة المرور بها في الشارع تحت انظار اصحاب الدكاكين، ثم حبستها في غرفة نومها...

وفي الساعة السادسة من بعد ظهر اليوم التالي عرفت فرناندا صوت الرجل الذي جاء لزيارة «ميم»... كان شاباً اسمر شاحباً، تشف عيناه السوداوان عن الاكتئاب، وتشيع في وجهه سمات حالمة تكفي لكي تجعل أية امرأة اقل صلابة من فرناندا تفهم بواعث ابنتها في التعلق به... وكان يرتدي بذلة رثة من التيل وحذاء لم يفلح الطلاء المتراكم في اخفاء ترقيعه، وقبعة من الخوص اشتراها منذ عهد قريب... وبدا أنه في كل حياته الماضية

لم يشعر بوجل ورهبة كاللذين كان يشعر بهما في هذه اللحظة، ولكن كان به من الكرامة والاعتداد ما نفى عنه المهانة، وإن نال منهما ما بدا من تلوث يديه وأظافره بآثار قدرت منها فرناندا انه ليس اكثر من ميكانيكي . . . وقد صح ظنها اذ لمحت في صدر قميصه شارة العاملين في شركة الموز . . .

ومهما يكن فإن فرناندا لم تدع له فرصة للكلام. . . بل إنها لم تدع له سبيلًا حتى للدخول من الباب الذي اصطرت بعد قليل الى اغلاقه اذ امتلأ البيت بفراش اصفر. . .

قالت له:

ـ اذهب أ . . . لا حق لك في الحضور وزيارة الناس الشرفاء ! . .

كان يدعى موريشيو بابيلونيا... ولد ونشأ في ماكوندو وعمل مساعد ميكانيكي في جراجات شركة زراعة الموز... وقد التقت به «ميم» مصادفة عصر يوم عندما ذهبت مع صاحبتها باتريشيا الاميركية لاستحضار سيارتها للنزهة بين البساتين.. ولما كان السائق الخاص مريضا فقد تهيأت الفرصة لميم لجلوسها الى جانب موريشيو بابيلونيا وتلقي الدرس الاول في تعليمها قيادة السيارات... ثم تلته دروس اخرى...

ويـوم أن ذهبت «ميم» الى السينما مع والدهـا شاهـدت مـوريشيـو بابيلونيا جالسا في مقعد غير بعيد، ولاحظت انه ظل طول الوقت منصرفا عن متابعة الفيلم، متجها بكليته نحوها. . .

لقد صعقها هذا الشاب واكتسح قلبها اكتسناحا. . . ولم تعبأ بوضعه المتواضع . . . وتكررت لقاءاتهما بمعزل عن أعين الرقباء . . وانما استرعى نظرها تلك الفراشات الصفراء التي كانت تحلق لدى ظهور مورشيو بابيلونيا ، ولكنها قدرت أن لها ارتباطا به على نحو ما . . .

وتكررت اللقاءات، والخلوات، على مدار الايام والاســابيع، الى ان

كانت تلك الليلة التي فاجأتهما فرناندا فيها في دار السينما. . .

في أعقابها شعر اوريليانو الثاني بوقر باهظ يثقل ضميره، وزار وميم » في غرفة نومها حيث حبستها فرناندا، واثقا أن «ميم » سوف تكاشفه بسرها على ما تعاهدا عليه. . . بيد أنها أنكرت كل شيء وأبدت من التباعد ما جعله يرى أن كل رابطة بينهما قد انتهت وأن ما حسبه صحبة ومشاركة بينهما إنما كان وهما مضى . . . وهكذا ترك الموقف كما هو، على أمل أن احتجازها في غرفة النوم سوف يكون فيه ختام متاعبها

ولم يبدر من ناحية « ميم » ما ينم عن أي ابتشاس. . . وكان الشيء الوحيد الذي حير اورسولا بعد شهرين من العقاب هو أن « ميم » لم تعد تأخذ الحمام في الصباح مثل الباقين ، بل في السابعة مساء . . . وكانت الظاهرة الغريبة هي أن الفراش الأصفر كان يجتاح البيت عند الأصيل . . . وفي كل ليلة عندما كانت و ميم » تعود من الحمام كانت ترى فرناندا في حالة حنق وهي تقتل الفراش بمبيد حشري . . . وكانت تسمعها تقول :

هذا شيء فظيع ! . . . سمعتهم طول حياتي يقولون ان الفراش في الليل، يجلب الشر ! . . .

وذات ليلة دخلت فرنائدا الى غرفة وميم ع بينما كانت في الحمام فوجدتها مملوءة بالغراش الى حد عجزت معه عن التنفس.. فاختطفت اقرب قطعة قماش أمامها لهش الفراش، وإذا قلبها يكاد يجمد من الرعب، اذ سرعان ما ربطت بين حمامات ابنتها المسائية وبين دواء الإجهاض الذي تدحرج من القماش على الأرض...

لم تنتظر فرناندا لحظة اخرى. . . وفي اليوم التالي دعت عمدة ماكوندو الجديد لتناول الغداء، وكان مثلها من اقليم المرتفعات وقد طلبت منه ان يقيم حارسا على الحوش الخلفي لشكها في وجود لصوص يسرقون

اللجاج... وفي نفس الليلة صرع الحارس موريشيو بابيلونيا برصاصة وهو يرفع البلاط للتسلل الى الحمام حيث كانت دميم ، تنتظره على أحر من الجمر غير عابئة بالعقارب والفراش، كما كانت تفعل كل ليلة طوال الاشهر القليلة الماضية... ان الرصاصة التي استقرت في عموده الفقري اقعدته الفراش بقية حياته... وقد مات بالشيخوخة في عزلته دون أن يبوح بشيء، تعذبه الذكريات والفراش الاصفر، مدموغا بأنه لص دجاج...

الفصل الرابع عشر

إن الأحداث التي كان مقدراً أن توجه الى ماكوندو ضربة قاصمة لم تلبث أن بدت بواكيرها حينما جيء بمولود « ميم بوينديا » الى البيت الكبير . . .

كان الموقف الشعبي مزعزعاً الى حد أن الناس لم يكن لديهم الاستعداد الكافي للزج بأنفسهم في فضائح شخصية، وهكمذا استطاعت فرناندا أن تعتمد على جو عام مكنها من ابقاء الطفل مخفياً عن العيان وكأنه لم يوجد قط. . . ولقد اضطرت الى قبوله لأن الـظروف التي جيء به فيهــا جعلت رفضه أمراً مستحيلاً. . . ولم يكن أمامها مناص من احتماله ضد ارادتها طوال حياتها، إذ أعوزتها الشجاعة في اللحظة الفاصلة لتنفيل ما اعتزمته من اغراق الطفل في صهريج الحمام. . . وكذلك أغلقت عليه الباب في مسبك الكولونيل أوريليانو بوينديا. . وقد أفلحت في إقناع سانتا صوفيــا بيدال بأنها وجدته في سلة طافية في النهر. . . ولسوف تموت أورسولا قبل أن تعرف منشأه. . وصدقت (أمارانتا اورسولا) الصغيرة التي دخلت عليها المسبك وهي تطعم الطفل هي أيضاً حكاية السلة الطافية . . . ولم يعرف أوريليانو الثاني الذي انفصل عن زوجته نهائياً بوجود حفيـده إلا يعد ثـلاث سنوات من المجيء به الى البيت الكبير، إثر فرار الطفل من الأسر نتيجة سهو من جانب فرناندا، حين ظهر في مدخل البيت الكبير مـدى لحظة خاطفة عاري الجسد ملبد الشعر كمخلوق متوحش. . . وما كان لفرناندا أن تغالط نفسها وهي تعلم ان الطفل يمثل عاراً حسبت أنها تخلصت منه الى الأبد اذ اقصت ابنتها عن البيت . . .

فعندما حملوا موريشيو بابيلونيا من البيت وقد تحطم عموده الفقري، يضعت فرناندا خطة رتبت تفاصيلها بكل دقة مستهدفة ازالـة كل اثىر لتلك الكارثة.. ودون ما استشارة لزوجها حزمت حقائبها ووضعت لإبنتها الملابس الضرورية في حقيبة صغيرة وذهبت اليها في غرفة نومها قبل وصول القطار بنصف ساعة وقالت لها :

ـ هيا بنا . . .

لم تبادرها بأي بيان أو تفسير . . . ومن ناحية : ميم ؛ فإنها لم تتوقع غير هذا. . . انها فقط لم تعرف الى أين تذهبان، بل كان سياناً لديها لو كانوا سيدهبون بها الى المجزر. . إنها لم تفه بكلمة واحدة ولن تفوه بكلام مدى حياتها، منذ اللخظة التي سمعت فيها صوت العبار الناري في الحوش وصيحة الألم التي اقترنت بها صادرة من موريشيو بابيلونيا. . . وعندما أمرتها أمها بالخروج من غرفة نومها لم تمشط شعرها ولم تغسل وجهها، ودلفت معها الى القطار وهي تمشى كمن يمشى في نومه، ولم تلاحظ حتى الفراش الأصفر الذي ما فتيء يصاحبها. . . ولم تعرف فرناندا قط ولا حاولت ان نعرف إن كان ذلك الصمت المطبق وليد تصميم جازم أو ان الفتاة قد أصيبت بالخرس من وطأة الفاجعة. . . وظل ذلك حالها اثناء السرحلة الطويلة في القطار وفي السفينة النهرية التي اقلتهما الى تلك المدينة البعيدة المقائمة وراء التلال. . . وغداة وصولهما صحبتها فرناندا الى مبنى قاتم عرفت فيه « ميم » الدير الذي ربيت فيه لكي تصبح ملكة، وعندها فقط أدركت انهما وصلتا الى خاتمة المطاف. . وبينما كانت فرناندا مجتمعة بشخص في المكتب المجاور، وقفت « ميم » تنتظر في بهو الاستقبال وهي لا تكف عن التفكيـر في موريشيو بابيلونيا، الى أن أقبلت راهبة مبتدئة موفورة الحسن من غرفة المكتب وبيدها حقيبة ملابسها الصغيرة، فأخذت بيدها دون توقف قائلة:

_ تعالي معي . . .

وكانت آخر مرة رأتها فيها فرناندا وهي تمشي الى جانب الراهبة عندما أغلق الباب الكبير خلفها. . . وفي كل ذلك لم تكف و ميم ، لخظة عن التفكير في موريشيو بايبلونيا وهالة الفراش التي تلاحقه، ولن تكف عن هذا التفكير طوال حياتها . . حتى ذلك اليوم البعيد من أيام الخريف عندما توفيت بالشيخوخة وقد تغير اسمها وحلق شعرها ودون ما كلمة واحدة فاهت بها . . في مستشفى قاتم بمدينة كراكاو . . .

وعادت فرناندا الى ماكوندو في قطار يحرسه جنود البوليس المسلحون... ولاحظت أثناء الرحلة جو التأزم الذي كان يسود الركباب، والاستعدادات العسكرية في البلدان القائمة على طول الطريق، مما استشفت منه قرب وقوع أحداث خطيرة.. بيد أنها لم تعرف حقيقة الموقف إلا عند وصولها الى ماكوندو، حيث علمت ان جوزيه اركاديو الثاني شقيق زوجها التوأم يقوم بتحريض عمال شركة زراعة الموز على الإضراب... فلم تتمالك فرناندا ان قالت لنفسها:

- هذا ما كان ينقصنا. . فوضوي في العائلة ! . .

والواقع ان جوزيه اركاديو الشاني كان بعد المصادمات الأولى بين الشركة الأجنبية وبين العمال المطالبين بتحسين اوضاعهم الاجتماعية قد استقال منها منهماً الى جانب العمال . . . وعلى الأثر اتهم بأنه عميل لمؤامرة دولية ضد الأمن القومي . . وذات ليلة في اسبوع اتسم بالشائعات المبلبلة للأفكار نجا بمعجزة من اربع رصاصات اطلقها عليه مجهول وهو يغادر احد الاجتماعات السرية . . وكان الجو السائد طيلة الشهور التالية بالغ التأزم الى الاجتماعات الحست به حتى وهي في ركنها المظلم بالبيت الكبير، وبدا لها أنها تعيش مرة اخرى في حياة المخاطر عندما سلك ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا مثل هذه المسائك المهلكة . . . وقد حاولت ان تكلم جوزيه اركاديو الثاني ناصحة و محذرة و ، غير ان اوريليانو الثاني أخبرها ان احداً اصبح لا

يعرف مكانه منذ الليلة التي تعرض فيها للاعتداء على حياته. . . فما كان من أورسولا إلا أن هتفت قائلة :

ـ مثل أوريليانو تماما! . . كأن التاريخ يعيد نفسه! . .

أما فرناندا فكانت معرضة عن أحداث تلك الأيام. . . فلم يكن لها أي اتصال بالعالم الخارجي منذ تلك المشادة العنيفة التي حدثت بينها وبين زوجها بعد ان قررت وحدها مصير ابنتها بإدخالها الدير. . . وكان أوريليانــو الشاني على استعداد لإنفاذ ابنته بمساعدة البوليس اذا لزم الأمر، بيد ان فرنانــدا أطلعته على أوراق تثبت ان « ميم » دخلت الــدير بمحض ارادتهــا الحرة . . . والواقع ان و ميم ، وقعت مرة على وثيقة تتضمن هذا المعنى ، وقد فعلت هذا بنفس اللامبالاة التي كانت منها عندمسا اقتيدت الى هدا المصير. . . ومع أن أوريليانو الشاني لم يؤمن بمصداقية هذا الإجراء وشرعيته، إلا أنه وجد فيه ما يريح ضميره، لكي يعود دون ما وخز من ضمير الى حظيرة بيترا كوتيس والى لياليه وحفلاته الصاخبة الماجنة. . . وأما فرناندا التي اعارت أذناً غير صاغية لقلاقل البلدة وتنبؤات أورسولا المتوجسة، فلم تلبث أن مضت في خطتها الشاملة الى النهاية، اذ كنبت الى ابنها « جوزيه أركاديو، البعيد في المدرسة العليا والذي كان يوشك على التخرج في دراساته اللاهوتية تبلغه فيها ان اخته (ميم) قد توفيت الى رحمة الله نتيجة لعدوى وباثية . . . ثم عهدت بابنتها الصغيرة (أماراننا أورسولا » الى رعاية سانتا صوفيا بيدال جدتها. . . وبعد ذلك تفرغت لمراسلاتها مع اطبائها الخصوصيين طالبة تحديد موعد لإجراء عملية استئصال لمذلك المورم الذي شخصوه في الرحم. . غير انهم ردوا عليها مستصوبين ارجاء العملية بالنظر الى حالة الاضطرابات المشتدة في ماكوندو. . . ولكنها عادت تخسرهم في رسالة جديدة أن الموقف ليس بالخطورة التي تصوروها، وأن كل ما يحدث هو نتيجة تهـوس من جانب شفيق لـزوجها تـورط في هذه الأعمـال بعد أن

كان يضيع وقته في مصارعة الديوك وما الى ذلك من العبث . . .

وظلت الشهور تمضي وفرناندا في هذا التعارض بينها وبين الأطباء الى ان جاء ذلك الاربعاء الحار الذي أقبلت فيه راهبة مسنة تطرق الباب ومعها سلة صغيرة. . . وعندما فتحت سانتا صوفيا بيدال الباب حسبت القادمة تحمل هدية وحاولت ان تأخذ منها السلة الصغيرة التي كانت مغطاة بمفرش مطرز جميل . . . غير أن الراهبة حالت دونها قائلة إن عندها تعليمات دقيقة بأن تعطي السلة شخصياً وبصورة سرية الى و الدونا فرناندا ديل كاربيو دي بوينديا » . . كان في السلة ابن و ميم » المولود . . . وقد أبلغتها رئيسة الدير ومربيتها الروحية السابقة في رسالة خاصة أنه ولد منذ شهرين ، وأنهم تصرفوا من تلقاء أنفسهم فسموه أوريليانو ، باسم جده ، نظراً لأن أمه ثم تفتح فمها لتخبرهم برغبتها في هذا الشأن . . . ولقد ثارت فرناندا في دخيلتها ضد هذه الخدعة القدرية ، بيد أنها سيطرت على أعصابها لإخفاء شعورها عن الراهبة ، وقالت لها باسمة :

ـ سنقول لهم إننا وجدناه في سلة طافية في النهر. . .

فقالت الراهبة:

ـ لن يصدق أحد هذا. . .

فردت فرناندا قائلة:

- اذا كانوا قد صدقوه في الماضي، فلم لا يصدقونه الان ؟ [. .

وتناولت الراهبة طعام الغداء في البيت انتظاراً لعودة القطار. وعملاً بالتوجيهات التي صدرت اليها، لم تذكر شيئاً عن الطفل، ولكن فرناندا عدتها شاهداً غير مرغوب فيه على عارها، وتحسرت على انقراض تلك العادة التي كانت متبعة في العصور الوسطى، من شنق الرسول الذي يحمل انباء مشؤومة! . . وعند هذا الحد قررت ان تغرق الطفل في الصهريج حالما ترحل الراهبة، غير أن قلبها لم يكن بهذه القوة، وآثرت ان تنتظر صابرة الى

أن تسنح لها الفرصة المواتية للمخلاص منه . . .

وكان أوريليانو الصغير قد أتم العام الأول من عمره عندما اشتدت الأزمة بين العمال وبين شركة زراعة الموز الى حد اعلان الإضراب الذي تطور الى أعمال للعنف وإتلاف للمزارع . . . وبقي الموقف على تأزمه حتى أصدرت السلطات المحلية بيانا دعت فيه العمال الى الاجتماع في ماكوندو للاستماع الى القائد العسكري والمدني للاقليم الذي سيصل في اليوم التالي للتوسط في الخلاف الناشب ووضع حد له بما يرضي الفريقين . . .

وكان جوزيه اركاديو الثاني بين الجماهير التي احتشدت في ميدان المحطة والتي قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثة آلاف... ولاحظ أن القوات قد حاصرت المكان مزودة بمدافع رشاشة... وما أن انتصف النهار حتى سرت شائعات تقول ان القائد قد اجل حضوره الى اليوم التالي... وبعدها اعتلى قائد القوة المنصة وأعلن في الميكروفون نص الأمر الصادر من الحاكم العسكري يصف المضربين بأنهم مجموعة من المشاغبين وأنه خول القوات اطلاق النار عليهم اذا لم يبادروا بالتفرق ...

وفي غمار الهياج والهرج الذي ساد على الأثر لم يستطع احد ان يعرف على وجه التحديد كيف بدأ اطلاق النار وكيف اصبح الميدان كله ساحة اختلط فيها الحابل بالنابل وتدافع الناس في كل مكان يلتمسون النجاة بأنفسهم من وابل الرصاص . . .

وبعدها استمر تعقب زعماء الإضراب واقتناصهم واحداً بعد الآخر . . .

وكان جوزيه أركاديو الثاني إثر افلاته مختناً في غرفة مالكويداس عندما طرق الباب ليلًا بكعوب البنادق ودخل ستة جنود بقيادة ضابط لتفتيش البيت بحثاً عن الهارب والمطر يقطر من ملابسهم في إبان عاصفة مطيرة استمرت

أياماً وليالي بعد جفاف طويل. . وكان أوريليانو الثاني موجوداً بعد ان عاقه المطر الغزير عن الانتقال الى بيت عشيقته. . . ودون ما كلمة اخذوا يفتشون البيت غرفة غرفة من قاعة الاستقبال الى المطبخ . . . وقد استيقظت أورسولا عندما سلطوا الضوء عليها، فلم تكـد تتنفس اثناء عملية التفتيش، وجعلت اصابعها على شكل صليب أخذت توجهه الى حيث كانوا يوالون تفتيش بقية الغرف. . . وفي خلال ذلك استطاعت سانتا صوفيا بيدال تحذير ابنها جوزيه اركاديو الثاني حيث كان نائماً في غرفة مالكويداس، بيد أنه رأى أنها جاءت بعد فوات الأوان وأنه يستحيل عليه الهرب. . . وبعد أن أغلقت عليه الباب بىالقفل لبس قميصه وحـذاءه وجلس على حـافـة السـريــر الصغيــر منتـظوأ حضورهم. . وفي تلك اللحظة كانوا يفتشـون غرفـة المسبك. . . فقـد أمر الضابط جنوده برفع القفل وسلط ضوء مصباحه بحركة شاملة في أرجاء الغرفة، ولما رأى الدواليب الزجاجية وزجاجات الأحماض سأل أوريليان الثاني ان كان يشتغل بسبك المعادن، فأجاب أن هذا مسبك الكولونيل أوريليانو بوينديا. . . فهز الضابط رأسه هزة العارف وتناول اناء كان به مجموعة من الاسماك الذهبية الصغيرة، وبعد ان فحصها ملياً قال وقد هزته عاطفة انسانية:

فأعطاه اوريليانو الثاني ما طلب. . . ووضع الضابط السمكة في جيب قميصه قائلاً :

ــ هذا تذكار جميل. . . ان الكولونيل أوريليانو بوينديا كــان واحداً من عظماء رجالنا . . .

ومع ذلك فإن هذه البادرة الانسانية لم تغير من سلوكه الوظيفي وعنــد

باب غرفة مالكويداس التي أعيد اغلاقها بالقفل حاولت سانتا صوفيا بيدال التعلق بأمار أخير، فقالت:

- لم يسكن أحد في هذه الغرفة منذ عشرات السنين . . .

ولكن الضابط امر بفتحها، وسلط ضوء مصباحه عليها. . وأبعسو أوريليانو الثاني وأمه عيني أخيه جوزيه أركاديو الثاني في اللحظة التي مر فيها شعاع الضوء على وجهه، وشعرا بأن النهاية قد حانت . . . بيد ان الضابط استمر في فحص الغرفة بالمصباح ولم يبد منه اهتمام بأي شيء . . . وكان جوزيه أركاديو الثاني جالساً على حافة الفراش على استعداد للذهاب وقد اشتدت على وجهه علائم الرصانة والسهوم . . . ووقف الضابط برهة موجها نظره الى الفراغ الذي كانت فيه الأم وابنها يبصران فيه جوزيه اركاديو الثاني وقد أدركا ان الضابط كان ينظر ايضاً دون ان يبصره . . وما لبث الضابط ان أطفأ المصباح وأغلق الباب ، ثم قال لرجاله :

- من الــواضع ان احــداً لم يكن في هذه الغــرفة منــذ مائــة سنة على . الأقل. . ولا بد ان فيها ثعابين ايضاً . . .

منذ هذه اللحظة زاد جوزيه اركاديو الثاني اقتناعاً بأن غرفة مالكويداس هي حصنه الحصين وملافه من الخوف في العالم الخارجي المضطرب بالقلاقل والحروب، ففي جوها الخارق عمي الضابط عن رؤيته، وفي رحابها بات يشعر بالسكينة والراحة النفسية التي طالما افتقدهما طوال حياته الماضية. وهكنذا كرس جوزيه اركاديو الثاني نفسه لللاطلاع على مخطوطات مالكويداس ومحاولة اكتشاف رموزها. ولقد اصبح صوت سقوط المطر معهوداً في سمعه، وكان الشيء الوحيد الذي يقلق عزلته هو تردد أمه سانتا صوفيا بيدال عليه بالطعام، فطلب منها ان تضعه على حافة النافذة وتغلق الباب بالققل . . . ثم نسيته العائلة، بما فيها فرناندا التي لم

تمانع في تركه هناك بعد ان وجدت ان الجنود رأوه دون أن يبصروه . . . وبعد ستة أشهر رفع أوريليانو الثاني القفل عن الباب طلباً لشخص يتحدث اليه الى ان ينقطع هطول المطر المتواصل . . . وما كاد يفتح الباب حتى صدمته الروائح المنبعثة من الغرفة ووجد أخاه جوزيه أركاديو الثاني الذي عراه الصلع ما يزال عاكفاً على قراءة المخطوطات ومحاولاً فك طلاسمها في وهج خفي نوراني يتخللها . . . ولم يكد يرفع عينيه حتى سمع صوت فتح الباب، بيد ان تلك النظرة كانت كافية لكي يعرف فيه اوريليانو الثاني مصير جده الأكبر الذي كان ذلك مآله . . .

كان جوزيه أركاديو الثاني لا يفتأ يردد هذه العبارة :

- كانوا اكثر من ثلاثة آلاف في ميدان المحطة. . . لقد حصدهم السرصاص حصداً، ونقلت جثثهم في القطار حيث ألقي بهم ليلاً في البحر! . .

الفصل الخابس عشر

انهمرت الأمطار في ماكوندو. . . وظلت تنهمر مدى أربع سنوات، وأحد عشر شهراً ، وثلاثة أيام . . .

وكانت تحدث فترات يقل فيها انهمار المطر الى رذاذ، فكان الناس يخرجون من بيوتهم احتفاء به، ثم لا يلبثون ان يجدوها فترة صحو عابرة يتضاعف بعدها انهمار المطر...

وكانت السماء ترسل عليهم عواصف مدمرة، ومن الجانب الشمالي كانت تهب اعاصير تنتزع السقوف وتقوض الجدران وتستأصل زراعات الموز من منابتها. . . وفي البيت الكبير اضطروا الى حفر قنوات لتسريب مياه الأمطار الى الخارج والعمل على تجفيف الأرضيات تخلصاً من الضفادع والقواقع المتخلفة، والأسماك أحياناً . . .

وفي خلال ذلك احتبس اوريليانو الثاني في البيت بعد ان كان قد عرج عليه لبعض شأنه، مؤملًا ان يتحسن الطقس ليعود الى بيت عشيقته بيترا كوتيس . . .

ومضى عام على هذه الحال تشاغل خلاله بالانهماك في اصلاح ما أفسده المطر من أبواب ونوافذ البيت وسائر أثاثه دون ان يتوقف انهمار الأمطار . . .

وفي خلال هذه الفترة وقع ذلك التهاون الـذي كان من جرائه ظهـور اوريليانو الصغير في مدخـل البيت وما أدى اليـه من تصرف جـده اوريليانـو

الثاني على هويته... فقص شعره، وكساه بعد عري، وعلمه ألا يخاف من الناس. وبعد فترة وجيزة بدا واضحاً أنه من سلالة بوينديا بما لا يدع مجالا لأي شك: بعظام الخدين العالية، وسمات الانطواء والعزلة... وكان ذلك مبعث ارتباح فرناندا.. فلو كانت تعلم ان اوريليانو الثاني سيسلك هذا المسلك وسيسر بصيرورته جداً، لما عرضت نفسها لكل ما تعرضت له من عناء وكرب... وأما و أمارانتا أورسولا ، الصغيرة التي بدلت أسنانها فقد وجدت في ابن اختها لعبة تلهو بها في مواجهة متاعب الامطار... ولم يلبث اوريليانو الثاني ان تذكر دائرة المعارف الانجليزية المصورة التي بقيت سالمة في غرفة و ميم ، القديمة ... فبدأ يطلع الطفلين على الصور، خصوصاً في غرفة و ميم ، القديمة ... فبدأ يطلع الطفلين على الصور، خصوصاً ومشاهير الناس ... ولما كان لا يعرف اللغة الانجليزية ولم يكن بوسعه ان ومشاهير الناس ... ولما كان لا يعرف اللغة الانجليزية ولم يكن بوسعه ان يعرف الا على المدائن المشهورة وأبرز زعمائها، فقد كان يخترع الأسماء والأساطير اختراعاً لإشباع فضول الطفلين الذي لا يرتوي .

وكانت فرناندا تعلم يقيناً أن زوجها ينتظر تحسن الأحوال الجوية لكي يعود الى معشوقته بيترا كوتيس... ومع ذلك لم تتضايق لأن علتها التي كانت تخفيها عن كل انسان وهي تورم. الرحم والتي كانت تراسل بسببها اطباءها الخصوصيين البعيدين عنها، أصبحت حائلًا بينها وبين زوجها.. والآن وقد أدى استمرار هطول الأمطار الى قطع كل سبل التراسل والاتصال، فلم يكن أمامها سوى الاعتصام بالصبر والانتظار...

وزادت الأحوال الجوية سوءاً حتى لم يعد أحد يخرج الى الشارع... وبلغ من تشاؤم أورسولا ان قىالت إنها لا تنتظر سوى انقطاع الأمطار لكي تقضي نحبها وتستريع ...

والواقع أن حالة الشوارع ازعجت اوريليانو الثاني، وتــزايد انــزعاجــه

بشأن مواشيه، حتى اضطر أخيراً أن يغطى رأسه بمشمع ويلذهب الى بيت بيترا كوتيس. . . فوجدها في الحوش غارقة في المياه الى وسطها وهي تحاول تعويم جثة حصان . . . فساعدها بواسطة رافعة حتى أمكن دفع الجثة الى تيار الوحل المتدفق ليحملها بعيداً . . وكان هم بيترا كوتيس منذ بدأت الامطار هو تطهير الحوش من الحيوانات الميتة. . وخلال الأسابيح الأولى كانت تبعث برسائل الى أوريليانو الشانى لاتخاذ الاجسراءات العاجلة التي يقتضيها الموقف بعد ان زاد تفاقماً، فكان يرد عليها بأنه لا لزوم للعجلة، وان الوقت سيكون متسعاً للتفكير في ما يجب عمله بعد ان ينكشف الجو: .وكان مما قالته ان مراعى الخيل قد غمرتها المياه، وإن المواشى تهرب الى المناطق المرتفعة حيث لا يوجد ما تأكله وحيث تكون تحت وحمة الوحوش والامراض. . . والواقع ان بيترا كوتيس كانت ترى الحيوانات تنفق جماعات، وكانت تعمد الى ذبح بعضها وهي غارقة في النوحول. . . بـل رأت وهي عاجزة عن أي فعل ان الفيضان كان يستأصل بكل قسوة. ثروة كانت معدودة في وقت من الأوقات أضخم ثروة في ماكوندو، ثم ذهبت بدداً. . . وعنــدما قرر أوريلبانو الثاني في النهاية أن يذهب اليها ليرى ما هو حادث، لم يجمد سوى جثة حصان وبغل قذر في الإسطبل. . . ولما رأت ببترا كوتيس تلقته بنظرة لا هي نظرة دهشة أو فرحة أو استياء، وابتسمت سخرية قائلة :

ـ جئت في وقتك ا . .

لقد تقدمت بها السن، وبدت كتلة عظام وجلد، وغدت عيناها الوحشيتان مستأنستين مكتئبتين بطول النظر الى الامطار... ولبث اوريليانو الثاني في بيتها أكثر من ثلاثة أشهر، لا لأن المقام فيه كان أفضل من بيت اسرته، ولكن لأنه احتاج الى كل هذه المدة لكي يحزم امره ويضع قطعة الشمع الواقية فوق رأسه مرة اخرى!... وخلال الاسبوع الأول من اقامته اعتاد ما فعلته الأمطار والزمن بمحاسن عشيقته، وشيئاً فشيئاً غدا يراها كما

كانت تبدو له في ماضي ايامها المليئة بالمغريات، ولكنها صدته عنها برفق، مذكرة اياه بما فعلت بهما الأيام والسنون، مما لا يسدع مجالاً لأي عبث أو فتون . . .

وعاد أوريليانو الثاني الى البيت الكبير مع حقائب ملابسه وقد اقتنع بأنه ليست فقط أورسولا هي التي كانت تنتظر انقطاع الأمطار لكي تموت، بل كل سكان ماكوندو. . . فقد أبصرهم في الطرقات جاثمين في ردهات بيوتهم بأذرع مشبكة وأعين محدقة في الأمطار التي لا تنقطع، حتى ما عاد لتعاقب الأيام والأسابيع والشهور حساب عندهم . . . ولكن الطفلين تلقيا عودته بالاحتفال والفرح، ومرة اخرى كان يصحبهما الى غرفة « ميم » ليريهما داثرة المعارف الانجليزية المصورة ويلاعبهما باللعب المتخلفة في الغرفة . . . وظلت الأيام تمضي على هذه الوتيرة الى ان جاء يوم قالت له فيه زوجته فرناندا إنه لم يبق في « الكرار » من القوت إلا ثلاثة أرطال من اللحم المقدد وكيس أرز واحد . . . فقال لها :

ـ وماذا تريدين مني أن أفعل من أجل هذا ؟ . .

فردت فرناندا قائلة:

- لا أعرف. . هذا اختصاص الرجال . . .

فقال أوريليانو الثاني :

- لا بأس. . . سنفعل ما يمكن عندما يتكشف الجو. . .

كان اوريليانو الثاني اكثر اهتماماً بدائرة المعارف المصورة منه بالشؤون المعيشية، حتى عندما راض نفسه على الاكتفاء بمزقة لحم وقليل من الأرز في طعام الغداء. . وكان يقول لزوجته :

ـ لا يمكن ان تستمر الأمطار الى آخـر حياتنــا. . . أما الآن فيستحيــل عمل أي شيء ! . .

وبقدر ما كان رصيد و الكرار ، يتناقص ويتضاءل، كان اهتياج فرناندا يشتد ويتزايد، الى ان تفجرت غضبتها المكظومة حتى صارت كالسيل الدافق، اذ بدأت ثورتها العارمة في الصباح وامتدت طيلة النهار وهي تدور في أرجاء البيت شاكية انهم ربوها في بيت أبويها كملكة لكي تصبح في النهاية خادمة في بيت مجانين مخبولين، مع زوج كسول عربيد يستلقي على ظهره انتظاراً لخبز ينزل عليه من السماء، بينما تكد هي وتكدح طول النهار لتدبير شؤون بيت مفكك الأوصال لا صلاح لأمره...

أما اوريليانو الثاني فقد ظل يستمع الى هديرها الساعات وهـو جامـد المملامح وكانه أصم. . . ولم يرد عليها ولم يقاطعها حتى كاد النهار ان ينصرم، وعندها لم يطق صبراً، قال لها :

ـ أرجوك أن تسكتى ! . .

ولكن فرناندا بالعكس زاد صوتها ارتفاعا قائلة:

ـ لا سبب يدعوني الى السكوت! . . من لا يريد ان يسمعني فليذهب الى أي مكان آحر! . . .

عندئذ فقد أوريليانو الثاني كل سيطرة على اعصابه، وفي سورة الاحتدام التي تملكته راح يحطم أصص الزهور والأطباق والكؤوس وكل ما يمكن تحطيمه، حتى تناثر الحطام في كل مكان... بل امتدت سورته الى الصور الزيتية المعلقة فمزقها تمزيقاً، والى أواني المطبخ فهشمها تهشيماً... ثم غسل يديه، وألقى قطعة المشمع الواقي على رأسه وخرج... وقبل منتصف الليل عاد ومعه مزق من اللحم المقدد، وبعض أكياس الأرز والقمح، وعنقود موز أعجف.. وبعدها لم يعد البيت يشكو نقصاً في القوت ...

وفي خلال ذلك كان الصغيران امارانتا أورسولا وأوريليانو يتذكران

الأمطار كشيء جالب للبهجة. . وعلى الرغم من صرامة فرناندا فإنهما كانا يلهوان بفقاقيع المياء في الحوش ويقتنصان السحالى ويقومان بتشريحها بدعوى أنها تعمل على تسميم الحساء بالغبار الذي تنشره اجنحة الفراش، وذلك في غفلة من فرناندا وسانتا صوفيا بيدال. .

وكانت أورسولا هي لعبتهما المفضلة . . . كانا ينظران اليها على أنها وعروس ۽ كبيرة مكسورة ينقلانها من مكان الي آخر. . . وكادا مسرة أن بفقاًا عينيها بمقص تقليم الزهور كما كانا يفعلان بالضفادع. . وما كـان لشيء ان يستهويهما ويمتعهما سوى شطحات شرود العقل التي كانت تلم بها في العام الثالث من تساقط الأمطار المستمر، وفيها كانت تفقد الإحساس بالواقع وتخلط الزمن الحاضر بعهود حياتها الماضية، اذ يمضى الموقت وهي تبكي أقرباء لها ماتوا منذ أزمان غابرة، وتحسب الحفيدين أبناءها المغيبين تحت الثرى . . ثم كانت تعود الى الصحو والرشد فتذكر رجلًا جاء الى البيت الكبير بتمثال للقديس يوسف طالباً حفظه الى أن ينقطع المطر فيعود لاسترداده . . فكان من جراء ذلك ان تذكر اوريليانو الثاني الثروة المدفونة في مكان لا يعرفه سوى أورسولا، ولكن كل ما توسل به من الاسئلة والمناورات لم يفلح في استدراجها الى البوح بالسر، اذ إنها برغم خبالها قد بقيت لها بارقة تعقل جعلتها تحرص على الاحتفاظ بالسر الا للرجل الذي يقدم الدليل على أنه هو صاحب الكنز الذهبي الدفين. . . بل لفد بلغ من فكرها وتدقيقها أنه عندما لقن اوريليانو الثاني واحداً من بطانـة مباذلـه ومجونـه للتقدم الى العجوز على أنه هو صاحب الثروة، لم تزل اورسولا بهذا الدعى تستجوب وتضيق الخناق عليه بأسثلتها الماكرة حتى تخلى اوريليانو الثاني في النهايـة عن المحاولة . . .

وكما ان لكل شيء بدايته، فلكل شيء في الحياة نهايته. . . فذات يوم من أيام شهر يونيو بعد تلك السنوات المعليرة الطوال، بدأت الأمطار تقلى:

والسحب تنقشع، وبدا واضحاً بين لحظة وأخرى ان الجويوشك ان يتكشف. . . وهذا ما حدث. . ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة اضاءت السماء باشعة قرمزية لشمس مترنحة، وبعدها لم يسقط المظر مرة أخرى مدى عشر سنوات . .

وكانت ماكوندو قد استحالت الى خوائب. . . فقي الشوارع تناثرت بقايا الأثاث المحطم وهياكل الحيواتات. . وغدت البيوت التي بنيت على عجل للعاملين في زراعات الموز قاعاً صفصافاً بعد أن فر منها سكانها، وقوضت شركة زراعة الموز ذاتها منشآتها ومرافقها . أما الناجون من الكارثة من سكان ماكوندو الأصليين فقد وجدهم أوريليانو الثاني عند خووجه أخيراً لتفقد الأحوال جالسين في وسط الشوارع يستمتعون بدفء الشمس، فرحين باستعادة البلدة التي ولدوا فيها رغم الدمار الذي حل بها . . .

وكانت بيترا كوتيس هي أكثر سكان البلدة تجلداً... فقد شاهدت اللمار الشامل لإسطبلاتها، واكتساح العاصفة لمخازن حبوبها، بيد أنها أفلحت في استبقاء بيتها قائما... ولما رأت تقاعس أوريليانو الشاني عن نجدتها عندما استغاثت به أكثر من مرة، أقسمت على ان تعمل لاستعادة الثروة التي بعثرها عشيقها ثم أتى عليها الفيضان... ولقد كان عزمها في هذا القرار راسخاً الى حد أنه عندما زارها أوريليانو الثاني بعد ثمانية أشهر من بسالتها الاخيرة اليه، ألفاها ممتقعة خائرة العينين، ولكنها كانت تكتب ارقاماً في قطع صغيرة من الورق لاستئناف عملية يانصيب و الكارتيلا ۽ السالفة... لقد دهش أوريليانو الثاني حقا، أما هي فقد بدا لها لفرط ما رأته من علائم التشعث في مظهره ان القادم ليس عشيقها، بل شقيقه الترام... وقال يعبر لها عن دهشته:

- أنت مجنونية . . . إلا اذا كنت ستعسرضين في الكسارتيسلا . . . المظام إ . .

وعندئذ طلبت منه أن ينظر في غرفة النوم.. فرأى أوريليانو الشاني بغلاً.. كان جلده ملتصفاً بعظامه مثل صاحبته، بيد أنه كان حياً ومتماسكاً مثلها أيضاً.. لقد اطعمته بيترا كوتيس من غضبها، وعندما لم يبق لديها قمح ولا عليقة ولا جلور، آوته في غرفة نومها، وجعلت تطعمه قماش الشيت، ثم السجاد، ثم الستائر المخملية، ثم مظلة السرير الموشاة بخيوط الذهب.. وكلها من مخلفات غرفة النوم الفاخرة التي افتن أوريليانو الثاني في تأثيثها بها عندما كان في أوج النشوة والافتتان ..

الفصل السادس عشر

كان على أورسولا ان تبذل جهد كبيراً لكي تفي بنبوءتها أن تموت بعد انقطاع الأمطار. . . فإن موجات الصحو والشفافية التي كــانت تلم بها نــادراً إبان فصل الأمطار، غدت كثيرة بعد ان بدأت الرياح الجافة تهب على البلدة وترد اليها بعض الذاكرة. . . ولقد بكت أورسولا الى حد العويل والندب عندما اكتشفت ان المطفلين أوريليانــو وأمارانتــا أورسولا جعــلا منها العــوىة يتقاذفانها على مدار ثلاث سنوات ونيف. . . ولأول مرة منذ وفإة ابنتها أمارانتا قامت من الفراش بغير مساعدة من أحد لكي تشترك في حياة الأسرة من جديد، وكان لها من روح العزم في قلبها الذي لا يقهر ما جعلها تدرج في أرجاء البيت رغم عماها مستهدية بحواسها الأخرى. . . ومنذ قومتها تلك لم تسمح لنفسها بلحظة راحة، بل جعلت كل افراد الأسرة يشاركونها في تنظيف البيت وإصلاح ما أفسدته الأمطار من متاع وأثاث. . الى أن وصل بها المطاف الى غرفة مالكويداس المغلقة بالقفل من الخارج تنفيذاً لمطلب جوزيه اركاديو الثاني من أمه سانتا صوفيا بيدال ألا تفتحها إلا بعمد وفاته. . . فقد أصرت على أن يفتحوا لها الغرفة خصوصاً وقد تذكرت انه في احدى الليالي المطيرة. . جماءت شلة من الجنود وفتشت البيت بحثاً عن جوزيـه أركاديـو الثاني ولم تستطع اكتشاف وجوده. . . ولما نزلوا على اصرارها كادت تسقط في المدخل من فساد الهواء لولا ان تعلقت بالبـاب، هاتفة وكأنهـا رأت ما بالداخل:

ـ الرحمة يا ربي!.. علمتك طول حياتي النظافة يـا بني، فإذا بـك تنتهي مثل.خنزير !...

كان جوزيه أركاديو الثاني لا يزال عاكفاً على فك طلاسم المخطوطات. . . وكان الشيء البادي منه هو الشعر القليل المتناثر في رأسه وأسنانه المخضرة وعيناه الجامدتان. . . وعندما سمع صوت جدته الكبرى ادار رأسه نحو الباب وحاول الابتسام، ولم يسعفه من الكلام سوى العبارة التي طالما سمع اورسولا ترددها :

ـ وماذا نتوقع ؟ . . الزمن يمر . . .

لكنها لم تبال بقوله، وراحت توبخه كأنه طفل، وأصرت على أن يأخلا حماماً ويحلق ويمد يده للمساعدة في اصلاح ما حل بالبيت. . . والواقع ان فكرة خروجه من الغرقة التي أعطته الامان والسكينة قد أفزعته، حتى لقد صاح بأنه لا توجد قوة بشرية يمكن ان تحمله على الخروج لأنه لا يريد أن يرى القطار المحمل بالموتى الذي غادر ماكوندو ليلا متجها الى البحر. . . وعند ثذ فقط أدركت أورسولا انه يعيش في عالم من الخيالات اكتف من عالمها وأشد عزلة من عالم جده الأكبر وجوزيه اركاديو بوينديا » عندما أطبق عليه الجنون . . . وهكذا تركته في الغرفة ، ولكنها اصرت على ان يرفعوا المقفل عن الباب وأن يجعلوه نظيفاً لاثقاً مثلما كان حال جده الأكبر تحت شجرة الكستناء . . وأول الأمر فسرت فرناندا تلك الجلبة كنوبة من خيال الشيخوخة ، وكان من الصعب ان تكتم سخطها . . . ولكن حدث في ذلك الشيخوخة ، وكان من الصعب ان تكتم سخطها . . . ولكن حدث في ذلك ماكوندو من روما قبل ان يرسم في منصبه الديني بعمورة نهائية ، فكان في هذا النبا ما أفعم نفسها حماسة حتى راحت تروي الزهور أربع مرات في اليوم ، لكيلا ينطبع في نفس ولدها اثر سيء عن البيت . .

وكان أوريليانو الثاني الذي اعاد صناديق ملابسه المتجولة الى دار بيترا كوتيس يجاهد ما وسعه الجهد لكيلا تتضور أسرته جوعا. . . فقد استطاع هو وبيترا كوتيس بعد عرض البغل في يانصيب د الكارتيلا ، أن يشتريا بعض حيوانات اخرى، مما مكنهما من ادارة عملية يانصيب جديدة كان اوريليانو خلالها يطوف بالبيوت لبيع التذاكر، وإن نال ذلك من صحته حتى ذهبت عنه البدانة والتورد وغدا أقرب الى النحول والضعف، ولكنهما كانا يقتران على نفسيهما لتوفير أسباب المعيشة الضرورية لأهل البيت الكبير. . .

وقد أدى انهماك اوريليانو الثاني في عمليات اليانصيب هذه الى اهمال رعاية الطغلين. . فعمدت فوناندا الى إلحاق النتها و امارانتا اورسولا » بمدرسة خاصة صغيرة لا يجاوز عدد تلميذاتها ست بنات، ولكتها رفضت السماح لحفيدها أوريليانو الصغير (ابن ميم) بالذهاب الى مدرسة عامة. . . . فقد اعتبرت انها تسامحت أكثر من اللازم اذ تركته يبارح الغرفة. . وفضلاً عن ذلك فإن المدارس في ذلك العهد لم تكن تقبل سوى الابناء الشرعيين، في حين قد ورد في شهادة ميلاده التي جاءت معه من الدير أنه لقيط. . . وهكذا بقى أوريليانو الصغير معزولًا تحت رحمة سانتا صوفيا بيدال الطيبة ونـزوات اورسولا المتقلبة بين الصحو والخيال، لا يتعلم في دائرة البيت الضيقة سوى ما يتلقاه من جدتيه . . . كمان في الحق مخلوقا نحيلا رقيقا شديد حب الاستطلاع الى حد يضايق الكبار، لا تكف عيناه عن الاختلاج. . . وفي ويعذب الحشرات في الحديقة. . . ولكن عندما ضبطته فرنانـدا يوساً يغمع بعض العقارب في علبة لدسها في فراش أورسولا، حبسته في غرفة ﴿ ميم ﴾ القديمة حيث اصبح يمضى ساعات العزلة في تصفح صور دائرة المعارف. . وعندما وجدته اورسولا في هذه الغرفة عصر ذات يوم، وعلى الرغم من أنها كانت معه مراراً، فإنها سألته من يكون، فأجابها:

ـ انا أوريليانو بوينديا . . .

فردت عليه قائلة:

ـ تمام . . . والآن جاء الوقت لكي تتعلم سبك المعادن . . .

لقد خلطت بينه وبين ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا في صغره، فإن الرياح الحارة التي جاءت في أعقاب الفيضان وكانت تجلب لها فترات الصحو والإدراك قد ولت. . . ولم تسترد عقلها بعد ذلك قط. . . وأصبحت تجلس في فراشها تكلم نفسها وتبتعث سير الموتى من أقربائها ومعارفها وتخلط الماضي بالحاضر على نحو مثير للرثاء . . وغدت تزيد انكماشاً وضآلة بمرود الأيام حتى اصبحت في الشهبور الأخيرة مشل ثمرة ذابلة في فواغ جلبابها . . وذات يوم ظلت جاملة علة أيام حتى راحت سانتا صوفيا بيدال تهزها لكي تقتنع بأنها على قيد الحياة، ثم أجلستها في حجرها وسقتها بضع ملاعق من ماء محلى بالسكر . . ومرة أخرى أخفاها أوريليانو وأمارانتا أورسولا في دولاب في الكرار، حيث كان يمكن ان تنهشها الفتران . . .

ثم وجدوها ميتة صباح يوم الجمعة العزينة . . . وكانت آخر مرة سألوها ان تقدر عمرها التقريبي ايام وجود شركة زراعة الموز، قدرته في ما يتراوح بين مائة وخمس عشرة سنة وبين مائة واثنتين وعشرين . . . وقد دفنوها في تابوت لا يزيد حجمه عن حجم السلة التي جاء فيها اوريليانو الصغير، ولم يشهد جنازتها الا نقر معدود من الناس، ومرجع ذلك الى قلة من يتذكرونها من أهل البلدة، ثم الى شدة القيظ في ذلك اليوم الى حد ان الطيور في اضطرابها كانت تترامى على جدران البيوت وتشق ستائر النوافذ لكي تموت افواجاً في غرف المنوم

وبوفاة أورسولا ارتد البيت الكبير مرة اخرى الى حالة من الإهمال لا يمكن انقاذه منها حتى بعزيمة قوية مشل عزيمة و امارانتاأورسولا ع. . تلك التي تهيأ لها بعد تعاقب اعوام كثيرة وبعد ان اصبحت امرأة عصرية سعيدة خالية من العقد، ان تفتح ابواب البيت ونوافذه على مصاريعها لكي تطرد عنه المدمار وتعيد للحديقة نضارتها وتستأصل النمال التي اصبحت تسعى في

المدخل في وضح النهار، وإن حاولت عبثاً ان تبعث في البيت روح الضيافة الذاهبة

كانت تلك كلها هي الصورة بعد الاسطار والفيضان. . . وفي خلال ذلك كانت فرناندا مشغولة بمرضها الذي لم تكاشف احدا من اهل البيت بحقيقته ترفعاً واستعلاء، وإن كان الباقون منهم على قيد الحياة لا يعيرونهما اهتماماً. . . فإن سانتا صوفيا بيدال كانت تمضي ايام شيخوختها الهادثة في طهى الطعام القليل الذي يأكلونه، متفرغة أكثر الوقت لـرعايـة ابنها جـوزيه اركاديو الشاني . . . وكانت (امارانتا اورسولا) التي ورثت بعض محاسن ريميديوس الجميلة تقضى وقتها الذي كانت تضيعه من قبل في تعذيب اورسـولا في استذكار دروسها وقد ابدت في هذا من التقدم والتفاني ما جعل أوريليانو الثاني يعد بإيفادها الى مدينة بروكسل لإتمام تعليمهما. . . وكانت المرات القليلة التي زار فيها البيت الكبير، من اجل « امارانتا اورسـولا ». . فقد أصبح بمضى الوقت غريباً عن زوجته فرناندا، وغدا أوريليانو الصغير اكثر انطواء وهو يقترب من دور المراهقة . . . وكان أوريليانو الثاني يؤمل ان يلين قلب فرناندا بتقدمها في السن حتى يتهيأ للطفل ان يندمج في حياة بلدة اصبح اهلها لا يتشددون في شيء مثل الاهتمام بمنبته. . . بيد ان اوريليانو الصغير ذاته كان يفضل العزلة ولا يبدي اقل رغبة في معرفة العالم الذي يبدأ من باب الشارع في البيت الكبير... وعندما عملت اورسولا على فتح باب غرفة مالكويـداس اخد اوريليانو الصغيـر يتلصص بنظره الى داخلهـا، ولم يعرف احد في اية لحظة توثقت الصلة بينه وبين جوزيه اركاديو الثاني حتى استحالت الى مودة مشتركة . . . وقد اكتشف اوريليانو الثاني هذه المودة بعد وقت طويل من بدئها، حين وجد الصبي يردد ما كان يقوله جوزيه اركىاديو الثاني عن مذبحة القتل في ميدان محطة سكة الحديد ونقل القتلي بالقطار الليلي لإلقائهم في البحر. . . لقد ردد الصبي هذا الكلام اثناء الجلوس الي

الماثلة بين افراد الأسرة بلهجة إنسان ناضيج، مؤكداً ان هذا من تدبير شركة الموز خلاصاً من الاستجابة لمطالب العمال. . . ولما كانت فرناندا مقتنعة بما جاء في البيانات الرسمية من دحض لهذه الدعوى، فقد بدا لها ان الصبي ورث الآراء المتطرفة عن الكولونيل اوريليانو بوينديا، وانتهرته لكي يصمت . . . اما أوريليانو الثاني فقد عرف في كلام الصبي تأثير انحيه التوام . . . وعلى الرغم من ان الجميع كانوا يعدون جوزيه اركاديو الثاني من المجانين، فإنه كان اكثر اهل البيت تعقلاً اذ ذاك . . . فقد علم اوريليانو الصغير القراءة والكتابة، وكان يشركه في محاولة فك طلاسم المخطوطات ويعمل على توسيع دائرة معلوماته . . .

وتتعاقب الأيام والشهور على هذا النحو، الى أن يأتي يوم يستيقظ فيه أوريليانو الثاني في منتصف الليل وهو يشعر باختناق شديد في حلقه وكأنما انشب فيه سرطان بحري مخالبه. . . وكانت هذه اول بادرة أحس فيها بقرب دو أجله . . . لكنه لم يخبر أحدا . . كان يعذبه في ذلك الحين ان يموت قبل ان يحقق وعده بإرسال و أمارانتا اورسولا » الى بروكسل لإتمام تعليمها . . وهكذا راح يجهد نفسه في العمل بما لم يفعل مثله في كل حياته الماضية . . وبدلاً من السعي الى توزيع يانصيب كارتيلا واحدة في الاسبوع ، اتجه الى توزيع ثلاث كارتيلات . . . فكان يبدأ في ساعة مبكرة من الصباح طوافه بالبلذة الى ساعة متأخرة من الليل ملحاً على الناس لشراء تذاكر اليانصيب، وهو في ذلك يتعرض لنوبات الألم الفتاكة في حلقه الى حد يقعده في حالة يرثى لها في الطريق . . . وكثيرا ما غذا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم يرثى لها في الطريق . . . وكثيرا ما غذا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم عملية عرض الحنازير والمعز وما اليها في يانصيب الكارتيلا لن تكفي لإرسال ابنته الى بروكسل . . . وهكذا هذاه طول التفكير الى عرض الاراضي البور التي أتلفها الفيضان في هذا اليانصيب . . . وعندما عرض هذه الفكرة على التي أتلفها الفيضان في هذا اليانصيب . . . وعندما عرض هذه الفكرة على التي أتلفها الفيضان في هذا اليانصيب . . . وعندما عرض هذه الفكرة على التي أتلفها الفيضان في هذا اليانصيب . . . وعندما عرض هذه الفكرة على

عمدة البلدة رحب بها، وتكونت على الأثر روابط لشراء تداكر بقيمة مائة جنيه للتذكرة الواحدة بيعت كلها في أقل من أسبوع . . وفي ليلة السحب اقام الفائزون حفلًا كبيراً عـزف فيه اوريليانو الشاني على الأكورديـون . . لآخر مرة . . .

ولم ينقض شهران حتى ذهبت و امارانتا اورسولا و الى بسروكسل. . . . وقد اعطاها أوريليانو الثاني كل النقود التي جمعها من يانصيب الاراضي و مضافاً اليها ما ادخره في الماضي ، مما عده كافيا للوفاء بنفقات الدراسة والمعيشة . . وكانت فرناندا في أول الأمر ضد الرحلة بعد ان روعها رحيل ابنتها الى بروكسل القريبة من باريس مدينة اللهو والمفاتن ، لولا ان الأب انجيل الكاهن الجديد زود الفتاة ، بتوصية الى دار للإقامة مخصصة للفتيات تشرف عليها راهبات . وقد اعدت لها فرداندا مع الملابس والمتاع الضروري حزاما من القنب تحفظ فيه نقودها وشددت عليها ألا تخلعه حتى الضروري حزاما من القنب تحفظ فيه نقودها وشددت عليها ألا تخلعه حتى الفروعلى فراش الموت ، لم تبرح ذاكرته صورة فتاته وهي تطل من نافلة وهو على فراش الموت ، لم تبرح ذاكرته صورة فتاته وهي تطل من نافلة ولكن دون دموع ولا ضعف ، مما دل على قوة عزم مبكر . . . وظلا واقفين على الرصيف يلوحان مودعين وقد تأبطا ذراعيهما لأول مرة منذ الزواج ، الى على الرصيف يلوحان مودعين وقد تأبطا ذراعيهما لأول مرة منذ الزواج ، الى ان غاب القطار عن الانظار . .

وفي التاسع من شهر اغسطس، قبل ورود الرسالة الاولى من بروكسل، كان اوريليانو الصغير يتحدث مع جوزيه أركاديو الثاني في غرفة مالكويداس، ودون سابق تمهيد قال له هذا :

- تذكر دائما انهم كانوا اكثر من ثلاثة آلاف رجل، وأنهم إلقي بجثثهم في البحر. .

وعلى الأثر وقع جوزيه اركاديو الثاني على ظهره فموق المخطوطات

وفاضت روحه وهو مفتوح العينين... وفي اللحظة نفسها تقريبا، وفي فراش فرناندا، كانت نهاية أخيه التوام اوريليانو الثاني، بعد المسرض الطويل المفترس الذي اكل حلقه وغيب صوته تماما في الأسابيع الأخيرة وحبس انفاسه او كاد.. وفاء بما وعد من ان يكون موته بجانب زوجته... وكانت بيترا كوتيس قد عاونته في الفترة الأخيرة في جمع ملابسه وودعته قبل رحيله من دارها دون ان تذرف دمعة واحدة، ولكنها نسيت ان تعطيه الحذاء الفاخر الذي كان يريد لبسه في تابوته... وهكذا ما ان سمعت بوفاته حتى اتشحت بالسواد ولفت الحذاء في جريدة وطلبت الإذن من فرناندا لإلقاء نظرة أخيرة على الجنة... فلم تسمح لها فرناندا بأن تطأ قدمها عتبة البيت، فقالت بيترا كوتيس مستعطفة :

- ضعي نفسك مكاني . . . تصوري مقدار حبي له بحضوري اليك والتعرض لهذه المهانة . . .

فردت عليها فرناندا قائلة:

ليست هناك مهانة لا تستحقها عشيقة. . . ولك ان تنتظري حتى يموت واحد آخر من عشاقك الكثيرين لكي تلبسيه الحذاء ! . . .

وعملًا بوصية جوزيه اركاديو الثاني الذي طالما خشي ان يدفن حياً بعد موته م متاثراً بما رآه في صغره مرة من دفن المحكوم بإعدامهم وعيونهم لا نزال مفتوحة فقد تولت أمه سانتا صوفيا بيدال حزرقبته بسكين المطبخ . . . وقد وضعت جثتا الأخوين التوأمين في تابوتين متماثلين، وهكذا تحقق في الموت عودة التماثل بينهما كما كانا حتى عهد المراهقة . . . وجاء أصحاب اوريليانو الثاني في اللهو لوداعه الأخير ومعهم إكليل زهور محفوف بشريط وردي كتبت عليه عبارة كانت شعارهم في مجونهم : « تمتع ، فالحياة قصيرة ، . . . بيد ان فرناندا التي أسخطها هذا الاجتراء على حرمة الموتي

رفعت الإكليل وألقته في القمامة. . . وفي ثنايا الهرج الذي ساد في اللحظة الاخيرة، خلط السكارى المحزونون التابوتين وهم يحملونهما، وهكذا دفن التوامان في القبرين المغلوطين . . .

الفصل السابع عشر

لم يفارق اوريليانو الصغير غرفة مالكويداس زمناً طويلًا. . . لقد لفظ عن ظهر قلب الأساطير الخرافية التي تضمنتها تلك الكتب العنيفة، من مذكرات عن علوم الجن والشياطين، ومفاتيح الوصول الى حجر الفلاسفة، وحوليات نوسترا داموس وأبحاثه. . الى غير ذلك مما جعله يبلغ سن المراهقة دون ان يعرف شيئاً عن الزمن الذي يعيش فيه، مزوداً فقط بالمعرفة الأساسية لانسان من العصور الوسطى . . وكلما دخلت عليه جدته سانتا صوفيا بيدال وجدته مستغرقاً في القراءة. . . وكانت تأتيه عنــد الفجر بـــإبريق القهــوة بغير سكر، وعند الظهر بطبق أرز وشرائح الموز المقلى، وهو الطعام الوحيد الذي كان يؤكل في البيت منذ وفاة أوريليانو الثاني. . وكانت تعمل على قص شعره، وإلباسه الملابس القديمة التي تعثر عليها بعد جعلها على مقاسه . . . وعندما نبت شاربه جاءته بموسى الكولونيل اوريليانو بوينديا والإناء الصغير الذي كان يستخدمه في حلق ذقنه . . وكان يبدو لها احياناً انه يكلم نفسه . . . اما الواقع فإنه كان يكلم طيف مالكويـداس. . . فقد حــدث ظهر يسوم متقد الحر بعد ونساة الأخوين التـوأمين ان أبصر منعكسـاً من وهج النــافذة طيف مالكويداس كما كان يتصوره. . . وقد سأله مالكويداس بعد ان رآه يراجع الحروف الأبجدية للمخطوطات كما تلقاها عن جوزيه اركاديو الثاني، عما اذا كان قد اكتشف اللغة التي كتبت بها المخطوطات، فأجاب اوريليانو:

- اللغة السنسكريتية . .

فبين له طيف مالكويداس ان ظروف عودته الى هذه الغرفة محدودة لأنه عائد في سلام الى رحاب الموت الكلي، ومن ثم سيجد اوريليانو الوقت

متسعاً لتعلم اللغة السنسكريتية خيلال السنوات الساقية على بلوغ عمر المخطوطات مائة عام، وعندها سيحين أوان فك رموزها. . وكان هو الذي دل أوريليانو على أنه يوجد في الشارع الضيق المؤدي الى النهر رجل حكيم من ابناء قطالونيا عنده مكتبة بها مفتاح اللغة السنسكريتية في كتاب مزخرف سيأتي عليه العث في مدى ست سنوات اذا لم يبادر بشرائه . . . وشد ما كانت دهشة سانتا صوفيا بيدال التي لا يدهشها شيء عندما طلب منها اوريليانو ان تجيئه بالكتاب الذي يمكن العشور عليه بين مجلدي و تاريخ أورشليم و أشعار ميلتسون » في أقصى الجانب الأيمن للرف الشاني من رفوف وه أشعار ميلتسون » في أقصى الجانب الأيمن للرف الشاني من رفوف مبلغا من بيع الاسماك اللهبية الصغيرة السبعة عشر الباقية في المسبك، مبلغا من بيع الاسماك اللهبية الصغيرة السبعة عشر الباقية في المسبك، والتي لم يكن احد غيرها هي وأورسولا يعرف مكانها منذ الليلة التي فتش الجنود فيها البيت . .

وتقدم اوريليانو في دراسة اللغة السنسكريتية فيما كانت زيارات طيف مالكويداس تتناقص ويزيد الطيف شحوبا في ضوء الظهيرة الشديد. وآخر مرة شعر اوريليانو بوجود الطيف عندما همس في سمعه كيان غير منظور بهذه العبارة : (لقد توفيت بالحمى في رمال سنغافورة » . . . وبعدها لم تعد الغرفة في منعة من الأتربة والحرارة وحشرات الترميت والنمل والعث، وهي كفيلة بإحالة المخطوطات الى نشارة . . .

ولم يعد البيت يعاني من نقص القوت. . . فغداة يحوم وفاة اوريليانو الثاني ، جاء رجل من بطانة السكر الذين احضروا الاكليل غير المحتشم ليدفع الى فرناندا نقودا كانت دينا عليه لأوريليانو الثاني . . . وبعد هذا كان يأتي كل يوم اربعاء صبي ومعه سلة طعام كانت تكفي قوت أسبوع . . ولم يعرف احد قط ان هذه المؤونة كانت ترسلها بيترا كوتيس ، وفي ضميرها ان هذا الاحسان المستمر هو طريقة لإذلال فرناندا التي أذلتها . . . غير أن هذه

الضغينة ما لبثت ان تلاشت بمرور الايام، وبعدها استمرت في ارسال القوت من قبيل التكبر، ثم في النهاية من قبيل الرحمة. . . وكثيرا ما كانت بيترا كوتيس ـ بعد أن كانت لا تجد حيوانات لليانصيب وبعد فقد الناس الاهتمام بذلك ـ كثيرا ما كانت هي تبقى دون طعام، لكي تجد فرناندا ما تأكله، وظلت وفية لعهدها هذا الى ان رأت جنازة فرناندا تمر في الشارع . . .

وفي خلال ذلك كانت سانتا صوفيا بيدال دائبة في خدمة البيت وتنظيفه من الأتربة والعناكب والحشرات القارضة، فلا تمضي ساعات حتى يعود كل هذا إلى سيرته الأولى، الى أن شعرت في النهاية ان شيخوختها وعظامها المكدودة لن تحتمل هذا الجهد الشاق، واذا هي تحزم ما بفي لها من متاع قليل وتتأهب للرحيل عن البيت . . . وعندما سألها اوريليانو الى أين هي ذاهبة اجابته بلهجة غامضة أن لها أقرباء في بلدة ريوهاشا ستقيم عندهم، وان موهت عليه في ذلك . فأعطاها أوريليانو اوبعة عشر من الاسماك الذهبية بعد أن وجدها مصرة على الذهاب بما معها وهو لا يجاوز بيزو واحدا وبضعة سنتات . . . وبعد رحيلها لم يسمع شيء عنها بعد ذلك . . .

وعندما سمعت فرناندا برحيلها هاجت وماجت يوما بطوله... وقد اصيبت بحروق في أصابعها وهي تحاول ايقاد النار لأول مرة في حياتها، واضطرت ان ترجو اوريليانو ليريها كيف تعمل القهوة... وبمضي الوقت كان اوريليانو هو الذي يباشر شؤون المطبخ... فكانت فرناندا تجد افطارها معدا عندما تقوم من النوم، وكانت تبرح غرفتها مرة ثانية لتجد طعامها فوق الموقد مجهزا، فتحمله الى المائدة لتجلس على رأسها في مواجهة خمسة عشر مكانا خاويا، فوق مفرش من التيل وبين الثريات...

لقد كانت فرناندا تعيش في عالم خاص بها ولا شاغل لها سوى مكاتبة ولديها وتلقي رسائلهما، حتى لم يعمد يعنيها شيء من مرور الزمن انتظارا

لعودتهما.. وعلى سبيل المثال لم تتقسايق عندما أخبرها ابنها جوزيه اركاديو بعد مضي سنوات من اعلان قرب تخرجه النهائي . انه سينتظر لإتمام دراساته في علوم اللاهوت المتقدمة، فقد سرت بهذا التأخير وسعدت به وهي تعرف الطريق الشاق الى المناصب الكهنوتية العليا.. كما كان سرورها وسعادتها بالمثل عندما اخبرتها ابنتها وأمارانتا أورسولا ، أن دراساتها سوف تطول اكثر من المقدر لها لأن تفوقها في الدرجات قد هيأ لها مزايا لم تكن في الحسبان عندما قدر والدها موقفها الدراسي . . .

وانقضت ثلاثة اعوام ونيف منذ أن احضرت سانتنا صوفينا بيدال الى أوريليانو كتاب القواعد الذي مكنه من ترجمة الصفحة الاولى.. ولم يكن هذا جهدا ضائعا، ولكنه كان خطوة اولى في طريق لم يمكن التنبوء بطوله، لأن النص الاسباني لم يفصح عن أي شيء، اذ كان مكتوبًا بشفرة خاصة تعذر على أوريليانو ان يحلها. . . غير أنه لما كان مالكويداس قد اخبره ان الكتب التي يحتاج اليها للتوصل الى اعماق المخطوطات موجودة في مكتبة القطالوني، فقد قرر أن يكلم فرناندا لكي تسمح له بالذهاب. . ولهذا قص شعره الذي طال وحلق ذقنه ولبس بنطلونا قصيرا وقميصا بياقة صناعية ورثهما ممن لا يدري، ثم جلس في المطبخ ينتظر حضورها لأخذ طعام الافطار. . لكن المرأة التي عهدها كل يوم والتي كانت ترفع رأسها شموخا وتعاليا لم تصل، وإنما جاءت امرأة عجوز ذات جمال خارق تتشح بحرملة من الفرو الثمين وتاج من الورق المقوى المذهب، وتبدو عليها علاثم انسان كان يبكي لنفسه ليلا. . . والواقع ان فرناندا منذ أن عثرت على زيها كملكة في امتعة زوجها أوريليانو الثاني راحت ترتديه مرارا رغم ما أكل منه العث. . . ولو قدر لأحد أن يراها وهي تختال أمام المرآة بهذا الزي الزائف لظنها مجنونـة. . . لكنها لم تكن. . . وإنما كانت تفعل ما فعلت للذكرى، وحيناً الى الماضي المولى، وتسرية لنفسها عن سوء حالها الراهن...

هكذا عدل أوريليانو مشفقا عن طلب الاذن منها بالخروج اذ كان مفتاح البيت لديها، وان كان بوسعه ان يتسلل خارجا وعائدا دون ان تفطن اليه، لولا أن طول سجنه في البيت وخوفه من مواجهة الناس والعالم الخارجي واعتياده طاعة الاوامر، كل ذلك قضى على روح التمرد في نفسه وفرض عليه عزلته الغريبة... وكذلك عاد الى محبسه عاكفا على قراءة المخطوطات مرارا وتكرارا، متسمعا في الليل صوت فرناندا وهي تنتحب في غرفة نومها... الى أن ذهب الى المطبخ ذات صباح لإيقاد النار كالمعتاد، فوجد الطعام الذي تركه لفرناندا بالامس لم تمسه يد... وعند ثل في غرفة نومها، وأها ممددة فوق الفراش مغطاة بحرملة الفراء وهي اوفر جمالا مما عهد وقد استحالت بشرتها الى لون العاج... ولما عاد ابنها جوزيه اركاديو بعد اربعة اشهر، وجدها على نفس تلك الصورة...

كان من المستحيل أن يتصور احد شابا اكثر منه مشابهة لأمه... كان يرتدي بذلة من الحرير وقميصا بياقة صلبة مستديرة وشريطا حريريا في مكان ربطة العنق... وكان مليء السوجه مسورده، واقسرب الى الاستسرخاء والترهل... وكان شعره الاسود اللامع الناعم مفروقا من وسط الرأس... وكان يتختم في يديه الناصعتي البياض بخاتم ذهبي مرصع بحجر من العقيق حول سبابة يده اليسرى.. وعندما فتح باب الشارع لم يحتج اوريليانو الفتى الى من يدله على أنه جاء من سفر بعيد... وما أن خطا بضع خطوات في البيت حتى فاحت منه رائحة العطر الذي طالما نثرته اورسولا عليه وهو طفل لكي تستدل من الوائحة على مكانه بعد أن كف بصرها.. وقد تقدم جوزيه اركاديو من فوره الى مخدع أمه، حيث كان اوريليانو قد تولى غلي زثبق مدى اربعة اشهر كاملة لحفظ الجثة طبقا لتعاليم مالكويداس المتوارشة.. ولم اربعة اشهر كاملة لحفظ الجثة طبقا لتعاليم مالكويداس المتوارشة.. ولم من ثنايا ملابسها مفتاح دولاب صاحبتها الخاص، ولما فتحه اخرج منه علبة من ثنايا ملابسها مفتاح دولاب صاحبتها الخاص، ولما فتحه اخرج منه علبة

صعيرة كان بداخلها الرسالة المطلوبة التي باحت فيها فرناندا بكافة الحقائق التي كانت حريصة دائما على إخفائها عنه في رسائلها اليه. . . فعكف على قراءتها واقفا بلهفة ولكن دون قلق، وما أن وصل الى الصفحة الثالثة حتى توقف وتفرس في أوريليانو بنظرة تعرف بعد النظرة الأولى العابرة، وقال له بصوت كحد الموسى :

- إذن . . أنت ابن الحرام ! . . .
 - ـ أنا أوريليانو بوينديا. . .

فقال جوزيه اركاديو :

ـ إذهب الى غرفتك ! . . .

فذهب اوريليانو، ولم يخرج ثانية حتى من باب الفضول عندما سمع صوت موكب الجنازة المحدود... وأحياناً كنان يرى من المعلج جوزيه اركاديو وهو يتنقل في البيت، ويسمع خطواته في غرقة النوم المهجورة بعد منتصف الليل، بيد أنه لم يسمع صوته مدى شهور كثيرة، لا لأن جوزيه اركاديو لم يتجه اليه أبدا بكلام، بل كذلك لأن أوريليانو نفسه لم يود أن يحدث هذا ولم يحن الوقت ليفكر في أي شيء آخر غير المخطوطات... فعقب وفاة فرناندا حمل سمكة ذهبية وذهب الى مكتبة القطالوني الحكيم بحثاً عن الكتب التي يحتاج اليها... فوجده عاكفا على منفدة مستطيلة بين أكداس الكتب العتيقة البالية فوق الرفوف وفي الاركان وهو مستغرق في الكتابة بأحرف حمراء في كراسة مدرسية مفككة الصحائف، وبدا له أبيض الشعر أزرق العينين تلوح عليه مخائل انسان مهذب قرأ كل الكتب... ولم يرفع الرجل رأسه ليرى من القادم، غير أن اوريليانو لم يجمد صعوبة في استخلاص الكتب الخمسة التي جاء يبحث عنها في الفوضى الضاربة أطنابها حوله، لأنه عثر عليها في الموضع الذي أرشده اليه طيف مالكويداس...

ودون كلمة واحدة وضع اوريليانو الكتب والسمكة الـذهبية أمـام القطالـوني الذي ما أن نظر حتى ضاقت عيناه قائلا :

_ لا بد أنك مجنون 1 . . .

بيد أنه هز منكبيه ورد اليه الكتب والسمكة الذهبية قائلا:

_ لك أن تأخذها . . . ان آخر رجل قرأ هذه الكتب اصيب بالعمى . . . وإذن فلتتدبر جيدا ما أنت فاعل

وأما جوزيه اركاديم فقد اصلح غرفة نوم اخته اميم ، وحوض الاستحمام الاسمنتي . . . وكبان ينام حتى الحادية عشرة صباحا او ما ىعدها، فيذهب الى الحمام حيث يعطر الحوض بأملاح جاء بها، ويمكث فيه ساعتين طافيا على ظهره مستمتعا بالطراوة . . . وبعد أيام قلائل من وصوله وضع جانبا بذلته الحريرية وهي الوحيدة التي جاء بها، واستبدل بها بنطلونا ضيقا وقميصا حريريا نقش فوق مكان القلب منه الحرفان الاولان من اسمه. . . ومرتان في الاسبوع كان يغسل هذا اللباس ويرتدي روب الحمام الى أن يجف، اذ لم تكن لديه ملابس غيرها. . . ولم يكن يأكل في البيت قط. . . كان يخرج بعـد أن تخف وقدة القيلولـة ولا يعود الا في وقت متـأخـر ليــلا. . . كــانت الخدعة الكبرى التي أجازها على الجميع هي دراسته للاهوت. أما الحقيقة فهي أنه لم يكد يستقر في روما حتى هجر المعهد واستمر يغذي برسائله هذه الخرافة لكي لا يخاطر بذلك الميراث الكبير الذي كان ينتظره من أمه على نحو ما كانت تمنيه به اختلاقاً هي الاخرى طبقا لطبيعتها التي كانت تجانب الحقيقة في كل شيء وتتعلق بعالم الاوهام . . . كان تفكيره منحصرا في ذلك الميراث الوهمي الذي يخلصه من البؤس وشظف العيش مع صاحبين له في غرفة على السطح . . . وعندما تلقى رسالة فرناندا الاخيرة التي أملاها عليها إحساسها بدنو الأجل، جمع ما تبقى من العز الزائف في حقيبة صغيرة عبر بها المحيط في سفينة مع مهاجرين تكدسوا فيها مثل ماشية في مجزر يأكلون

المعكرونة الباردة والجبن بالديدان... وقبل أن يقرأ وصية فرناندا في رسالتها المعطولة، وهي لم تكن أكثر من اعتراف تفصيلي ومتأخر بحقيقة الحال والبلايا الماثلة، كان أثاث البيت المحطم والحشائش البرية النامية لدى المدخل برهاناً صارحاً على أنه قد وقع في فخ لا مهرب له فيه...

وبعد عام من عودته المهيضة تلك، والتي اضطر فيها أن يبيع الثريات الفضية وغيرها مما بقيت له قيمة لكي يأكل، كانت سلواه الوحيدة في عزلته هي فتح ابواب البيت لصبية الحي لكي يلعبوا في البيت ويؤنسوا وحشته. . فكانوا يثبون فوق الحبل في الحديقة ويغنون لدى المدخل ويقومون بألعاب بهلوانية بين أثاث حجرة المعيشة الى وقت متأخر من الليل، حتى صار البيت أشبه بمدرسة داخلية مجردة من كل نظام . . . ولم ينزعج أوريليانـو من هذا الغزو طالما كانوا لا يعملون على مضايقته في غرفة مالكويداس. . . ثم حدث ذات صباح أن دفع أحد الصبية باب الغرفة، فروعهم مشهد رجل متسخ أشعر كان لا يزال عاكفا على محاولة فك طلاسم المخطوطات فوق المنضدة. . . ولم يتجاسروا على دخول الغرفة، ولكنهم مسا بـرحــوا يراقبونها. . . ومرة ألقوا فيها حيوانات حية من فوق عارضة الباب . . . وفي مناسبة اخرى سمروا الباب والنافلة حتى امضى أوريليانو نصف نهار في رفع المسامير وفتحهما . . . ولما اشجعهم عدم تعرضهم للعقاب في كل هذاء دخلوا الغرفة ذات صباح بينما كمان أوريليانو في المطبخ وهموا بإتلاف المخطوطات. . . غير أنهم ما كادوا يضعون ايديهم على الصحائف المصفرة حتى شعروا بقوة خفية تكاد ترفعهم عن الارض، الى أن عاد أوريليانو وانتزع المخطوطات من أيديهم . . . وبعدها لم يعملوا على مضايقته . . .

وكان اربعة منهم في سن المراهقة مثل جوزيه اركاديو يشاطرونه الاستحمام في الحوض، وقد توثقت بيئه وبين احدهم وهو أجرأهم أواصر الصداقة حتى كان يشاطره العبيت في البيت بعض الليالي، حيث يقضيان

الساعات في السمر والطواف بالغرف الخاوية... وذات ليلة استرعى نظرهما في غرفة أورسولا وهج أصغر منبعث من بين شقوق الارضية المتآكلة وكأن شمسا تحت الارض قد غيرت ارض الغرفة الى لوح من الزجاج... ولم تكن بهما حاجة الى اضاءة النور... كان يكفي أن يرفعا البلاط المكسور في الركن الذي كانت تنام فيه أورسولا والذي كان ينبعث منه الوهج على أشده، لكي يعثرا على الكنز السري المليء بالذهب في أكياسه الثلاثة واللي كان يتوهج مثل جمرات في الظلام...

كان اكتشاف هذا الكنز الذهبي مفاجأة مذهلة. . . وبدلا من أن يعود جوزيه أركاديو الى روما بالكنز الذي هبط عليه من حيث لا يحتسب، فإنه احال البيت الى فردوس. . . اذ اعاد تأثيث غرفة النوم بأفخر مما كانت عليه، وكسا ارضية الحمام وحوائطه بالبلاط، وملا دولاب قاعة الطعمام باللحم المقدد وعلب الفاكهة المحفوظة والمشهيات وفتح غرفة والكرار، من جديد لتخزين الانبذة والمشروبات الكحولية التي كبان يستجلبها من محطة سكة الحديد في لفائف معنونة باسمه. . وذات ليلة أولم مع الفتيان الاربعة وليمة دامت حتى الفجر... وعند الساعة السادسة صباحا قاموا بتصفية حوض الحمام من المياه وملأوه بالشمبانيا، ثم تواثبوا فيه وراحوا يسبحون مثل طيور سابحة في سماء مذهبة بفقاقيع يفوح شذاها العطر. . وقد تخلف عنهم جوزيه اركاديو عندما خرجوا من الحوض وبقى طافيا على ظهره في المياه مستغرقا في التفكير. . وعندما لحق بهم في النهايــة ألفاهم قــد اتلفوا غــرفة النوم حتى اصبحت حطاما. . فاشتد سخطه عليهم حتى طردهم من البيت وهو يشبعهم ضربا. . وبقى وحده ثلاثة أيام يعاني من ازمة ربو مستحكمة. . . ولما اشتدت عليه الازمة ذهب الى غرفة أوريليانو ورجاه ان يشتري لـ مسحوقا خاصا للاستنشاق من صيدلية قريبة . . . وكانت هي المرة الثانية التي خرج فيها أوريليانو من البيت، ولما وصل الى الصيدلية قابلته فتاة لها جمال

الافعى وأعطته الدواء الذي عاد به الى جوزيه اركاديو الـذي قدر منه هذا الصنيع، حتى أنه بعد أيام قليلة أخل بعهده لأمه وترك أوريليانو حرا يخرج من البيت كما يشاء. . . ومن عجب ان أوريليانو رد عليه قائلا :

ـ ليس لي ما أفعله في الخارج...

وبقي حبيسا في البيت، منهمكا في فك طلاسم المخطوطات ومحاولة افهم مضامينها التي ظلت رغم ذلك مستغلقة عليه. . وكان جوزيه اركاديو يجيشه ببعض اللحم المقدد والفاكهة المحفوظة، وشيء من النبيذ في مناسبتين. . . لكنه لم يهتم بالمخطوطات التي عدها من ترهات الماضي، ولكن اهتمامه غدا منحصرا في ابن اخته هذا اللذي ألفاه غزير المعلومات واسع المعرفة على نحو غريب، إذ وجده يفهم اللغة الانجليزية، الى جانب إلمامه بكل ما جاء في دائرة المعارف المصورة التي قرأ أجزاءها الستة من أول صفحة الى آخر صفحة كما يقرأ احدى الروايات. . . ومهما يكن فقد توطدت الاواصر بين هاتين الشخصيتين المنعزلتين اللتين يسري فيهما دم واحد، وهي إن لم تكن صداقة بمعنى الكلمة، فقد كانت صحبة اعانتهما على احتمال حياتهما الغريبة هذه . . .

وكان جوزيه اركاديو منذ ان طرد الفتيان من البيت ينتظر اخبار باخرة من عابرات المحيط ينوي الارتحال فيها الى نابولي قبل عيد الميلاد. . . وقد اخبر اوريليانو بهذا، بل فكر في خطة لإلحاقه بعمل لكسب قوته، اذ أن سلال الطعام قد انقطع ورودها الى البيت بعد دفن فرناندا. . .

وفي صباح يوم من سبتمبر بعد أن فرغ جوزيه اركاديو من شرب القهوة مع أوريليانو في المطبخ وكان على وشك الانتهاء من حمامه اليومي، إذ اندفع الى الحمام الفتيان الاربعة اللين طردهم من البيت، من خلال البلاط المكسور. . . وقبل أن يجد فرصة للدفاع عن نفسه قفزوا الى الحوض بكامل

ملابسهم وجذبوه من شعره وأغرقوا رأسه في المياه ممسكين بها هكذا الى أن توقفت من سطح المياه فقاقيع حشرجة الموت، وغاصت جئته الشاحبة الى قاع المحوض المعطر... وبعد ذلك اخرجوا اكياس اللهب من المخبأ الذي لم يكن معروفا لهم وللضحية... وكانت في الواقع عملية خاطفة ووحشية ومدبرة بعناية حتى كانت أشبه بعملية حربية... ولم يشعر أوريليانو بأي شيء وبابه مغلق عليه في غرفته... وعندما افتقده في المطبخ بعد ظهر هذا اليوم، ذهب يبحث عنه في كل انحاء البيت، الى أن عشر عليه طافيا فوق صفحة مياه الحوض المعطرة وقد انتفخت وتضخمت جثته... وعندئذ فقط ادرك اوريليانو الى أي حد كان قد بدأ يتعلق به

الفصل الثامن عشر

عادت « أمارانتا أورسولا » في أوائل شهر ديسمبر ـ وهي تقود زوجهـا بحبل من حرير مربوط حول رقبته . . .

ظهرت في البيت الكبير دون سابق اخطار، مرتدية فستانا في لون العاج، وعقداً من اللآلىء يكاد يتدلى الى ركبتيها، وخواتم من الزمرد والعقيق، وشعرها الطويل معقود خلف اذنيها. . . وكان الرجل الذي تزوجته منذ ستة شهور هولنديا نحيلا يكبرها سنا . . . وما كان عليها إلا أن تدفع الباب الى البهو لكي تدرك أن غيابها كان أطول وأحفل بالدمار مما كانت تتصور، حتى هتفت بلهجة كانت اكثر مرحا منها انزعاجا :

ـ يا الهي ! . . من الواضح أنه لا توجد امرأة في هذا البيت ! . .

وكانت الامتعة التي جاءت بها اكثر من ان يسعها المدخل. ففضلا عن الصندوق الكبير الذي ذهبت به الى المدرسة، جاءت بست حقائب بين الكبيرة والصغيرة، وثماني علب قبعات، وصندوق خاص به دراجة زوجها ذات العجلة الامامية الاكبر، مفككة ... بل إنها لم تخلد الى الراحة يوما واحدا بعد رحلتها الطويلة، فقد اشتملت برداء قديم وبدأت على الفور تنظيف وتجديد البيت : فطردت النمل الاحمر الذي كان قد سيطر على المدخل واستاصلت الحشائش الطويلة، وغرست الزهور في الأصص، واستعانت بفريق من النجارين والحدادين والبنائين لإصلاح الاثاث والابواب والنوافذ وسد الشقوق وطلاء الجدران، وهكذا لم تمض ثلاثة اشهر على وصولها حتى كان الانسان يتنفس من جديد جو الشباب والانتعاش الذي كان

يسود البيت الكبير في أيام العز الماضية.. والحق انها كانت ذات روح متحررة وعصرية الى حد أن أوريليانو «إبن اختها ميم» لم يعرف كيف يداري هيأته لدى مقدمها... أما هي فقد هتفت بلهجة السعادة وقد فتحت ذراعيها:

ـ مدهش ! . . مدهش ! . . انظروا كيف كبر «متوحشنا » العزيز ! . .

وقبل أن يجد فرصة لرد الفعل، كانت قد وضعت اسطوانة فوق الفونوغراف المتنقل الذي جاءت به معها واخدات تحاول تعليمه احدث خطوات الرقص. . ثم إنها حملته على تغيير بنطلونه المتسخ الذي ورثه عن الكولونيل أوريليانو بوينديا، وأعطته بعض القمصان الشبابية وحذاء بلونين، وكانت تدفعه الى الشارع دفعا عندما كان يمضي في غرفة مالكويداس وقتا أطول مما ينبغى . . .

كانت عصرية ماثة في الماثة، حتى كان من غير المفهوم ان تعود مثلها الى بلدة ميتة مثقلة بالاتربة والحر القائظ، ومع زوج كان عنده من المال ما يكفي للعيش في أي مكان في العالم وهو يحبها حبا جما جعله يسرتضي ان يقاد بطوق حريري حول رقبته ! . .

وبعد عام من عودتها، وعلى الرغم من أنها لم تفلح في اتخاذ أي اصدقاء او اقامة اية حفلات، فإن امارانتا اورسولا، ظلت على اعتقادها يأن في الامكان إنقاذ هذه البيئة التي انفردت بالعزلة وبما تعاقب ملها من كوارث... وقد حرص زوجها جاستون على عدم معارضتها، وإن كان منذ ان نزل من القطار قد أيقن أن زوجته تعلقت بسراب خادع... ولما ألفاها منهمكة في عمليات الاصلاح والتجديد، ما لبث ان تفرغ بدوره للطواف بدراجته في المنطقة لاقتناص كل ما استطاع من الحشرات المحلية وإرسالها معلبة الى استاذه السابق في التاريخ الطبيعي مجامعة ليبح، حيث كان له نشاط متقدم في علم الحشرات، وإن كانت مهنته الاساسية هي قيادة

الطائرات. . وعلى الرغم من أنه كان يكبر زوجته بخمسة عشــر عامــا على الاقل، الا أن عزمه الراسخ على توفير أسباب السعادة لها في حياتهما الزوجية هذه قد عنوضها عن فنارق السن.. وكان لقناؤهما قبيل عامين من زواجهمما، عندما اختل تـوازن الطائـرة الصغيرة ذات الجنـاحين التي كـان يستقلها فوق المدرسة التي كانت تتعلم فيها وأماراننا أورسولا ، إثر ارتطامها ببعض الاسلاك الكهرباثية العالية، مما أدى الى إصابته برضوض غير خطيرة لحسن حظه. . . ومن وقتها درج على اصطحاب وأميارانتا أ. رسيولا ، أيام العطلات من بيت الراهبات الذي كانت تقيم به، الى حيث يقضيان وقتا طيبا في ناديه الخاص. . وقد نبت الحب في قلبيهما وهما يحلقان بالطائرة أيام · الاحد على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق البراري والمروج. . . وكمانت تحدثه عن مسقط رأسها في ماكوندو مؤكدة انها اجمل بلدة في الدنيا. . . وقد فهم جاستون أنها لن تتزوجه الا أذا صحبها للإقامة في ماكوندو. . . فقبل عن طيب خاطر، كما قبل وضع الطوق الحريري في رقبته، معتقدا انها نزو؛ عابرة ستتكفل الايام بالتغلب عليها. . . غير أنه بعـد مضي عامين في مـاكونـدو، وبعدما رأى أن «أمارانتا أورسولا» ظلت هانئة سعيدة كأول يوم لـوصولهـا، دب القلق الى نفسه، خصوصاً وقد تعقب جميسع انسواع الحشسرات في ماكوندو واستوفى ارسال النماذج التي يريدها. . ورغبة منه في ملء وقت مع أوريليانو الخجول. . . وقد أصجبه منه اطلاعه الواسع، ومعرفته لا باللغة السنسكريتية فقط، بل كذلك بالانجليزية والفرنسية، وقليل من اللاتينية واليونانية القديمة. . . ولما صار اوريليانو يخرج من البيت عصر كل يوم في العهد الاخير وكانت وأمارانتا أورسولا ، تعطيه مبلغًا من النقود كـل اسبوع لمصروفه الشخصي، فبإن غرفته قد تحولت الى ما يشبه فـرعاً لمكتبـة القطالوني ..كان يقرأ بشراهة حتى وقت متأخر من الليل، ولكن أكثر مــا كان يستغرق اهتمامه هو التركيز على المخطوطات، التي كان يخصص لها معظم

ساعات الصباح... وكان بود جاستون و دامارانتا أورسولا ، الحياة العائلية ، بيد أن أوريليانو كان زاهدا، تحف به سحابة م والمخفاء كانت تزداد كثافة مع الايام... وعندما فشل جاستون في لمصادقة أوريليانو، لم يلبث ان تحول عنه لالتماس سبل اخرى قضاء وقته الطويل... ومن هنا جاءت فكرته لإنشاء خط جوي يو بالعالم المخارجي...

وفي المحق إن هذا المشروع لم يكن بالجديد عند جاستون مختمرا في ذهنه عندما التقى بأمارانتا اورسولا، فيما عدا ان التقا المخط المجوي لم يكن في ماكوندو، بل في الكونغو البلجيكي، لأسرته استثمارات قائمة. . وقد أدى زواجه وما تقرر أول الاه شهور معدودة في ماكوندو الى ارجاء تنفيذ الفكرة . . وعندما تبي مصرة على التوطن في البلدة والعمل على تحسين أحوالها، لم ي مصرة على التوطن في البلدة والعمل على تحسين أحوالها، لم ي الا أن يعيد الاتصال بشركائه في بلجيكا لتعديل المشروع وإنشاء أفي منطقة الكاريبي بدلاً من أفريقيا . . . وهكذا قام برحلات متنائية الاقليم والتقى بالجهات المسؤولة حيث حصل على التراخيص المعقود المخاصة بإنشاء المخط المجوي، ولم يبق الا وصول الطائر على الخط المجوي

بلقد احدثت عودة «أمارانتا اورسولا» الى البيت الكبير ت سياة أوريليانو، وان لم تلاحظ هي ذلك. . كان لا يزال على ان عندما عانقته كأخت وتركته لاهث الانفاس. . . وفي كل مرة وخاصة عندما كانت تريه الرقصات الجديدة، كان يلابسه ذلك المغاهر الذي لابس جده الاكبر عندما اخذته بيلار تيرنيرا الى غر بدعوى قراءة طالعه من واق اوراق اللعب . . ولكي يخمد ما كاد عذاب فقد انكب بكل قوته على المخطوطات هرباً من مداعبات

الفتية التي رغم براءتها كانت تسمم لياليه وتقض مضجعه... ولكن كان كلما تحاشى لقاءها، اشتد به القلق والاضطراب وهو يسمع ضحكاتها الطروبة السعيدة تتردد ليلا في ارجاء البيت وهي تسامر زوجها الى وقت متاخر... لم يكن فقط يبيت ليله ساهرا مسهدا حليف الضنى، ولكنه كان ايضا يمضي نهاره التالي محموما منتحبا من الحنق والاحتلام.. وكان يهيم على وجهه في الطرقات شارد الفكر مضطرم الجوانح، فإذا عاد الى البيت وقت الغسروب، دخل من الباب كغريب دون أن يسلم على دامارانتا أورسولا لا أو جاستون وهما يتناولان طعام العشاء في مثل هذا الموعد عادة، فيغلق على نفسه باب الغرفة، عاجزا عن القراءة أو الكتابة أو حتى التفكير، مضطربا من تلك الضحكات الدافشة والهمسات المثيرة التي كانت تؤجج مشاعره..

لقد ظل على هذه الحال من المعاناة والضنى الى أن جاء ذلك اليوم الذي شعرت فيه وأمارانتا أورسولا » بالضجر من وحدتها لانهماك جاستون في مشروع الطيران، فجاءت الى أوريليانوفي غرفته...

قالت له:

_ سلاماً يا متوحش 1 . . أما زلت ملازماً كهفك ؟ . .

كانت ذات اغراء لا يقاوم، وكانت مرتدية فستابا جذابا وعقودا متراكبة صنعتها جميعا بيديها. . . وكانت قد توقفت عن استخدام الطوق لزوجها بعد أن اقتنعت بإخلاصه ولأول مرة منذ عودتهاالى البيت الكبير بدت وهي تنعم بالصفاء والدعة . . . ولم يكن أوريليانو بحاجة الى رؤيتها رأي العين ليعرف انها قد جاءت . . ولم تلبث ان وضعت مرفقيها على المنضدة بقرب كبير من مكانه حتى لقد سمع أوريليانو طقطقة عظامها، وأبدت اهتمامها بالمخطوطات . . . وفي محاولة من أوريليانو للتغلب على اضطرابه، جاهد لاستبقاء صوته الذي كاد يخونه، وأنشأ يحدثها عن قداسة اللغة السنسكريتية

والاحتمالات العلمية للتنبؤ بالمستقبل وضرورة المواظبة على محاولة فك رموز المخطوطات للكشف عن مضامينها الخفية التي استهدفها حكماء القرون الماضية . . . ثم فجأة ، ودون أن يقطع أوريليانو الحديث وضع يده على يدها استجابة لرغبة كامنة في أعماقه ، ظنا بأن هذا القرار النهائي سيضع حداً لهواجسه . . . وإذا هي تمسك بأصبعه السبابة بتلك المودة البريئة التي كانت تبدي مثلها أيام الطفولة ، وظلت ممسكة به وهو يتابع الرد على استلتها واستفساراتها . . وظلا متماسكين بالإصبع على هذا النحو الذي لم ينضح بأي احساس الى أن أفاقت من حلمها العارض ولطمت جبينها بيدها هاتفة :

- النمل ! · ·

وهنا نسيت كل شيء عن المخطوطات، واتجهت الى الباب بخطوة راقصة ، ومن هنا طوحت الى أوريليانوبقبلة على أطراف اصابعها . . تلك التي وجهتها الى أبيها عصر ذلك اليوم الذي ارتحلت فيه الى بروكسل . . وقالت له :

- يمكنك ان تحكي لي في ما بعد. . . نسيت ان اليوم هو موعـد رش الجير على جحور النمل ! . .

ولقد استمرت تعرج على غرفة أوريليانوبين فينة وأخرى كلما اقتضت الاحوال ان تفعل شيئا في ذلك الجناح من البيت، فتمكث دقائق معدودة، بينما يكون زوجها منهمكا في دراسة مشروحاته.. ولما تشجع أوريليانو بهذا التغيير أصبح يتناول الطعام مع الاسرة كما لم يفعل ذلك منذ عودة وأمارانتا أورسولا » الى البيت، وهو ما ادخل السرور على نفس جاستون . . وخلال الحديث الذي كان يدور بينهم بعد الطعام، كان جاستون يشكو من بعض التعقيدات التي عاقت تنفيذ مشروع الخط الجوي في الموعد المقدر، حتى لقد اعرب عن رأيه ذات مرة في القيام برحلة قصيرة الى بروكسل لتسوية

الموقف شخصياً والعودة مع الطائرة المنتظرة ذاتها. . . بيد أن هذه الفكرة لم تلبث ان تبخرت حالما كررت «أمارانتا أورسولا» عزمها على ألا تبرح ماكوندوحتى ولو فقدت زوجها . .

وفي الايــام الاولى من وصول الــزوجين الى ماكــوندو كــان أوريليانــو يشارك في الاعتقاد العام بأن جاستون شخصية بلهاء تسركب دراجة كبيرة العجلة الأمامية، مما أثار في نفسه احساسا غامضا قوامه الرثاء. . ولكنه لم يلبث بعيد أن درس أطواره عن كثب أن قيدر أن طبعه الحقيقي هو بعكس مسلكه الخاضع المستكين، وقام في نفسه شك خبيث بأن انتظار وصول الطائرة ليس الا من قبيل الافتعال والتمويه. . وعندئذ بدا له أن جاستون ليس بالبلاهة التي يصور نفسه بها، بل هو بالعكس رجل في تمام القدرة والصبر، وبعدم رفضه لأي رأي لها، حتى يجيء اليوم الـذي لا تعود فيـه تطيق هـذا المسلك، فتبادر بحزم حقائبها عائدة الى أوروبــا. . . وهكذا استحــال رثاء أوريليانو الى نفور عنيف. . . ولم يتمالك أن اجترأ على تحذير وأمارانتا أورسولا ، من هذا الاسلوب. . . فإذا هي تستخف بشكوكه ، دون أن تفطن الى ما كان يعتمل في نفسه من ضرام الحب والحسد. . . بل لم يخطر ببالها قط أنها تذكى فيه شيئا اكثر من المودة الاخوية، الى أن جرحت أصابعها ذات مرة وهي تحاول فتمح معلبة للخوخ، وسرعان ما اندفع اليها يمتص الدم بشراهة وتفان أرسلا قشعريرة في ظهرها. . ثم ضحكت في شيء من القلق، قائلة:

_ أوريليانو ! . . من يراك يظن انك خفاش مصاصل للدماء ! . . .

وعندثذ انهار أوريليانو تماما. . . فأهوى بقبلات متلاحقة على راحة كفها الجريح ، وكشف عن جوانحه المضطرمة في سيل متدفق من الاعترافات قال فيها انه طالما استيقظ من نومه في صميم الليالي يبكي من الوحدة كلما سمع ضحكاتها الطروبة الدافئة، وطالما تسلل الى مخدعها في غيابها ليلقي نظرة محسورة على ملابسها، وطالما سطا على زجاجات عطرها متطيبا بها لكي تبقى ماثلة في دنياه اطول امد ممكن. . . والحق ان أمارانتا أورسولا قد فزعت من هذه الفورة العاطفية الى حد جعلها تطبق يدها بعنف وتقول له بلهجة كانت أقرب الى بصفة :

ـ يا أحمق ١. . أنا مسافرة على أول باخرة تتجه الى بروكسل ! .

وفي بلواه المتعاظمة هذه لم يجد ملاذا الا في حمى جدته الكبرى بيلار تيرنيرا، وإن لم يعرف نسبه اليها. . .

لقد سمع في جولاته الاخيرة في ماكنوندو انها تقرأ الطالع وتواسي المحزون وتطيب القلوب الجريحة. .

كانت جالسة في مقعدها الهزاز لا تحفل بمر الزمن بعد أن جاوزت المسائة والعشرين من عمرها ولم يبق لها الا أن تجتر الذكريات حلوها ومرها. وما أن رأت أوريليانو حتى أيقنت من بروز عظمتي وجنتيه وملامح الانطواء البادية عليه أنه من سلالة بوينديا . وكان على استعداد للتدفق بالكلام حتى يجد التعاطف الذي يذيب عقدة الكرب التي كانت تخنقه ، بيد أنه لم يفلح الا في بكاء مرير هز كيانه من الاعماق . فتركته يسترسل حتى جفت دموعه وهي تخدش رأسه باطراف أصابعها ، ودون أن يكشف لها أنه يبكي من ضنى الحب فقد عرفت هي من فورها علة هذا البكاء ، وقالت له مواسية :

كل شيء بخير يا طفلي . . . والآن قل لي : من هي ؟ . .

وعندما أخبرها أوريليانو اطلقت ضمحكة عريضة تفيض بالحنان، فهي تعرف ان قلوب افراد اسرة بوينىديا لا تخفى عليها فيها خافية وقمد علمتها التجربة وتداول اوراق الطالع طوال ورن من الزمان ان تاريخ الاسرة هو بمثابة آلـة تتكرر دوراتها عبر الـزمن متشابهة متماثلة. . . وفي النهاية قالت لـه باسمة :

ـ لا تقلق . . حيثما تكون هي الان، فستجدها في انتظارك! ! . .

وكانت الساعة هي الرابعة والنصف عندما خرجت «أمارانتا أورسولا» من الحمام. . . ورآها أوريليانو تمر قرب غرفته بروب الحمام وقد لفت رأسها بمنشفة: . فتبعها على أطراف أصابعه وهو يتعشر من سكرته، ودلف الى مخدعها في اللحظة التي فتحت فيها الروب ثم أطبقته مرة ثانية فزعة مروعة . . . فأشارت صامتة شطر باب الغرفة المجاورة التي كان بابها مواربا والتي كان اوريليانو يعرف ان جاستون جالس فيها يهم بكتابة رسالته . .

قالت له بلا صوت:

ـ اذهب ا . . .

ابتسم اوريليانو. وطوقها بقوة. فدافعت عن نفسها دفاها عنيفا أسالت فيه دم وجهه بأظافرها. وفي غمرة هذا الصراع الرهيب لم تستطع ال تفتح فمها بصراخ جزعاً من الفضيحة المؤكدة. ولم تلبث أن خارت قواها. . .

الفصل التاسع عشر

على الرغم من أن ماكوندو اصبحت بلدة شبه مهجورة تكسوها الاتربة ويشوبها القيظ اللافح، فإن اوريليانو و وأمارانتا اورسولا ، كانا المخلوقين الوحيدين السعيدين فيها، بل أسعد من في الارض جميعا. . .

لقد عاد جاستون الى بروكسل.. فعندما مل انتظار الطائرة قام ذات يوم وجمع ضرورياته في حقيبة صغيرة وأخذ ملف اوراقه ومراسلاته وارتحل وفي النية أن يعود بالطائرة، «قبل ان يعلم آخر المطاف أن الشركة التي كان يفاوضها قد حولت الاتفاق الى جماعة من الطيارين الألمان عرضوا على المجهات الممختصة مشروعا اكثر طموحا من مشروعه».. وهكذا خلا الجو لأوريليانو و «أمارانتا اورسولا» لكي يطلقا العنان لغرامهما، حتى لم يحفلا بالنمل وهو يجتاح البيت اجتياحا، كما هجر اوريليانو المخطوطات ولم يعد يفارق البيت...

وفي فترات الصحو من حمى غرامهما العنيف كانت وأمارانتا اورسولا ، ترد على رسائل جاستون وقد بدا لها بعيدا عنها بعداً سحيقاً وغارقاً في مشروعاته الى حد خالت معه أن عودته غدت مستحيلة . . .

وفجأة، ومثل صاعقة تنقض من السماء تلقت «أمارانتا أورسولا» في غفلة النشوة نبأ قرب عودة جاستون بعد فشل مشروعه... لقد فتحت هي وأوريليانو اعينهما بعد زوال الغشاوة، وغاصا في أعمق أعماق نفسيهما، وتطلعا الى الرسالة وأيديهما على قلبيهما، وأيقنا انهما لصيقان احدهما بالأخر الى حد يؤثران معه الموت على الافتراق.. وهكذا سطرت لزوجها

رسالة كانت هي النقائض بعينها، كررت فيها الإعراب عن حبها له وشوقها لرؤياه من جديد، ولكن في نفس الوقت اعترفت اعترافا قدريا باستحالة العيش بغير أوريليانو. . . وعلى عكس ما كانا يتوقعانه، فقد بعث اليهما جاستون برد هادىء شبه «أبوي »، أفرد فيه نحو صفحتين كاملتين كانتا بمثابة تحذير من تقلبات العاطفة، مع فقرة اخيرة اعرب فيها عن أصلق تمنياته لهما بسعادة تماثل سعادته في فترة زواجه القصيرة . . والحق أن هذا المسلك كان أبعد ما يكون عن تصور «أمارانتا أورسولا» الى حد أنها شعرت بالمهانة اذ رأت أنها أعطت زوجها الذريعة التي كان يريدها لكي يهجرها لمصيرها . . أما أوريليانو فقد راح يسري عنها ويبذل الجهدليين لها أنه يستطيع أن يكون في مرتبة الزوج في الضراء كما في السراء ، حتى أن المطالب اليومية التي حاصرتهما بعد أن نفدت البقية الباقية من نقود جاستون خلقت بينهما لونا من التضامن إن لم يكن في قوة الغرام المتقد الا أنه لم ينل من عاطفتهما المشبوبة . . .

وأصبحا ينتظران مولودا... وخلال فترة الحمل حاولت وأمارانتا أورسولا ع التكسب من صنع عقود للزينة من عظام الاسماك. ولكن باستثناء فتاة الصيدلية المجاورة التي ابتاعت عددا محدودا منها، لم تستطع ايجاد زبائن آخرين. وأدرك اوريليانو لأول مرة ان حدقه في اللغات، ومعرفته الواسعة التي اكتسبها من دائرة المعارف المصورة، وبراعته في الإحاطة بالوقائع والاماكن البعيدة دون أن تتوافر له رؤيتها. كل ذلك كان غير ذى جدوى، مثل علبة المجوهرات الحقيقية الخاصة بزوجته، والتي لا بد أن قيمتها كانت تساوي اكثر من كل ما يملكه سكان ماكوندو السابقون جميعا...

لقـد استطاعـا البقـاء بين الاحيـاء بمعجـزة. . . وعلى الـرغم من أن «أمارانتا أورسولا» لم تفقد بهجتها وبشاشتها، فقد اعتادت اخيرا أن تجلس في مدخل البيت بعد الغداء في لون من القيلولة تشوبه اليقظة والسهوم . . . وكان اوريليانو يصاحبها في هذه الجلسات . . . وكانا احيانا يبقيان هكذا صامتين حتى حلول الليل، متقابلين، بأعين تتبادل النظرات، متحابين بتلك الفورة التي كانت لهما في أول العهد بالغرام الفاضح ، فلا يملكان ازاء الشك في المستقبل الا أن يديرا قلبيهما الى الماضي . . . وفي هذا الماضي كانا يستعيدان صور الطفولة السعيدة عندما كانا يخوضان في مياه الامطار ويعبثان بالفقاقيع ، وعندما كانا يقتلان السحالي بوضعها حول رقبة أورسولا العجوز الكفيفة ، وعندما كانا يقتلان السحالي بوضعها حول رقبة أورسولا العجوز وأخبرتها أمها فرناندا أن أوريليانو الصغير ليس له أب معروف لأنهم عثروا عليه في ملة طافية في النهر . . . وكل ما استطاعا التوصل اليه بعد دراسة أورسولا » الى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس ، تلك التي لم تذكر من أمرها أورسولا » الى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس ، تلك التي لم تذكر من أمرها من الهلع . . .

وعندما تعذب أوريليانو بما بدا له من أنه أخ لزوجته، فقد همرع الى الابرشية للبحث في سجلاتها العطنة التي أكلها العث عن اثر يمرشده الى أبويه.. ولما طال بحثه دون جدوى نظر اليه القس الكهل المقعد في مكانه بسبب الروماتزم وسأله بإشفاق عن اسمه، فأجاب:

_ أوريليانو بوينديا . . .

فقال له القس بلهجة قاطعة:

- اذن لا تتعب نفسك في البحث. . . منذ سنوات بعيدة كان هنا شارع بهذا الاسم، وفي تلك الايام كان من عادة الناس أن يسموا مواليدهم بأسماء الشوارع . .

فقال أوريليانو وهو يرتجف حنقاً:

- مكذا ? . أنت ايضا لا تصدق ؟ ! . .

_ أصلق ماذا ؟ . .

فرد أوريليانو بقوله :

.... إن الكولونيل أوريليانو بوينديا خاض اثنتين وثلاثين حوبا أهلية وخسرها جميعاً، وإن رجال الحكومة قتلوا بالرصباص ثلاثـة آلاف رجل في ميدان المحطة وحملوهم بالقطار وألقـوا جثنهم في البحر؟..

فتفرس فيه القس بنظرة ربًّاء وتنهد قائلاً:

ـ آه يـا ولدي ١. . يكفيني أن أتبأكد أنبك وأنـا مـوجـودان في هـذه اللحظة . . .

وهكذا نقبل أوريليانو و «أصاراتنا أورسولا » قعمة السلة المطافية، لا لأنهما صدقاها، بل لأنها وفرت عليهما الهلم .. وبتقدم عهد الحمل ازداد ارتباطهما واندماجهما في العزلة المطبقة على البيت، ذلك البيت الذي لم يكن يحتاج إلا الى نفخة واحدة اخيرة لكي يتداعى ويتقوض . . . وقد اقتصر وجودهما على جانب محدود فيه هو اللي يبدأ من مخدع فوناندا حتى بداية المدخل، حيث كانت «أماراننا أورسولا » تجلس لكي نخيط ثياب المولود المنتظر . . أما باقي المنزل فقد أصبح نهبا للدمار بفعل النمل وسائر الحشرات، حتى اضطر الاثنان الى تحصين منطقتهما بعوازل من الجير ضد الحشرات، حتى اضطر الاثنان الى تحصين منطقتهما بعوازل من الجير ضد جداقت تظهر على وجهها، وتورم ساقيها، وتشوه قوامها اللذن . . كان من جراء هذا كله ان تغيرت «أماء انتا أورسولا » تماما، فلم ثمد ذلك المخلوق الذي كان ينضح شبابا عند وصولها الى البيت لأول مرة مع زوجها الاسير بالمطوق حول رقبته . . . ولكن ذلك لم يغير من حيويتها وروحها الوثابة ، اذ قالت مرة ضاحكة :

ـ من كان يصدق أن الامر سينتهي بنا الى أن نعيش كالمتوحشين ! .

ومع هذا فقد أمضى أوريليانو و وأمارانتا أورسولا ، الشهبور الاخيرة وأيديهما متشابكة، وانتهى بهما الحب الى الولاء للطفل الذي جاءت بلرته في سعار الحرام . . . فإذا كان الليل وهما متعانقان ماكانا ليفزعا من تلك الطقطقة التي يحدثها النمل والعث، وذلك الحفيف لنماء الحشائش في الطغطقة التي يحدثها النمل والعث، وذلك الحفيف لنماء الحشائش في يخيل اليهما أنهما يسمعان أورسولا العجوز وهي تغالب قوانين الخليقة للحفاظ على تسلسل الأسرة، وجوزيه اركاديو بوينديا الكبير وهو دائب في سعيه وراء المخترعات، وفرناندا في صلواتها، والكولونيل أوريليانو بوينديا وهو يخادع نفسه بالحروب وصنع الاسماك اللهبية الصغيرة، وأوريليانو وهو يخادع نفسه بالحروب وصنع الاسماك اللهبية الصغيرة، وأوريليانو هذا التحول الشبحي قادر على الانتصار على المحوت، فكان يسعدهما أن يمضيا في حبهما في كينونتهما الطيفية هذه الى أبد الابدين . . .

ثم جاء عصر يوم الاحد الذي شعرت فيه وأمارانتا أورسولا » بآلام المخاض. . . ولما جاءت القابلة مددتها على مائلة المعام وجعلتها نقوم بحركات عنيفة الى أن غطت صبحاتها صراخ المولود الذكر الضخم الذي بزغ الى نور الوجود. . . ومن خلال دموعها رأت وأمارانتا أورسولا » أنه سيكون واحدا من سلالة بويندياالجبابرة بقوته ومخائل عزمه البادية عليه مثل جوزيه اركاديو الفحل، وبعينيه المفتوحتين العرافتين مشل أعين من تسموا بإسم أوريليانو. . وكأنه نبوءة لبداية تسلسل الأسرة من جديد وتطهيرها من دنس الفواحش والفسوق وأثقال العزلة والوحدة . . .

وفي هذا لم تتمالك وأمارانتا أورسولا ، أن قالت :

ـ هو متوحش حقيقي . . . سنسميه زودريجو. .

ولكن زوجها عارضها قائلا :

لا.. سنسميه أوريليانو، وسوف ينتصر في الحروب الشانية
والثلاثين..

وبعد قطع الحبل السري بدأت القابلة تمسع بخرقة ما علق بجسد الطفل في ضوء المصباح الذي رفعه أوريليانو. . . وعندثد لم يروا الا بعد أن أداروا الطفل على بطنه أن به شيئا أكثر مما في ساثر الذكور. . . فلما انحنوا فوقه لفحصه ، اذا هو ذيل خنزير . . .

لم ينزعج كلاهما. . . فإن أوريليانو و دأمارانتا أورسولا » لم يكونا عارفين بما كان في سوابق الاسرة ، ولا تذكرا تلك المحاذير المروعة التي قالتها أورسولا العجوز عما ينجم من تزاوج الاقارب ابناء الاسرة الواحدة ، كما أن القابلة سكنت روعهما بقولها إن الذيل يمكن قطعه بعد أن يصل الطفل الى مرحلة دالتسنين » . . . ثم حدث ما أنساهما حالة الطفل، فقد أصيبت دأمارانتا أورسولا » بنزف حاد عجز عن وقفه كل تطبيب القابلة . . . وخلال الساعات الاولى حاولت دأمارانتا أورسولا » الاحتفاظ بمرحها ودعابتها ، حتى أمسكت بيد أوريليانو المرتاع ورجته ألا يقلق ، لأن من كانت محاولات القابلة . . . ولكن عندما بدأ اوريليانو يفقد الامل ، اخذت بنيتها محاولات القابلة . . . ولكن عندما بدأ اوريليانو يفقد الامل ، اخذت بنيتها استعانوا فيها بكل ما قدروا عليه حتى الرقى والتعاويذ والابتهالات ، توقف النوف فجأة دون مزيد من الاسعاف ، واستحال محباها الى النحول ، وزالت النبق من وجهها مخلفة هالة من المرم ، وعادت اليها البسمة . .

كانت داهية لم يمن أوريليانو بأشد منها في حياته. . . وفي غمرات بلواه وضع الوليد في السلة التي أعدتها له أمه سلفا، وغطى وجه الجشة

بملاءة ، وغادر البيت هائما على وجهه في البلدة . . . كان يبحث عن أحد ما يبثه مصابه ، ولما قادته قدماه إلى مكتبة القطالوني وجده قد ارتحل عائدا الى بلاده . . . فلم يستطع ان يغالب دموعه التي تفجرت لطول ما حبسها في مآقيه أمام فراش «أمارانتا أورسولا» وهي في دور الاحتضار . . وراح يلعلم الجدار بقبضتي يديه حتى ادماهما . . . وفي النهاية تذكر الطفل ، فقفل عائدا الى البيت . .

لم يعثر على السلة. . .

تملكته أول الامر فرحة غامرة. فقد ظن أن دأمارانتا أورسولا ، قد استيقظت من الموت لكي ترعى الطفل. . . لكن جثتها كانت كوما من العظام تحت الملاءة. . . وعندما فطن الى أنه عندما وصل ألفى بباب غرفة النوم مفتوحا، لم يلبث أن يمم شطر غرفة الطعام ونظر فيها. . كانت الآثار والبقايا المتخلفة عن الولادة لا نزال كما هي . . .

فقد بدا له أن القابلة ربما عادت في وقت ما من اجل الطفل، ووجد في هذا الخاطر وقفة للراحة والتفكير. . . فجلس في المقعد الهزاز وهو نفس المقعد الذي جلست فيه من قبل أمارانتا وهي تلاعب الكولونيل جيريلدو ماركيز الشطرنج، والذي جلست فيه بعد ذلك وأمارانتا أورسولا ، لتخيط ملابس الطفل قبل أن يولد، وفي لحظة الذكرى الخاطفة شعر بأنه عاجز عن احتمال وقر ذلك الماضي في قرارة روحه، فإذا أضيفت اليه اثقال الحاضر كان الوقر ابهظ من أن يحتمله انسان . . . وفي خلال ذلك راعمه اصرار العناكب وهي تعمل دائبة بين شجيرات الورود الميتة، وحفيف الهواء وهو لا يكل ولا يتوقف . . وعند هذا الحد وقم نظره على الطفل . .

كان كيسا يابسا منتفخا من الجلد، التفت حوله نمال الدنيا كلها تسحبه شطر جحورها على امتداد الممشى الحجري في الحديقة...

لقد عجز اوريليانو عن الحركة. لا لأنه شل من الهلع، بل لأنه تذكر في هذه اللحظة الرهيبة المروعة تلك العبارة التي قرأها في مخطوطات مالكويداس والتي تقول: «إن أول السلالة سيربط في شجرة، وآخرها سوف تأكله النمال » . . .

لم يكن أوريليانو في كل حياته الماضية اصفى ذهنا مما كان الان وهو يسمر ابواب البيت ونوافله بالعوارض المتصالبة المتخلفة من عهد فرناندا، حتى لا تستدرجه أية مغريات من العالم الخارجي، اذ قد عرف الان أن مصيره مكتوب في مخطوطات مالكويداس...

وجدها سالمة من أي سوء. . . وراح يفك طلاسمها صابرا مستعينا بمفاتيح الشفرة التي وفق اليها في دراساته الطويلة الماضية والتي أدت نطورات حياته الاخيرة الى انقطاعه عن اتمامها. . . لقد حشد مالكويـداس وقائم تاريخ الاسرة على مدار قرن من الزمان. وإن ركزها في مدى واحد سبق به الزمن. . . وكان أوريليانو في لهفة بالغة لمعرفة منششه، فجعل يتخطى الصفحات متعجلا في الوقت الدي بدأت الربح تهب فيه حارة مليثة بأصوات الماضي وحفيف الزهور الذابلة، بيد أنه لم يحفل بها لأنه ما لبث ان اكتشف بواكير وجوده في ذلك الجد الماجن اللهي سعى عبر الجبال للفوز بامرأة جميلة لم يجد عندها السعادة التي كان ينشدها. . . عرف فيهما «أوريليانـو الثاني وفرناندا . . . وأسرع يتابع خفايا منبته الى أن اطلع على واقعة حمل أمه وميم ، له بين العقارب والفراش الاصفر في حمام وقت الغروب، حيث أطفأ شاب ميكانيكي سورة عاطفته بين ذراعي امرأة منحته نفسها تمردا على كافة القيم. . . ولقد بلغ من شدة استغراق أوريليانو أنه لم يشعر بالريح وهي تعنف وتستحيل الى عاصفة خلعت الابواب والنوافد وأطاحت بسقف الجناح الشرقي وخلخلت دعاثم البيت. فعنمد للذ فقط اكتشف ان وأمارانتما أورسولا ، لم تكن اخته، بل كانت خالته، وكان ثمرة خطيئتهما ذلك المولود

الاسطوري الذي كتب عليه أن يكون آخر سلالة الاسرة. . .

عند هذا الحد كانت ماكوندو إعصاراً مروعا من الاتربة والانقاض المتطايرة، ولكن أوريليانو مضى يقلب الصفحات ليجاوز وقائع حياته الراهنة ويطلع على الفقرات التي تتنبأ بتاريخ وظروف وفاته. . وقبل ان يصل الى الصفحة الاخيرة كان قد أدرك مسبقا أنه قد كتب عليه ألا يبرح هذه الغرفة قط، اذ خط في لوح القدر أن بلدة السراب هذه ستمحوها الرياح من على ظهر الأرض محوا وتزول ذكراها من الاذهان لحظة أن يفرغ أوريليانو بابيلونيا من فك طلامم المخطوطات، وأن كل ماورد بها لن يتكرر في مسار الزمان الى الأبد، لأن السلالة التي قضى عليها بأن تعيش مائة عام من العزلة لن تتاح لها فرصة اخرى لامتداد البقاء على وجه الأرض.

تمت





دمشت - سكيوت

ستيرف : شارع المعمراء .ص.ب ١١٣/٥٧٢٠ د ميشستى : المعجست از رص. سب ١١٦٣٧ هاتف ٢٦٥٢٦ . سجل تجارى ١٩٨٥٧